(الحرب: اليوم الأول: ٥ يونيو حزيران)

يقوم سلاح الجو الإسرائيلي بضربته.

وتبدأ الحرب البرية.

الهجوم الأردني-السوري المضاد

بدأت الحرب في الساعة ٧,١٠ صباحاً بتوقيت إسرائيل، عندما أقلعت ست عشرة طائرة نفاثة من طراز ماجيستير فوغا (Magister Fouga) -فرنسية الصنع، طائرات تدريب من عهد خمسينيات القرن العشرين زُوِّدت حديثاً بالصواريخ، من مطار حتزور (Hatzor). كانت هذه الطائرات تبث على ترددات تستخدمها طائرات الميستير (Mystere) والميراج (Mirage) النفاثة؛ وانطلقت محاكية ذلك الطراز من الطائرات طلعة من نمط الدوريات الروتينية. وبعد أربع دقائق، أقلعت المقاتلات الحقيقية - قاذفات أوراغان (Ouragan)- من مطار حتزور، وتبعها بعد ذلك بخمس دقائق سرب من طائرات الميراج من مطار رامات ديفيد (Ramat David)، وخمس عشرة طائرة ذات محركين من طراز فاتورز (Vatours) من مطار هاتزريم (Hatzerim). وما إن حلت الساعة السابعة والنصف حتى كان في الجو ما يقارب ٢٠٠ طائرة مزودة بأوامر قائد سلاح الجو موتي هود(Motti Hod) التي أصدرها صبيحة ذلك اليوم، على النحو التالي: «إن روح أبطال إسرائيل ترافقنا إلى المعركة... وعلينا أن نستمد قوتنا وشجاعتنا من يشوع بن نون، والملك داوود، والمكابين، ومقاتلي ١٩٤٨ و١٩٥٦ لنضرب المصريين الذين يهددون سلامتنا، واستقلالنا، ومستقبلنا. طيروا، وحلّقوا نحو العدو، ودمروه وبعثروه في طول الصحراء وعرضها حتى تعيش إسرائيل آمنة في أرضها لأجيال».

انطلقت الطائرات على ارتفاع منخفض لا يزيد على خمسة عشر متراً لتتلافى اكتشافها من مواقع الرادارات المصرية البالغ عددها ٨٢ موقعاً. انعطفت غالبية الطائرات نحو الغرب باتجاه البحر الأبيض المتوسط، قبل أن تستدير عائدة في اتجاه مصر. وانطلقت طائرات أخرى باتجاه البحر الأحمر نحو أهداف في عمق الداخل المصري. روعي صمت أجهزة اللاسلكي مراعاة صارمة. وحصرت الاتصالات بإشارات الأيدي حتى عند عبور ممرات الطيران. قال الكولونيل رافي هارليف (Rafi Harlev)، رئيس عمليات سلاح الجو الإسرائيلي، لطياريه: «إن اسم الخطة في طريقه إلى السواحل المصرية دون أن يكتشف». وحذرهم أنه إذا ما حصل عطل ميكانيكي فينبغي ألا ترسل إشارات طلباً للمساعدة. بل على الطائرة المعطلة أن تسقط في البحر.

ومع ذلك كان لأولئك الطيارين ميزات كبرى. فقد كانوا أفضل تدريباً من أعدائهم المصريين، وحققوا أزمنة طيران أطول، وكانت غالبية طائراتهم ال ٢٥٠ (٦٥ ميراج، و٣٥ سوبر ميستر، و٣٥ ميستر مارك IV، و٥٠ أوراغان، و٢٠ قاذفة خفيفة من طراز فاتور، و٤٥ فوغاس) كلها تعمل. وقد قامت بتدريبات على عملية فوكس (Focus) بصورة متكررة، تنفذها على خرائط تحاكي المطارات المصرية، تحت ظروف سرية تماماً تقريباً. إذ لم يكن يعلم بالخطة سوى بضعة وزراء، في حين أن معظم أعضاء هيئة الأركان العامة لم يتسلموا سوى موجز من صفحة واحدة فقط. ومن جهة أخرى كانوا يعرفون الكثير عن الأهداف الإسرائيلية - مربض كل طائرة نفاثة مصرية، مع اسم ملاّحها ورتبته وحتى صوته.

تم الحصول على معظم هذه المعلومات بفضل أجهزة إلكترونية، ولكن بعضها تم الحصول عليه عن طريق الجواسيس. فقد حصل وولف غانغ لوتز (Wolfgang Lotz) ألماني المولد الضابط في SS سابقاً، على تفاصيل حيوية من القادة المصريين الذين صادقهم حتى إلقاء القبض عليه في العام ١٩٦٤وهناك مصادر من مقامات رفيعة، من بينهم ضابط المخابرات أنور إفريم (Anwar Ifrim)، وعلي الألفي -Ali

Alfi، ومدلّك عبد الناصر شخصياً، أسهمت في ما أسماه هود فيما بعد بـ (مخابرات الزمن الحقيقي لإسرائيل) على الطيران المصري. أما المصريون، فلم يكن لديهم سوى حماية قليلة لطائراتهم، التي كانت متمركزة حسب نموذجها -ميغ (Migs)، وإليوشن (Illyushins)، وتوبولوف (Topolov)- كل طراز في قاعدته، الأمر الذي أتاح لإسرائيل وضع أولويات لأهدافها. وعلى الرغم من أن اقتراحات بإنشاء هنغارات من الإسمنت المسلح قد قُدِّمت وتمَّت الموافقة عليها، إلاَّ أن أياً منها لم ينفذ. فكانت الطائرات النفاثة المصرية رابضة على ساحات مكشوفة في المطارات، حتى بدون أكياس رمل كثيرة حولها. كان هود مغرماً بالقول: « تعد الطائرة النفاثة أكثر سلاح فتكاً في الوجود - ما دامت في الجو، أما وهي على الأرض فهي عاجزة كلياً عن الدفاع عن نفسها». (١)

معظم الطائرات المصرية تقريباً كانت على الأرض في تلك اللحظة، وكان طياروها يتناولون طعام الإفطار. ومع الافتراض بأن الهجوم الإسرائيلي سيبدأ عند الفجر، فإن طائرات الميغ كانت قد أنجزت دورياتها عند شروق الشمس وعادت إلى قواعدها في الساعة ٨,١٥ بتوقيت مصر، أي ٧,١٥ بتوقيت إسرائيل. ولم يكن في الجو سوى أربع طائرات تدريب غير مسلحة. وأقلعت من قاعدة الماظة طائرتا نقل من طراز إليوشن -١٤. كان على متن إحداهما المتجهة إلى قاعدة بير التمادا (Bir al-Thamada)، المشير عامر وقائد سلاح الجو صدقي محمود، وكان على متن الأخرى المتجهة إلى أبو سوير (Abu Suwir) رئيس المخابرات الداخلية حسين الشافعي، ورئيس وزراء العراق، ومستشار عسكري سوفياتي رفيع المستوى. وبقية قيادات الجيش جميعاً إما كانوا على متن هاتين الطائرتين أو على أرض القواعد بانتظار هبوطهما. فعندما لاحظت الطائرات الإسرائيلية على شاشات الرادارات وجود طائرات إليوشن ساورهم خوف من اكتشاف أسرابهم المقتربة. فصدر إنذار بوجود طائرات إسرائيلية في الجو، ولكن ليس من القاذفتين اللتين أخذتا تعلوان إلى ارتفاعات تطوافية استكشافية بهدوء، بل جاء الإنذار من عجلون (Ajlun).

كانت محطات الرادار الأردنية المقدمة من بريطانيا، المنشأة على جبل عجلون من أكثر المحطات تقدماً في الشرق الأوسط. في الساعة ٨,١٥ رُصعت شاشات الرادار فجأة بصور طائرات. وعلى الرغم من أن الأردنيين يألفون وجود أعداد كبيرة من الطائرات الإسرائيلية المتجهة إلى البحر، إلا أن عدد الطائرات اليوم قد فاق التوقعات، ولم يسبق له مثيل. فأرسل الضابط المناوب إشارة لاسلكية مرمزة «عنب» وهي كلمة تعني «الحرب» بالشيفرة المتفق عليها، إلى مقر قيادة الجنرال رياض في عمان. فحول رياض هذه الإشارة بدوره إلى وزير الدفاع شمس بدران في القاهرة، وبقيت هناك بدون فك شيفرتها. إذ كان المصريون قد غيروا ترددات شيفرتهم في اليوم السابق ولكن دون أن يعلموا الأردنيين. والإسرائيليون كذلك غيروا شيفرتهم بحيث جعلوا المراصد في عجلون تتساءل هل هذه الصورة التي ظهرت على شاشاتها هي طائرات سلاح الجو الإسرائيلي أم هي طائرات في البحر. وكانوا يراقبون، عندما أظهر الرادار فجأة أن الطائرات قد تحولت إلى الشرق باتجاه سيناء، فأبرقوا بالكلمة المرمّزة مراراً وتكراراً.

حتى وإن وصلت تلك الرسائل وأمكن قراءتها، فإن بدران لم يكن موجوداً ليقرأها. إذ كان وزير الدفاع قد ذهب إلى النوم قبل بضعة ساعات وقد أصدر أوامر صارمة بألاَّ يزعجه أحد. وكذلك الكولونيل مسعود الجنيدي (Mas'ud al-Junaydi) المسؤول عن فك رموز الشيفرات، والجنرال جمال عفيفي (Gamal ;Afifi) رئيس عمليات سلاح الجو، كلاهما لم يكونا موجودين. ادعى عفيفي، أثناء محاكمته فيما بعد بتهمة عدم الكفاءة: «كنت خارج الجيش مدة عشر سنوات قبل ذلك، ولم يكن لي في تلك الوظيفة سوى ستة شهور. والحمد لله أني لم أكن موجوداً، لأن الرجل الذي كان موجوداً يعرف بمن يتصل وماذا يفعل. فلو كنت هناك لكان الحال أسوأ بكثير».

أرسلت المخابرات الجوية تقارير مكثفة أيضاً حول الهجوم الإسرائيلي، ولكن الضباط الموجودين في مقر القيادة العليا، الموالين لعامر، ولا يثقون بمن يوالون عبد الناصر في سلاح الجو، أهملوا هذه التقارير. (٢)

أما فيما يتعلق بالإسرائيليين، كانت تلك الدقائق محورية بالغة الأهمية. وعلق عزار وايزمن قائلاً: «كان القلقُ لا يُصَدَّق». فلم يقدم استقالته في النهاية، وابتلع كبرياءه وظل رئيساً للعمليات. ولكن وايزمن لا يأبه كثيراً بالمعارك الأرضية، إذ كان اهتمامه الأساسي سلاح الجو وخطة فوكس التي ساعد في وضعها. وقال بشأنها: «منذ خمس سنين وأنا أتحدث عن هذه العملية، وأشرحها، وأبرزها للوجود، وأحلم بها، وأصنعها حلقةً حلقة، وأدرب الرجال على تنفيذها والآن، في غضون ربع ساعة، سنعرف ما إذا كانت مجرد حلم أو أنها حقيقة واقعة».

كانت الخطة، التي تتطلب عشرات الأسراب تنطلق من قواعد مختلفة لتلتقي بصمت على أحد عشر هدفاً في غضون ٤٥ دقيقة طيران، أشبه بمتاهة في تعقيداتها، وفائقة الخطورة. فقد زُجَّ في الهجوم جميع سلاح الجو الإسرائيلي ما خلا اثنتي عشرة طائرة نفاثة - أسماها أنصار كرة القدم الأمريكيون «السلام المريخي» (Hail Mary) تاركة أجواء البلد بلا دفاعات عملياً. اقتنع قادة سلاح الجو الإسرائيلي، بعد تدريبات لا حصر لها، أنه يمكن تدمير القوة الجوية المصرية، حتى وإن أفلحت في الإقلاع من على مدارجها، في غضون ثلاث ساعات. ومع ذلك ظلت الشكوك تساور رابين، حتى إنه أصدر أوامره لوحدات فدائيين كي يستعدوا للقيام بهجمات ليلية على المطارات المصرية في حال فشل خطة فوكس. (٣)

كان رابين ودايان ينتظران مع وايزمن وقائد سلاح الجو القلق، في مقر قيادة سلاح الجو الإسرائيلي. قال هود الذي تقع على عاتقه المسؤولية المباشرة عن الهجوم: «شعر بالخمس والأربعين دقيقة الأولى وكأنها يوم كامل». كان هود، ذلك الرجل النحيل الصَّموت، من سكان الكيبوتسات سابقاً، فقد هَرَّب ناجين من الهولوكوست إلى فلسطين بعد الحرب العالمية الثانية، ومن ثم هَرَّب، قبل حرب الاستقلال، طائرة من طراز «سبت فاير» (Spit Fire) بريطانية، كذلك. واكتسب في معارك ١٩٤٨، ١٩٥٦ شهرة بأنه طيار ماهر ورابط الجأش. وكان مشهوراً بدهائه وسعة حيلته وعزمه أكثر من شهرته بالذكاء والألمعية، وكانت رغبته الجامحة، كأي

سينسيناتي (Cincinnatus-Like) أن يعود للزراعة، ولكن وايزمن أصر على أن يحل محله كرئيس لسلاح الجو منذ أوائل العام ١٩٦٦. ومنذ ذلك الحين وهو منهمك في تنقيح خطة فوكس، مقلصاً زمن العودة لتزويد الطائرات بالوقود والسلاح، إلى أقل من ثماني دقائق. في حين كانت تلك العملية تستغرق عند المصريين ثماني ساعات قال وايزمن إلى هود: «إنه لا يستطيع الاستشهاد بالشاعر العبري بياليك (Bialik) أو بشكسبير، ولكنه سوف «يخوزق» العرب بالعبري الفصيح».

خارطة الحرب الجوية ٥ يونيو ١٩٦٧

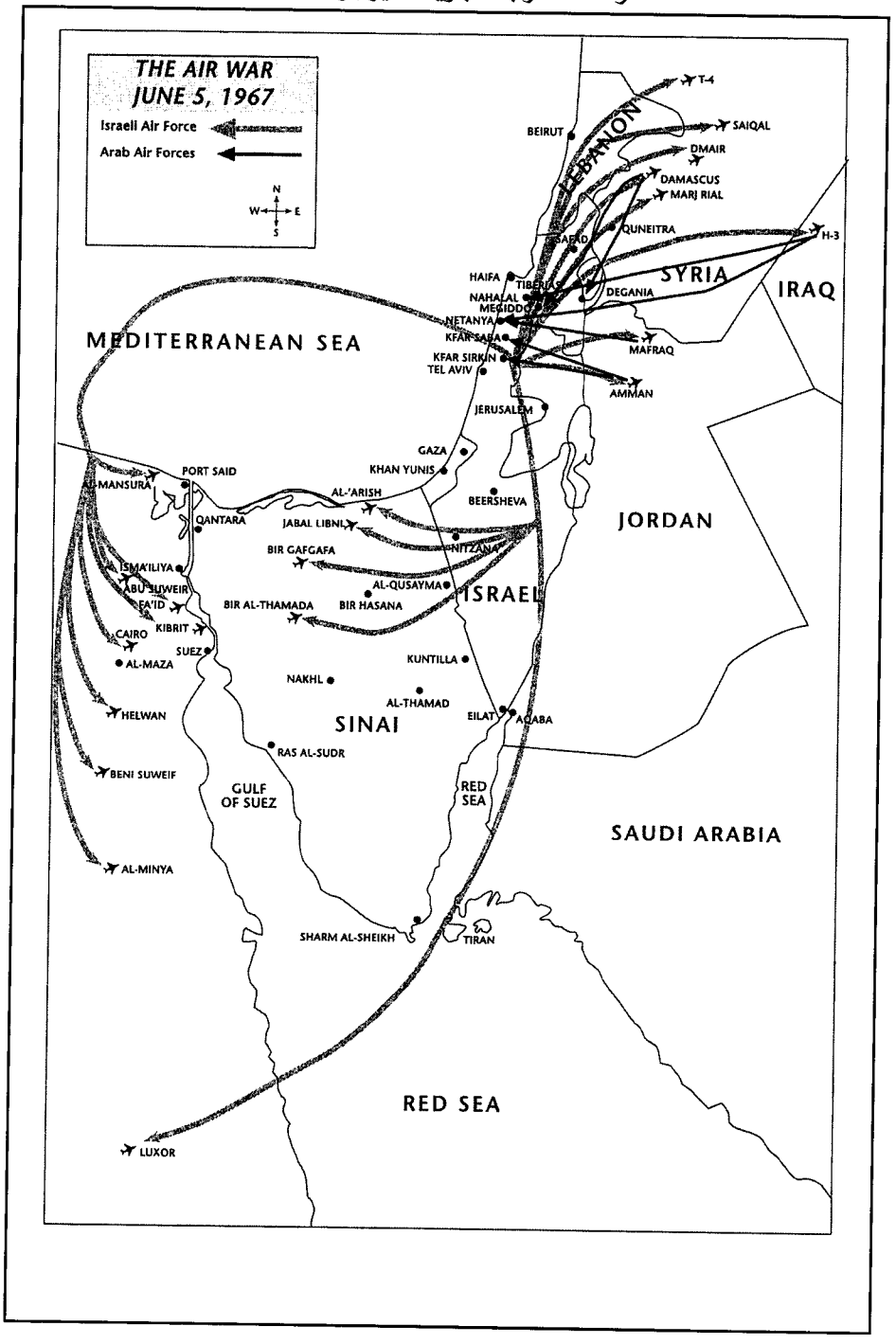

كان وايزمن يرقب، والعرق بتصبب منه، ويفرغ أباريق من الماء في جوفه كأنه مشع هائل، وكان هود ينتظر أخبار الموجة الأولى من الهجوم. لقد عبرت التشيكلات الرائدة البحر، وقد نجحت بفضل استخدام أجهزة تشويش إلكترونية، بالإفلات من اكتشاف السفن السوفياتية لها.

وفي الساعة السابعة والنصف بتوقيت إسرائيل شوهدت الأهداف الأولى. كانت الطائرات رابضة في ساحاتها في صفوف ضمن سواتر دائرية في قاعدتي فايد (Faid) وكيبرت (Kibrit)، مثلاً، حيث قدرت المخابرات المصرية خطأ أنها خارج مدى الطيران الإسرائيلي. وكان لا يوجد في كثير من المطارات سوى مدرج واحد - إن أغلق فإن الطائرات التي من المفروض أن تستخدمه تكون قد حكم عليها بالفناء. (٤)

أما في الجو، فكانت الرؤية رائعة، وكان عامل الريح يقارب الصفر وكانت الظروف مثالية للهجوم. حلقت الطائرات الإسرائيلية الآن بسرعة هائلة إلى ارتفاعات بلغت ٩٠٠٠ قدم كاشفة نفسها للرادار المصري، الأمر الذي جعل الطيارين المصريين يهرعون إلى مدارج الطائرات متزاحمين بالمناكب. ولكن قلة منهم سيصلون طائراتهم.

انقضَّت الطائرات. واقتربت من أهدافها بتشكيلات رباعية، وهاجمت بتشكيلات ثنائية، تنجز كل منها ثلاث جولات -أو أربع إن سمح الوقت بذلك- الأولى للقصف والبقية للهجوم. وأعطيت الأولوية الأولى لقصف المدارج، ثم قصف القاذفات بعيدة المدى التي تهدد المدن الإسرائيلية، ومن ثم قصف المقاتلات النفاثة من طراز ميج. وآخر ما يُقصف هو الصواريخ والرادارات ومنشآت الدعم، ينبغي أن تستغرق كل هجمة من سبع دقائق إلى عشر؛ وتستغرق رحلة العودة عشرين دقيقة، والتزود بالوقود ثماني دقائق، واستراحة الطيار عشر دقائق؛ وبالتالي تعود الطائرة للعمل ثانية بعد ساعة. وأثناء هذه الساعة يجب أن يستمر قصف القواعد المصرية دون انقطاع.

قال أفيهوبن نون، قائد أحد تشكيلات الميستير فوق فايد (Faid) متذكراً: «أخذت السماء تصفو تدريجياً كلما اقتربنا من الهدف. وعندما انقضضت وأطلقت قذائفي، رأيت أربع طائرات ميغ - ٢١ عند نهاية المدرج مستعدة للإقلاع. فسحبت ذراع إطلاق القنابل، وبدأت أطلق النار فأصبت اثنتين من أربعة، واشتعلت النيران فيهما».

أما القنابل التي أسقطها بن نون فكانت من نوع دوريندال (Durendal) وهو نوع سري جداً تم تطويره بالاشتراك مع الفرنسيين وسميّت باسم سيف رولاند (Roland). ولدى إطلاق القنبلة التي تزن ١٨٠ رطلاً كانت توازن بصاروخ ارتجاعي ومظلة إلى أن تصبح فوق الهدف مباشرة ومقدمتها نحو الأسفل بدرجة ٦٠، عندئذ يقوم صاروخ محرض يدفعها إلى أعماق الممر كانت قنابل الدروريندال تترك حفراً عمقها ١,٦ متراً وعرضها ٥ أمتار جاعلة المدارج غير صالحة للاستعمال. ولا يمكن إصلاحها لأن الفتائل المتأخرة الموجودة على القنابل تستمر بالانفجار. ألقي أكثر من مئة قنبلة من هذا النوع على قاعدة أبو سوير وحدها في أقل من ساعة. ويتابع بن نون القول: «لقد دمرنا ست عشرة طائرة ميغ مبعثرة في المطار، وشللنا بطارية سام -٢ في طريق عودتنا. كنا نشاهد ألسنة اللهب تتصاعد في جميع المطارات المصرية الأخرى».

على الأرض، كان الطيارون المصريون في حالة صدمة، غير مصدقين بأن إسرائيل استطاعت اختراق دفاعاتهم، وأخذهم جميعاً على حين غرة. قال الجنرال تحسين زكي قائد قاعدة ماليس (Malis) متذكراً: «كنت واقفاً على المدرج في تمام الساعة التاسعة صباحاً، جاهزاً للقيام بهجمات تدريبية. سمعت هدير طائرات نفاثة في تلك اللحظة تماماً. فنظرت باتجاه الهدير فرأيت طائرتي سوبر ميستير رماديتين. ألقتا قنبلتين في أول المدرج وكان وراءهما طائرتان أخريان وأسقطتا قنبلتين في وسط المدرج؛ وقامت الطائرتان الأخيرتان بإلقاء قنبلتين في آخر المدرج، وهكذا بعد دقيقتين كان المدرج كله قد قُصف. كانت مفاجأة تامة». (٥)

وقعت الطائرات المصرية في مصيدة لا خلاص منها وأصبحت فريسة سهلة للمدافع من عيار ٣٠مم، وللصواريخ المتبعة للحرارة التي كشطتها بعد ذلك. في مطاري بني سويف والأقصر غرب القناة تفجرت طائرات توبولون - ١٦ وحمولتها المقدرة بـ عشرة أطنان من الشحنات المتفجرة بقوة هائلة حتى إن إحدى الطائرات المهاجمة قذفت في الجو. أما في سيناء فقامت تشكيلات مختلطة من طائرات الميراج والميستير المقاتلة بضرب القواعد المتقدمة في جبل لبني، وبير التمادا، وبير جفجافة فقصفت العشرات من طائرات الميغ التي كانت رابضة، وحولت بضع طائرات كانت تحاول الإقلاع إلى رماد. ولم ينج إلاّ مدرج العريش، لأنه كان من المفروض استخدامه فيما بعد للتنقلات الإسرائيلية.

بنهاية الموجة الأولى في الساعة الثامنة بتوقيت إسرائيل التاسعة بتوقيت مصر كان قد نفذ حوالي ٢٥ غارة جوية ضد قواعد غرب القاهرة، وفايد، وأبو سوير، لقد دمرت أربع مطارات في سيناء واثنان في مصر تدميراً كاملاً. كما قطع كابل الاتصالات الذي يربط القوات المصرية في سيناء بالقيادة العليا. أما الدمار الأكبر فقد حل بسلاح الجو نفسه. ففي أكثر من نصف ساعة بقليل خسر المصريون ٢٠٤ طائرات -نصف سلاحهم الجوي- كلها دمرت على الأرض، فيما خلا تسع طائرات فقط.

صُعِق الإسرائيليون أنفسهم. إذ لم يكن أحد يتخيل أن سرباً واحداً استطاع تحييد قاعدة بأكملها، وأن معدل قتلى خطة فوكس فاق التوقعات بمقدار مئة بالمئة. وأخذت توقعات الإسرائيليين بالحسبان احتمال تغلب المصريين على الصدمة الأولى واستجماع قواهم وإسقاط حوالي ربع الطيران الإسرائيلي والواقع أنه صدرت أوامر للطيارين الإسرائيليين بالاحتفاظ بوقود يكفي لطيران خمس دقائق، وبثلث ذخيرتهم احتساباً لنشوب معارك جوية. لم تحدث أية معركة جوية، ولم يكن هناك إطلاق نيران أرضية ذات قيمة على الطيران الإسرائيلي. فجميع البطاريات المصرية المضادة للطيران البالغ عددها مئة، ومواقع صواريخ سام - ٢ المضادة للطيران والبالغ عددها ٢٧، لم تتلق أية أوامر بإطلاق النار من المشير عامر خشية أن تخطئ طائرته التي تقله فتظنها إسرائيلية وتسقطها.

وشهد سعيد أحمد ربيع آمر المدفعية بقوله: «كنا على أتم استعداد ويقظة، ولدينا من الذخيرة ما يكفي وأكثر، ولكننا لم نتلق أوامر بإطلاق النار. وأخيراً، أطلقت النار من تلقاء نفسي، واعتقدت أني سأحاكم عسكرياً على ذلك. ولكن بدلاً من ذلك تلقيت ميدالية لشجاعتي، واحتفظت بعملي من ذلك الحين».

ادعى ربيع أنه أسقط عدة طائرات إسرائيلية. كانت خسائر سلاح الجو الإسرائيلي إجمالاً ثماني طائرات وخمس طيارين في الموجة الأولى. إحدى الطائرات أصيبت ولكنها لم تستطع استخدام اللاسلكي فدمرها صاروخ هوك إسرائيلي بعد أن ضلَّت فوق ديمونة.

الآن فقط، بعد إنجاز الضربة الأولى، أصبح بإمكان القيادة معرفة النتائج. فبدت لهم خيالية لا تُصدق، ولم يكن ذلك حتى استخلص هو نفسه النتائج لطياريه وأكد لهم نجاحهم الباهر. كتب دايان يقول: «حجر -واحد فقط، ولكنه ذو وزن مميت- خرج من القلب» ومع ذلك ظل ذلك الحجر في قلوب الجمهور الإسرائيلي. إذ كان ينبغي إبقاء مدى النجاح الذي أحرزه سلاح الجو الإسرائيلي سراً أطول زمن ممكن لتأخير فرض الأمم المتحدة وقفاً لإطلاق النار، ريثما تكون الدبابات الإسرائيلية قد توغلت في سيناء. وفي الساعة ٨,١٥ أصدر دايان كلمة السر «الملاءة الحمراء». وكانت الحرب البرية على وشك الحدوث.

وصلت الموجة الثانية من المقاتلات أهدافها: وهي ١٤ قاعدة معادية نصفها تقريباً غربي القناة، وجميع مواقع الرادارات المصرية.. ومع أن الإسرائيليين لم يعودوا يأبهون بعنصر المفاجأة، ولا بمراعاة صمت اللاسلكي، فإن المقاومة التي صدرت عن هذه المنشآت كانت مُعتدلة ومحصورة إلى حد كبير في النيران المضادة للطيران. نفذ سلاح الجو الإسرائيلي ١٦٤ غارة في أكثر من مئة دقيقة بقليل ودمر ١٠٧ طائرات مصرية أخرى، وخسر تسع طائرات، فقد دمر ٢٨٦ طائرة من ترسانة

الطائرات المصرية البالغ عددها ٤٢٠ طائرة - ٣٠ منها من طراز توبولوف - ١٦ الاعتراضية، و٢٠ من طراز ميغ - ١٩، و٧٥ - ١٧، ٣٢ طائرة نقل وحوامات - وقتل حوالي ثلث طياريها - عطلت ١٣ قاعدة عن العمل، ودمرت ٢٣ محطة رادار ومواقع مضادة للطائرات. التفت هود في الساعة ١٠,٣٥ إلى رابين وقال له: «لم يعد يوجد سلاح جو مصري». (٦)

بقدر ما كانت صورة المعركة واضحة في إسرائيل، كانت في مصر وبقية البلاد العربية مشوشة وتزداد تعتيماً. كان الضباط الموجودون في القواعد الجوية قد أدركوا أن مأساة مروّعة قد حلّت. وصف الطيار هاشم مصطفى حسن، الذي كان في بير التمادا، المشاعر على النحو التالي:

«بعد حوالي ٣٠ ثانية من انتهاء الهجوم الأول، وصلت موجة ثانية من الطائرات.. فركضنا في الصحراء نبحث عن غطاء، ولكن الطائرات لم تطلق علينا النار. بل حومت فوق رؤوسنا، ودهش طياروها إذ رأوا أن القاعدة قد دُمرت نهائياً وأنه لم يبق أمامهم أي هدف. كنا نحن فقط الأهداف الوحيدة المتبقية.. كائنات بشرية تعدو في ا لصحراء ليس لديها سوى بنادق يدوية كوسيلة للدفاع عن النفس. كانت مهزلة حزينة.. طيارون وطائرات نفاثة من أحدث الطرز وأفضلها تجهيزاً يقاتلون ببنادق يدوية. بعد خمس دقائق من بدء الهجوم اختفت الطائرات الإسرائيلية وساد صمت لف الصحراء وأخمد صوت النيران التي دمرت طائراتنا والقاعدة الجوية وسريتنا. لقد أنجزوا مهمتهم بأفضل طريقة ممكنة بخسائر بلغت عندنا مئة بالمئة، وعندهم صفر بالمئة».

شهد اللواء زكي تجربة مماثلة. إذ رأى، واليأس يلفه، طائرة حسين الشافعي تتعرض لقصف من طائرات الميراج المعادية، بعد أن نجحت في الهبوط على مدرج ثانوي، أفلح الطاقم والركاب في النجاة، أما من كانوا في الطائرة المرافقة فقد كانوا أقل حظاً، إذ ماتوا جميعاً على المدرج. وأدلى بشهادة فيما بعد قال فيها: «قضت

إسرائيل سنوات في الإعداد لهذه الحرب، أما نحن فكنا نعد للاستعراضات. إذ كانت تستمر التدريبات للاستعراض في عيد الثورة السنوي أربعة أسابيع.. ولكن لم تكن هناك إعدادات للحرب».

أما طائرة عامر التي أحيطت بما أسماه صدقي محمود «غابة من النفاثات الإسرائيلية» فلم تستطع الهبوط إطلاقاً. إذ أخذت تحوم من مطار مشتعل إلى مطار مشتعل آخر لمدة تسعين دقيقة تقريباً قبل أن تتمكن من الهبوط في مطار القاهرة الدولي. وكان هناك بانتظاره الكولونيل محمد أيوب، ضابط الارتباط لسلاح الجو التابع لعامر، وقد استل مسدساً بيده ظاناً أن انقلاباً قد وقع ضد زعيمه. وصاح في الضباط الموجودين عندما سحبوا مسدساتهم أيضاً قائلاً: «أتريدون قتلة أيها الكلاب!؟ «تدخل صدقي محمود بين الطرفين وحال دون صدام مسلح، وصاح فيهم موبخاً»: «أيها البلهاء، أبعدوا مسدساتكم!! إسرائيل تهاجمنا!!».

ولعدم وجود نقل عسكري، أخذ عامر سيارة تكسي وانطلق إلى مقر القيادة العليا. لم يبق من طائراته الميغ سوى ٣٧ طائرة صالحة للعمل وكان هو نفسه قد تعرض للإسقاط، ومع ذلك ظل مبتهجاً، متباهياً. فقال: «وأخيراً بدأت الحرب» ثم أمر صدقي محمود على الفور لتأمين غطاء جوي لاحتلال الساحل الإسرائيلي (عملية التمساح) ونشر طائرات سوخوي (Sukhoi) النفاثة بطياريها المرشدين الروس إن لزم ذلك، واتصل بدمشق وبغداد وطلب منهما تنفيذ عملية رشيد (Rashid) وهي قصف المطارات الإسرائيلية على الفور. وافق العراقيون ولكنهم شكوا من «تأخيرات فنية». أما السوريون فادعوا أن طائراتهم مشغولة حالياً في مناورات تدريبية.

لم تثبط هذه الإحباطات من عزيمة القيادات العليا المصرية الذين بدوا في نظر الملحن السوفياتي س. تارا سينكو (Tarasenko. S) «هادئين، غير مبالين، يصغون إلى المذياع ويشربون القهوة». أما العاصمة فكان المواطنون يحتفلون في جميع أنحاء

القاهرة. قال إريك رولو (Eric Rouleau) مراسل صحيفة لوموند (LeMonde) الفرنسية في الشرق الأوسط، متذكراً: «كانت الشوارع غاصة بالمتظاهرين؛ وكانت المدافع المضادة للطيران تطلق نيرانها؛ آلاف الناس كانوا ينشدون «تسقط إسرائيل، سوف نربح الحرب» ولكن رولو وغيره من الصحفيين الأجانب منعوا من الاقتراب من خط الجبهة. وقطعت جميع خطوط الهواتف. وكان المصدر الوحيد للمعلومات هو بيان الحكومة الذي مفاده: «بدأت إسرائيل هجومها اليوم الساعة التاسعة صباحاً بضربة جوية ضد القاهرة وجميع أنحاء الجمهورية العربية المتحدة. تصدت لها طائراتنا وصدَّت الهجوم».

وكانت حسابات الضربة المضادة واعدة إذ ذكرت التقارير أن ٨٦ طائرة معادية قد أسقطت بما فيها قاذفة أمريكية. أما خسائر مصر فكانت طائرتان. وقال السفير الأمريكي نولت: «كانت تقابل هذه الأنباء بهياج وتصفيق. وكانت الإذاعة تبث أغان وطنية، تقاطعها نداءات ودعوات إلى العودة إلى فلسطين واللقاء في تل أبيب». أبرق عامر إلى رياض في عمان خبراً مفاده أنه برغم المفاجأة الأولية، فإن الإسرائيليين قد خسروا ٧٥٪ من قوتهم الجوية، وأن الجيش المصري يرد على الهجوم ويقوم بهجوم من سيناء. (٧)

أما عبد الناصر، الذي لم يكن موجوداً في مقر القيادة العليا عندما وردت أنباء الضربات الجوية الإسرائيلية، فقد رحب ببدء الحرب، إذ كان يعتقد أن التيار سينعكس في الحال. ومع ذلك، بدأ الشك يساور عبد الناصر في الساعة العاشرة - ساعة ذروة الموجة الثانية من الهجوم الإسرائيلي الجوي- عندما ادعت القوات الجوية المصرية أنها أسقطت /٦/ قاذفات إسرائيلية حاول الاتصال بعامر، ولكنه لم يتلق جواباً؛ ولم يستطع الوصول إلى صدقي محمود كذلك. والشخص الوحيد الذي يمكن أن يخبره بالحقيقة هو أنور السادات الذي عزل نفسه في البيت. ولدى دخول السادات مقر القيادة في الساعة الحادية عشرة، سمع من السفير السوفياتي بوجيداييف (Pojidaev) ومن مسؤولين كبار آخرين شرحاً كاملاً عن مدى الكارثة

التي ألمت بمصر. كتب فيما بعد يقول: «ذهبت إلى البيت وبقيت فيه أياماً، لأنني لم أستطع سماع الجماهير تنشد وترقص وتهلل لدى سماعها التقارير المزيفة عن النصر الكاذب التي تبثها وسائل الإعلام ساعة بساعة».

ظل ناصر يجهل الحقيقة؛ لأنه على الأقل لم يجرؤ أحد في الجيش أو في الحكومة على إطلاعه على الحقيقة. كل شيء كان يسير وفق النسخة التي يذيعها راديو القاهرة التي تقول: «تقوم طائراتنا وصواريخنا في هذه اللحظة بقصف المدن والقرى الإسرائيلية» والتي تدعو «كل عربي للانتقام لكرامته التي ضاعت في العام ١٩٤٨، ولعبور خط الهدنة إلى وكر العصابة نفسه، إلى تل أبيب». (٨)

الملاءة الحمراء فوق سيناء:

شاهدت القوات الإسرائيلية الموجودة على الحدود المصرية، أثناء تقدمها سراً في الليل مموَّهة، ومراعية الصمت اللاسلكي، موجات متعاقبة من الطيران الإسرائيلي تحلق فوق رؤوسها. ثم في الساعة ٧,٥٠ صباحاً وصلت كلمة السر «الملاءة الحمراء (Red Sheet) فشرعت الأرتال تتحرك. وأخذت فرقة أوغداه (Ugdah) -التي تشكلت للقيام بمهام خاصة- والمؤلفة من ٢٥٠ دبابة، و٥٠ مدفعاً، ولواء مظليين، ووحدة استطلاع، تعبر بقيادة الجنرال تل (Tal)، عند نقطتين، مقابل ناحال أوز (Nahal Oz) وجنوب خان يونس (Khan Yunis) وكان أمامها شِعْبُ رفح، وفيه أقصر طريق رئيس من بين ثلاثة طرق عبر سيناء إلى القنطرة والسويس طوله سبعة أميال. ولهذا السبب وَضَعَت مصر أربع فرق كاملة في المنطقة، معززة بحقول ألغام، ومعاقل مدفعية مموهة، وتحصينات، ومرابض مدفعية مخفية، وخنادق، ولم يكن أمام الإسرائيليين خيار سوى اختراق هذه الدفاعات؛ لأن الأرض على جانبي الطريق كانت رملية ووهاداً ضيقة شديدة الانحدار من الصعب المرور فيها.

ومع ذلك كانت تلك هي باختصار الخطة الإسرائيلية: ضرب العدو في نقاط جوهرية مختارة وبالتهديد بقوة مدرعات مركزة. تسلَّم تل (Tal) المحنك الصلب الذي خاض الحرب العالمية الثانية وحربين سابقتين بين العرب وإسرائيل، قيادة

الفيالق المدرعة منذ العام ١٩٤٩ وحولها إلى قوة متحركة عالية التدريب شديدة الانضباط، وكان تل نفسه قد جرح أثناء مناوشات سابقة مع السوريين حيث اكتسبت تشكيلاته المدرعة خبرة استخدمها الآن في إحداث شرخ في أقوى الدفاعات المصرية وبث الفوضى، وانهيار المعنويات، محدثاً في صفوفهم تراجعاً وتهاوياً كحجارة الدومينو.

وبعد إتمام إيجازه السابق للمعركة، ذكّر تل ضباطه بأن خوض الحروب نادراً ما يكون وفق خطة. بل عليهم أن يتبعوا مبدأ واحداً: كل واحد يهاجم كل واحد يخترق دون النظر حوله أو وراءه. كانت الفيالق المدرعة قد اخترقت المنطقة ذاتها في العام ١٩٥٦ في ٣٦ ساعة أو أكثر قليلاً. أما هذه المرَّة فلديهم ٢٤ ساعة. (٩)

فيما يتعلق بفرقة تل كان الانطلاق سهلاً بادئ الامر. كان في طليعة الاندفاع أفضل لواء مدرع هو اللواء السابع بقيادة الكولونيل شموئيل غونين (Shmuel Gonen). ولدى قدومه من جنوب غزة، كان الجنود المصريون يحيون أرتاله ظناً منهم أنها أرتال مصرية. وبالمثل سمح قادة اللواء الحادي عشر المصري المسلح بدبابات ستالين -أضخم دبابات في الشرق الأوسط- للمظليين الإسرائيليين التابعين للواء الخامس والثلاثين أن يتقدموا دون إزعاج نسبياً عبر التلال الرملية أثناء في قيامهم بالهجوم المباشر. قال رفائيل (رافول) إيتان (Rafael (Raful) Eytan) بعد الحرب: «يبدو أن أحداً ما في السماء كان يحرسنا. فما من عمل غير مقصود قاموا به، وما من عمل غير مقصود قمنا به إلاَّ وانقلب لصالحنا». ولكن تقدم الإسرائيليين لم يكن نتاج الحظ وحده. فقد كانت المخابرات المصرية قد استنتجت أن تحركات العدو في ذلك القطاع كانت مجرد تضليل لصرف النظر عن محور الهجوم مقابل رفح وخان يونس.

غونين (غورودیش Gorodish) هذا، هو ابن لمنجّد أثاث، عمره ٣٧ سنة، ترك دراسته الدينية في سن الثالثة عشر ليلتحق بالهاغناه (Haganah)، كان ضابطاً قوياً وفياً عنيداً. وطمأن رجاله في اليوم السابق للهجوم قائلاً: «سوف نسحق

(المصريين) كما سحقناهم في العام ١٩٤٨ وفي العام ١٩٥٦، وأن الإسرائيليين سوف يغسلون أقدامهم في القناة، ويطيحوا بعبد الناصر في القاهرة». ولكنه ذكَّرهم بقوله: «أما إذا لم ننتصر، فلن نجد مكاناً نعود إليه». وحذرهم بضرورة صيانة الذخيرة. لم يكن الهدف مهاجمة رفح مباشرة -فتلك هي مهمة المظليين- بل سنلتف حولها من خان يونس في الشمال. ثم اختيار ذلك المحور أبعد ما يكون عن مرمى المدفعية المصرية، وليكون مع اتجاه الريح تفادياً للغازات السامة. وسوف يقوم اللواء ٦٠ بقيادة الكولونيل ميناحم أفيرام (Menachem Aviram) المزوَّدة بـ ٨٦ دبابة شيرمان (Sherman) وأ . م. أكس (AMX) بالإطباق على خان يونس إطباقة ملزمة حديدية.

وعلى الرغم من أن غونين قد أنزل إلى الميدان ترسانة رهيبة، بما في ذلك ٥٨ دبابة سنتوريون (Centurion) و٦٦ دبابة باتون (Patton)، فقد عهد إلى كتيبة واحدة فقط لاختراق خان يونس. تقدمت هذه الكتيبة إلى المدينة، ولم تواجه سوى مقاومة بسيطة. ثم «انفتحت أبواب جهنم فجأة» كما ذكر أوري أور (Ori Orr) أحد ضباط وحدة استطلاع، الذي أصيب نصف رجاله. «إذا انهالت علينا قذائف المدفعية والرشاشات والمدفعية المضادة للدرع - كل شيء كان يصب نيرانه علينا.. إذ أخذت الدبابات المصرية من طراز T-٣٤ مواقعها وفتحت نيرانها. أصيبت نصف مجنزرة إسرائيلية قبل أن تصعد إلى الطريق، وقتل الجنود الثمانية الذين كانوا فيها». فاستدعيت كتيبة دبابات أخرى، ولكنها ضربت هي الأخرى، أما أعنف مقاومة واجهت الإسرائيلية فجاءت من الفرقة الفلسطينية العشرين التي لم تكن تُعدُّ وحدة من المرتبة الأولى، وكان يقودها الجنرال محمد عبد المنعم حسني، حاكم غزة العسكري.

سرعان ما دمرت ست دبابات طليعية من دبابات غونين وقتل ٣٥ ضابطاً من ضباطه. وغاصت قوة أفيرام في الرمل، وشكلت الكثبان الرملية كابوساً ملاحياً للمظليين.

قال تل لرجاله: هذه معركة حياة أو موت، يجب أن نتابع الهجوم طوال الوقت، مهما كانت الخسائر، أصيب الإسرائيليون، في واقع الأمر، بخسائر فادحة وهم يقاتلون لشق طريقهم عبر مرابض المدفعية المضادة للدرع، والكائن على جانبي الطريق، والتراسات الحجرية التي أجبرتهم على الخروج عن المحور الرئيس إلى متاهة من الممرات الضيقة، ومع ذلك كان تقدمهم كبيراً. ففي غضون أربع ساعات أو أكثر قليلاً كان لواء غونين قد وصل نقطة تقاطع سكة حديد رفح، واستطاع تغطية بقية الطريق، وهي أميال معدودة، إلى رفح برتلين من لوائه.

كان لا بد من الالتفاف حول رفح حيث تنتشر المعسكرات؛ لأن الهدف الرئيس هو الدفاعات المصرية في الشيخ زويّد التي تبعد ثمانية أميال إلى الجنوب الغربي من رفح، كان يقوم على هذه الدفاعات لواءان من الفرقة السابعة، وهي وحدة شكلت قبل ثلاثة أسابيع كمقدمة لعملية (الفجر) واحتلال مصر للنقب. كان اللواءان بقيادة آمر مدرسة المشاة التابعة للجيش، الميجر جنرال عبد العزيز سليمان، وكان معظم ضباط الفرقة مدرسين، فهم بالتالي غير مهيئين جداً لمواجهة قدوم إسرائيل غير التقليدي من البحر وعبر الرمال، ولم تكن كذلك مدافعهم العشرين، ودباباتهم إلى ٦٦ العتيقة، لتقارن بالقوة الإسرائيلية الأكبر ودباباتهم الأحدث من طراز سينتوريون وباتون. قال قائد الكتيبة عزت عرفة (Izzat 'Arafa) «تعرضنا لهجوم المدرعات الثقيلة على محاور عديدة، وقصف مدفعي وجوي مستمر، ولم يكن وراءنا سوى البحر. لم يكن بيننا وبين القيادات الأخرى في القطاع أية اتصالات، وليس لدينا علم بما كان يجري في ساحة المعركة».

تخندقنا في خنادق عميقة، وتموَّهنا، ودفع المدافعون ثمناً مؤلماً، قال غونين فيما بعد للمراسلين: «كانت المدفعية المصرية رابضة في حفر عميقة، وكانت تطلق عشر رشقات دفعة واحدة وفي كل رشقة كانت تشتعل إحدى الدبابات ناراً. تركنا الكثير من جنودنا القتلى في رفح ودبابات محترقة تماماً». فكان لا بد من استدعاء مدفعية

ثقيلة وضربات جوية لتمكن العناصر الإسرائيلية الطليعية من الاختراق. قتل سليمان وعدد من هيئته. ولدى فقدان المصريين قيادتهم، تخلو عن مواقعهم تاركين أربعين دبابة وألفي قتيل وجريح.

تحولت المعركة إلى هزيمة منكرة، كاملة لولا كتيبة أفيرام التي أساءت تقدير جناح العدو، التي وجدت نفسها محصورة بين موقعين محصّنين. استغرق إنقاذ القوة عدة ساعات، ومع ذلك استطاع الإسرائيليون تطهير المنطقة تماماً بحلول منتصف الليل. آلاف الجنود المصريين، ومئات سيارات الجيب والشاحنات كانت تمر بالمهاجمين وهم يعيدون تجميع أنفسهم على الطريق إلى العريش.

أصبحت تلك الطريق مفتوحة الآن لجيش الدفاع الإسرائيلي. وفي آخر النهار قامت عناصر من الكتيبة المدرعة ٧٩ من جيش الدفاع الإسرائيلي بشن هجوم عبر شعب جيرادي (Jiradi)، وهو ممر ضيق بين الكثبان الرملية المتحركة. ظن المدافعون عن ذلك الممر المتمرسون جيداً من جنود لواء المشاة الـ ١١٢ الدبابات الإسرائيلية أنها دباباتهم. ويصف النتيجة فيما بعد تقرير داخلي من تقارير جيش الدفاع الإسرائيلي، وصفاً مخيفاً:

«على جانبي الطريق كانت مكامن الدبابات، والمدافع المضادة للدرع، ومدافع الهاون، وأعشاش الرشاشات، وكلها مرتبطة بخنادق محاطة بالألغام. وأطول مسافة بين موقعين كانت خمسين متراً. فوجئ المصريون بالرتل الإسرائيلي الذي لم يطلقوا عليه النار. ظن القائد الإسرائيلي أن المصريين قد هربوا فأمر رجاله بالكف عن إطلاق النار. ولم يكتشف أن المصريين لم يهربوا إلا بعد أن وصل الرتل منتصف الطريق».

تناوبت السيطرة على الممرين المصريين والإسرائيليين عدة مرات قبل أن يُنَظِّفَهُ الإسرائيليون وخرجوا عند طرفه الغربي، حيث كانوا قد تقدموا عشرين ميلاً في أمسية واحدة. وبعد ذلك تقع ضواحي العريش التي يبلغ سكانها ٤٠,٠٠٠ نسمة حيث توجد القيادة الإدارية للجيش المصري في سيناء. كتب الليفتنانت يوسي بيلد

(Yossi Peled) يقول: «وصلنا هدفنا الساعة العاشرة ليلاً تحت جنح الظلام. كانت الدبابات المصرية مشتعلة أمامنا بقدر ما تتيح لنا الرؤية. وكان الجنود المصريون على الأرض يستلقون بينها. وكذلك بعض دباباتنا قد اشتعلت، ولم يعد الجنود الإسرائيليون الذين كانوا يستلقون بينها أحياء». فقد الإسرائيليون، إجمالاً، ٢٨ دبابة، و ٩٣ جندياً جريحاً، و٦٦ جندياً قتيلاً. (١٠)

برغم ارتفاع الخسائر الإسرائيلية، استمر الهجوم الإسرائيلي بأسرع مما هو مخطط له - بحيث ألغي هجوم مشترك من البحر مع مظليين من الجو، كان مقرراً في اليوم التالي على العريش، وحول المظليون الذين كانوا سيشتركون فيه إلى القدس. ورغم أن المعركة لم تحسم بعد، فقد ربح الإسرائيليون، معركة حاسمة في ظروف كان العدو فيها نداً قوياً بحيث لم تستطع القوة الجوية -المشغولة بخطة فوكس- أن تلعب دوراً كبيراً فيها.

وفي منطقة أم قطيف (Umm Qatef) التي طولها ستة أميال وعرضها ميلان، جنوباً، تحقق توازن مماثل بين الإسرائيليين والمصريين، إذ كانت المنطقة محصنة تحصيناً قوياً، فهي الخط الأول من إستراتيجية «الفاتح» المصرية وكانت دفاعاتها نسخة مصغرة عن عالم سيناء ودفاعاته: ثلاثة «تنظيمات خطية» أنظمة خنادق، حقول ألغام، مواقع مدافع مضادة للدرع ورشاشات، و٨٠ مدفعاً، و٩٠ دبابة، و١٦٠٠٠ (ستة عشر ألف جندي بحيث يسحق العدو فيما بينها. وكانت حامية مفرق أبو عجيله الحيوي المؤدي إلى قلب شبه جزيرة سيناء وإلى ممر متلا والإسماعيلية قد صمدت في وجه الهجمات الإسرائيلية في العام ١٩٥٦، ولم تستسلم إلا بعد أن نفذت ذخيرتها وإمداداتها، ومنذ ذلك الحين، يجري تحصين أم قطيف بمعاقل قوية عند سد روافا (Ruwafa) وقرب القسيمة (al-Qusayma)، ويشغل هذه التحصينات والمعاقل جنود من فرقة المشاة الثانية الذين -رغم استعدادهم للمعركة- يقودهم الميجر جنرال سعدي نجيب، الذي عين سياسياً، لما عرف عنه أنه أحسن رفيق كأس لعامر.

كان أريك شارون (Arik Sharon) في مواجهة نجيب. ظهر شارون وهو في سن التاسعة والثلاثين بمظهر الشخصية المندفعة والجدلية الذي عُنِّف، وأطري في أنّه واحد على دوره في الغارات الانتقامية في خمسينيات القرن العشرين، والمعركة الدموية في ممر متلا أثناء حملة سيناء. وعندما كان مدير التدريب في جيش الدفاع الإسرائيلي، درس دفاعات أم قطيف جيداً وصمم ألا يكرر أخطاء إسرائيل التي ارتكبتها في الحرب السابقة، فكانت خطة شارون تتمثل في عبور البوادي الصحراوية التي يعتقد المصريون أنها لا تُعبر، ويدفع بالمدرعات من الشمال، وفي الوقت نفسه، تقوم دباباته بالاشتباك غرباً مع المعاقل المصرية على مرتفعات أم قطيف، وسد الطريق على التعزيزات التي يمكن أن تصل إليها من جبل لبني أو من العريش، أما المشاة الإسرائيليون فيطهرون الخنادق الثلاثة بطول ثلاثة آلاف ياردة، وعلى بعد ميل خلفهم، يقوم المظليون المحمولون بالحوامات بإسكات رحبة المدفعية المصرية، وأخيراً يشن هجوم بالمدرعات عند القسيمة لإشغال حاميتها وعزلها. كان شارون يأمل أن تنجز الألوية الثلاثة من فرقته الـ ٣٨ كل هذه المهمات في وقت واحد لتنضم إلى فرقة الجنرال يوفي (Yoffi) الـ ٣١ في الهجوم على خط الدفاع المصري الثاني، جبل لبني، وبير لهفان (Bir lahfan) وبير حسنة.

في الساعة ٨,١٥ صباحاً غادرت دبابات السينتوروين الطليعية بقيادة الكولونيل ناتان ناتكة نير (Naten "Natke" Nir) نيتزانا (Nitzana) وعبرت الحدود عند العوجا مارة بمواقع قوات الطوارئ الدولية الخالية. ومع ذلك قام المصريون بأعمال إعاقة ناجحة عند طارة أم (Tarat Umm)، وأم طرفة (Umm Tarfa)، والتلة (Hill) ١٨٤. أسقطت نفاثة إسرائيلية كانت تحلق على ارتفاع منخفض بنيران مدفعية مضادة للطيران. ثم فتحت المدافع الموجودة في أم قطيف نيرانها. أخذت القوات الإسرائيلية تتقدم من الشمال والغرب بصعوبة تحت القصف الكثيف. كانت الخسائر عالية، والرؤية ساءت بفضل عاصفة غبار. ومع ذلك نجحت دبابات نير في اختراق الجناح الشمالي لأبو عجيلة - أوكلاند (Oakland) حسب شيفرة جيش

الدفاع الإسرائيلي - وما إن حل الغسق حتى كانت كل الوحدات قد أخذت مواقعها. نقل أكثر من تسعين مدفعاً لتمطر أم قطيف بستار ناري انتقامي، كما جلبت حافلات ركاب جنود المشاة الاحتياط بقيادة الكولونيل ييكوتييل «كوفي» آدم (Yekutiel Kufi Adam) إلى مسافة قريبة من خنادق العدو، يمكن قطعها مشياً على الأقدام. كما وصلت طائرات هيليكوبتر لنقل مظليي الكولونيل داني مات (Dani Matt). تحت هذه التحركات كلها دون أن يلحظها المصريون. كان المصريون المنشغلون بمحاولات العدو سبر المواقع المحيطة بهم، ينتظرون أوامر القيادة العليا للبدء بالهجوم المعاكس، التي دونها لا يستطيعون التحرك. (١١)

أشعلت القوات الإسرائيلية المهاجمة، عند منتصف الليل، مشاعلها بحيث يكون لون مشاعل كل كتيبة مختلفاً عن الآخرين كيلا يحدث تبادل إطلاق نيران صديقة. ولكن قبل إعطاء الإشارة الأخيرة، تلقى شارون هاتفاً من غافيش (Gavish)، رئيس القيادة الجنوبية، يوصيه بتأجيل الهجوم ٢٤ ساعة ليتيح لسلاح الجو، القادر الآن على دعم القوات البرية، إضعاف الهدف. لم يوافق شارون، ولكن جوابه تشوش بسبب تدخل إلكتروني، فقطعت المكالمة، ولكن غافيش تلقى مكالمة أخرى، مفادها: أن سلاح الجو قد ألغى تقديم مساعدته، لأن مكاناً آخر بحاجة إلى الطائرات. لقد انفتحت جبهة ثانية بصورة مفاجئة، هي جبهة الأردن.

السوط يفرقع:

حسب إيغان ويلسون، القنصل الأمريكي العام في القدس، قبل نشوب الحرب أنه «من المحتمل دائماً استثناء القدس في حال حدوث اعتداءات». فهي على ما يبدو محمية من الهيجان الذي شمل المنطقة، فظلت الحالة فيها هادئة نسبياً. وعلى امتداد الخط البالغ طوله ميلين والفاصل بين القطاع اليهودي من المدينة والقطاع العربي، كان الجنود الأردنيون، والإسرائيليون في مواجهة بعضهم بعضاً باليقظة المنهجية نفسها التي سلكها الطرفان من خلال التسع عشرة سنة الماضية، كان

تقسيم المدينة كاملاً بفضل جدران عالية لمنع انتقال النار، وأسلاك شائكة، وألغام على طول الخط الفاصل. وفي بعض الحالات، كانت البيوت التي تقع ضمن عرض خط قلم الرصاص الذي رسمت به خريطة الهدنة في العام ١٩٤٩، تقسم بين شرقية وغربية، وفي حين أن التحصينات ومواقع المراقبة لا يبعد بعضها عن بعض سوى أمتار، فإن الذين كانوا يشغلونها من الناس نادراً ما يُشاهدون، بل وأندر من ذلك أن يتصل بعضهم ببعض.

لم تنبئ ليلة الخامس من يونيو بأي تغيير في طريقة العيش الغريبة هذه ومع أن الأردنيين كانوا يطلقون عيارات نارية من حين إلى حين، فقد كانت لدى الإسرائيليين تعليمات صارمة بتجاهل ذلك. كما ألغى جيش الدفاع الإسرائيلي الموكب الأسبوعي إلى جبل المكبر، وعدد من التمارين التدريبية. وقال يورام غولان (Yoram Golan) الجندي الاحتياطي الذي يخدم في القدس مستذكراً: «عندما نكون في مهمة حراسة ننزع مخازن رشاشاتنا الأوزي (Uzi)، كيلا تنطلق رصاصة بالصدفة وتشعل الجبهة، لم يكن الإسرائيليون بقادرين على القتال. إذ نقلت معظم ذخائر القيادة الوسطى جنوباً إلى الحدود المصرية، ولم يبق سوى مجموعة من ٥٠ دبابة شيرمان، و٣٦ مدفعاً، و٢٧ هاوناً للدفاع عن منطقة تل أبيب الكبرى، أما في داخل العاصمة فقد أرسل العديد من الاحتياطيين إلى بيوتهم، ولم يبق سوى ٧١ رجلاً على الخط في مواجهة الفيلق الأردني. قال الجنرال ناركيس إلى هيئة المراجعة في جيش الدفاع الإسرائيلي بعد الحرب: «كان الأمن في القطاع الأوسط، على ما يبدو، يعتمد على المعجزات. وكنا نرغب في الاعتقاد أن العدو لن يشن هجوماً علينا». (١٢)

ومع ذلك لم يشارك ناركيس في هذا الاعتقاد. إذ كان الحسين في نظره لا يعتمد عليه فقد عقد معاهدة مع ناصر وسمح للفدائيين المصريين الدخول إلى أرضه، وإذا ما هاجم الأردنيون، فستكون فرصة كبيرة جيدة لتخسر إسرائيل مناطق حدودية عديدة بما في ذلك مستوطنات لا خيش (Lakhish) وضاحية القدس ميفاسيريت صهيون (Mevasseret Zion) وكان خوف ناركيس الأكبر يتركز على جبل المكبر، ذلك

الجيب الصغير الذي تبلغ مساحته ميلاً مربعاً واحداً. ظل جبل المكبر المهيمن على أعلى تلال القدس محيطاً بمباني مشفى هداسا والجامعة العبرية هاجعاً بحماية حامية تابعة للأمم المتحدة مؤلفة من ٨٥ شرطياً و١٣ مدنياً. وعلى الرغم من أن إسرائيل نجحت في تهريب بعض الأسلحة الثقيلة إلى ذلك الجيب إلا أنها ظلت عرضة للهجوم من جبل الزيتون في الشرق والشمال، ومن مدينة رام الله في الضفة الغربية. وسقوط جبل المكبر يعد ضربة قاصمة لهيبة إسرائيل، إذ مهما احتلت إسرائيل من سيناء، لن يعوض خسارته على حد تعبير ناركيس بيد أن سقوط جبل المكبر يمكّن الأردنيين بعزل ١٩٧٠٠٠ يهودي في القدس، بفضل اتصالهم بقواتهم الموحدة في جنوب القدس.

وكان وضع إسرائيل على حدود الضفة الغربية أفضل قليلاً. ورغم أن خطط الطوارئ التي أعدها جيش الدفاع الإسرائيلي تفيد بضرورة تعزيز دفاعات إسرائيل على طول خط الجبهة الشرقية زمن الحرب، فإن أياً من القوات المتخصصة لهذه الغاية لم تكن متوافرة في الخامس من يونيو. إذ لم يبق في تلك المنطقة سوى خمسة ألوية احتياط. اثنان في الشمال لحراسة وادي جزريل (Jezreel Valley) ولواء لحماية كل من القدس، ومطار اللد، والطرق المؤدية إلى تل أبيب. وفي حين أن القادة الإسرائيليين يتحدثون دائماً عن احتلال الأرض المحيطة باللطرون (Latron) - حسب خطة هاب (Hap) باليديشية - كانوا يعلمون أنه لا يمكن القيام بأي هجوم دون الخمسين دبابة شيرمان تلك. بيد أنه احتفظ بدبابات لواء هاريل (Harel) العاشر كاحتياط إستراتيجي في تل أبيب، لتصد أي هجوم مصري من الجنوب. قال ناركيس الذي قاتل في حرب الاستقلال، بهذا اللواء نفسه في محاولته الفاشلة لاحتلال مدينة القدس القديمة: لم تكن مهمتنا واضحة.

لم يكن لدينا أمر باحتلال الضفة الغربية أو وادي الأردن. ومع ذلك كنت متأكداً أن الحرب آتية لا ريب، وأنها ستنتهي في القدس». (١٤)

لم يفاجأ ناركيس عندما سمع صفارات الإنذار من غارات جوية في الساعة ٧,٥٥ صباحاً في عاصمة إسرائيل. واعتقد كثيرون من الإسرائيليين، عسكريين ومدنيين، أنها أطلقت خطأً، حتى عندما حملت نشرة أخبار الثامنة صباحاً النبأ (المختلق) بشأن تقدم الدبابات والطائرات المصرية نحو الحدود الإسرائيلية، ومع ذلك سُرِّعت استعدادات الطوارئ في المدينة. استنفرت المشافي بأعلى درجات الاستنفار وحفظت معروضات المتحف بما فيها لفائف البحر الميت في مكان آمن. وأخذت الإذاعة تبث رموز الاحتياط وتوجيههم إلى وحداتهم.

ما زال الأمل يراود الحكومة بأن الأردن سوف تطلق بضع قذائف، أي صلية تحية فقط للوفاء بالتزاماتها نحو الوحدة العربية كما قال ناركيس - ولكنها فيما عدا ذلك كانت مشاعرها سلبية، ولتعزيز هذه السلبية، رغبت الحكومة في إرسال مناشدات إلى الحسين تحثه على ضبط النفس، ولكن دايان عارض الفكرة متسائلاً: «ألا يعرف الحسين أنه من المفروض ألا يهاجمنا؟» أما لون فأصر على ضرورة تحذير الملك، تم اختيار قنوات ثلاث: وزارة الخارجية الأمريكية، وزارة الخارجية البريطانية والجنرال أودبول (Odd Bull) في القدس. وهكذا قام آرثر لوري (Arthur Lourie) الاختصاصي الخبير في شؤون الأمم المتحدة في وزارة الخارجية، باستدعاء بول، وقال له: «في الساعة ٨,١٠ شوهدت طائرات مصرية تعبر أجواءنا، وردت عليها طائراتنا وأسلحتنا. وطلب لوري إلى بول أن يبلغ الملك حسين بأن إسرائيل لن (وأن يكرر كلمة لن) تهاجم الأردن إذا ظلت هادئة، أما إذا فتحت الاعتداءات فإن إسرائيل سترد بكل ما لديها من قوة.

بيد أن بول، الطويل النحيل الضامر، صارم اللمحات، الطيار السابق ذا خبرة عشر سنوات في هيئة المراقبة التابعة للأمم المتحدة في الشرق الأوسط، لم يتأثر بهذه التلميحات. وبسبب موقفه غير الودي من إسرائيل -وكان يريد إهداء مذكراته وتكريسها لتقويم تحيُّز النروج لإسرائيل- فقد رفض الادعاء بأن مصر قد ابتدأت القتال، واشمأز من لهجة النص، قائلاً: هذا تهديد، واضح جلي، ولم تجر العادة أن

تقوم الأمم المتحدة بنقل تهديدات من حكومة إلى أخرى، وطلب ساعتين لاستشارة نيويورك. ولكن لوري أصر على وجوب إرسال الرسالة على الفور. وكل الدلائل الظاهرة تشير إلى أن الأردن كان يُعدُّ للحرب. (١٥).

لقد سُرِّعت هذه الاستعدادات خلال الأربع والعشرين ساعة المنصرمة عندما أخبرت القوات الأردنية بأن الوقت قد حان لخوض الحرب. وشهد الجنرال معن أبو نوار، قائد المواقع المتاخمة لجبل المكبر بقوله: «وزعت الذخيرة الاحتياطية، وملئت مخازن الرشاشات، ولقمت القذائف». لم يُبد الملك حسين أي خوف عندما قاطع معاونه الكولونيل غازي إفطاره في الساعة ٨,٥٠ قائلاً: «جلالة الملك، بدأ هجوم إسرائيل على مصر». ولدى استدعاء الملك للقيادات علِم بادعاء عامر بالإصابات التي شلت إسرائيل، وبالهجوم المصري المضاد السريع. ووردت تقارير من عجلون مفادها أن مئات الطائرات قادمة من جهة سيناء - إنها بالتأكيد الطائرات الإسرائيلية العائدة، رغم أن الأردنيين ظنوها طائرات مصرية. لم تهدئ هذه المعلومة من مخاوف الملك بشأن مُحاولات إسرائيل احتلال القدس الشرقية وسكانها البالغ عددهم ٨٠,٠٠٠ نسمة من العرب، أو احتلال جزء من الضفة الغربية أو كلها. يمكن للأردن أن يبدأ الهجوم.

ومع ذلك، لا يقرر مدى ذلك الهجوم سوى الحسين. دخل مقر القيادة بعد الساعة التاسعة، ووجد رياض قد أمر بعدد من العمليات البعيدة المنال بما فيها تدمير المطارات الإسرائيلية بنيران تشترك فيها المدفعية والقاذفات والهجمات الفدائية. وجاءت طلبات من عشر ألوية سورية للنزول من الجولان إلى وادي الأردن للالتقاء بمئة وخمسين دبابة عراقية هناك، ومن ثم عبور نهر الأردن على جسور هجومية كان رياض قد طلبها من مصر والمملكة العربية السعودية. كما أصدر تعليماته إلى لواء الإمام علي للاستيلاء على مرتفع تلة الحكومة جنوب القدس. وكان هدف هذه العمليات تغطية جناح الرتل المصري الذي اعتقد رياض أنه سينطلق على الفور من بير السبع وبيت لحم نحو الشمال.

ولتمنع إسرائيل أية مناورة التفافية - اندفعت قواتها إلى الضفة الغربية من النقب - فحوَّل رياض ألوية الدبابات الأردنية نحو الجنوب، فاتجة اللواء الستين إلى طريق القدس - أريحا، واتجه اللواء الأربعين إلى الخليل.

فإذا ما طُبقت هذه التعليمات فإنها ستورط الأردن تماماً في الحرب مع إسرائيل. وعلى الرغم من أن رياض كان محبوباً لدى الأردنيين -بل كان أحد أفضل الضباط العرب، ليس في البلاد العربية، بل في أي مكان آخر، كما قال عنه، مادحاً، أحد ضباط المشاة عوض بشير خالدي- فإن رياض لم يكن لديه الوقت الكافي لدراسة الدفاع عن المنطقة دراسة وافية. ولم يكن يفهم عقلية الفيلق الأردني حيث البنية القيادية فيه أشبه ما تكون بالروابط العائلية. وقال أحد ضباط المخابرات، شفيق عقيلات: «إنه لم يكن يعرف أرضنا، ولا كيف نتحادث ولا كيف نقاتل. وبإعطاء رياض الأولوية لحاجات مصر الفورية لتحييد مطارات العدو ودعم هجومها المفترض، تجاهل حرص الأردن على حماية الضفة الغربية والقدس الشرقية. أبرز هذه الحقيقة عدد من أعضاء هيئة الأركان، وكان أعلاهم صوتاً، عاطف المجالي الذي أكد أنه لم تكن المدفعية ولا الدبابات اللازمة لدعم الهجوم على تلة مبنى الحكومة، متوافرة. وناقش قائلاً: «من الأفضل احتلال جبل المكبر على الفور، وتنفيذ عملية طارق. وتم تراشق الكلمات القاسية -غضب المجالي وهاج- ولكن كلمة رياض هي التي أخذ بها في النهاية، ولم يفه الملك حسين، الذي كان هو وحده القادر على إلغاء الأوامر أو تغييرها، بأية كلمة. (١٦)

بل أخبر الحسين شعبه في كلمة ألقاها عبر راديو عمان في الساعة ٩,٣٠ أن الأردن قد تعرض للهجوم وأن «ساعة الانتقام قد حانت» وكان قد تلقى من توه مكالمة هاتفية مختصرة من عبد الناصر يؤكد فيها الرئيس المصري ادعاء عامر السابق بإيقاع خسائر مذهلة بإسرائيل وبتدمير مطاراتها. وحثه ناصر قائلاً: «أسرعوا في الاستيلاء على أكبر قدر ممكن من الأرض لنطالب الأمم المتحدة بوقف إطلاق النار، متوقعاً أن مجلس الأمن سوف ينعقد تلك الليلة. كما أكد العراقيون -كذباً- للملك حسين أن طائراتهم كانت في ذلك الوقت تقوم بمهماتها ضد إسرائيل.

لقد أثارت هذه الأنباء الحسين بصورة واضحة، وكان لا يثق بدوافع إسرائيل من وراء مطالبتها إياه بضبط النفس. وربما كان ما زال يعتقد أن قصفاً محدوداً لبعض القواعد واحتلال هضبة مبنى الحكومة -وهي منطقة الأمم المتحدة- لن تثير إسرائيل وتدفعها إلى القيام بهجوم مضاد شامل. وفي النهاية لم يكن أمام الحسين خيار سوى القبول بقرارات رياض. ولكي ينجو سياسياً ويبقى على قيد الحياة، كان لا بد له من أن يقاتل. لذلك، عندما وجده السفير بيرنز في موقع مراقبة متقدم وسلمه رسالة لوري أجابه الملك إجابة واقعية: «لقد بدؤوا المعركة؛ وسوف يتلقون الجواب جواً. لقد ألقي زهر النرد وانتهى الأمر». (١٧)

كان قصف إسرائيل من الأردن قد بدأ قبل ساعة، في الساعة العاشرة صباحاً. اشتغلت بطاريتا مدفعية بعيدة المدى عيار ١٥٥ مم من صنع أمريكا، إحداهما ركزت قصفها على ضواحي تل أبيب والثانية على رامات ديفيد (Ramat David) أكبر المطارات في شمال إسرائيل. أصدر قادة هاتين الوحدتين تعليماتهم بمتابعة القصف المستمر لمدة ساعتين لجميع مواقع العدو المدرجة في قوائمهم، التي تشمل قواعد عسكرية وحتى المستوطنات المدنية الموجودة في خاصرة إسرائيل الضيقة. أيقظ دوي الانفجارات هاري ماك فيرسون (Harry Mcpherson) الذي كان قد لجأ إلى بيت باربر (Barbour) شمال أبيب. وسرعان ما انضمت المدرعات إلى عمليات القصف الكثيف، وتبعتها الطائرات. ففي الساعة ١١,٥٠ صباحاً قامت ١٦ طائرة أردنية مقاتلة من طراز هوكرهنتر (Hawker Hunter) بغارات قرب مدن ناتانيا (Natanya) وكفارسيركين (Kfar Sirkin) وكفار سابا (Kfar Saba). ومع أن الهجمات لم تحدث أضراراً جسيمة -إذ قتل مدني واحد وجرح ١٧ ودمرت طائرة نقل واحدة- كان أثرها النفسي كبير جداً. فعندما حيا السفير السوفياتي السفير الأمريكي بيرنز (Burns) خارج قصر الملك حسين، قال له: إذا لم تتلق إسرائيل أسلحة، نعتقد حسب تقديراتنا أن العرب سيربحون الحرب إذا ما أتيح لهم أن يحاربوها حتى النهاية.

من نتائج الهجوم الأردني، جر القوات السورية والعراقية كليهما إلى الحرب. فسوريا فعّلت عملية رشيد بقصفها شمال إسرائيل. وما إن حلت الظهيرة حتى كانت طائراتها الميغ تقصف مستوطنات الجليل بما فيها كيبوتز ديغانيا (Kibbutz Degania) موطن إشكول وهود. أسقطت ثلاثة طائرات أما البقية فقد طردتها المقاتلات الإسرائيلية. وفي هذه الأثناء كانت ثلاث طائرات عراقية من طراز هنتر (Hunter) تقصف مستوطنات في وادي جزريل (Jezreel Valley) بما فيها قرية ديان نهلال (Nahalal). كما قامت قاذفة عراقية من طراز توبولوف - ١٦ (Topolov-١٦) بمهاجمة مدينة العفولة (Afula) في الجليل الأردني قبل أن يتم إسقاطها قرب مطار مجدو (Megiddo). ومرَّة أخرى كانت الخسائر المادية في حدودها الدنيا - ضربت عدة أقنان دجاج، وبيت أحد المواطنين رفيع المستوى - ولكن قتل ١٦ جندياً إسرائيلياً، راح معظمهم ضحية إسقاط طائرة التوبولوف. أخذ راديو دمشق يذيع على الفور بأن «سلاح الجو السوري قد بدأ يقصف المدن الإسرائيلية ويدمر مواقعها». وصلت الحرب إلى جبهة إسرائيل الشرقية وسوف تحيق بالقدس عما قريب أيضاً. (١٨)

كان في المدينة تبادل نيران الرشاشات متقطع منذ الساعة ٩,٣٠ صعّد الأردنيون القتال بالتدريج، فأدخلوا مدافع هاون عيار ٣ بوصة، وبنادق عديمة الارتداد عيار ١٠٦مم. أمر الجنرال ناركيس رجاله بالرد بأسلحة صغيرة فقط وبإطلاق النار في مسار أفقي مباشر كيلا يصيبوا المدنيين والأماكن المقدسة في المدينة القديمة. وقال الكولونيل اليزر أميتاي (Eliezer Amitai) قائد لواء القدس (Etzioni) السادس عشر، وهي وحدة احتياط مشكلة في معظمها من سكان المدن: «سيطلقون النار.. وسوف نتحمل بألم عدم الرد». قاتل أميتاي، مثله كمثل ناركيس، في القدس في العام ١٩٤٨ كقائد فصيل مع هاريل (Harel). «الدبابات لا تستطيع إطلاق النار، والبنادق عديمة الارتداد لا يمكن تحريكها هنا وهناك خشية إثارة الأردنيين. كنا نريدهم أن يظلوا هادئين. «وبرغم قلق ناركيس بشأن جبل المكبر،

فقد التزم بتعليمات دايان لتلافي إثارة الأردن. حتى عندما أعلن راديو الأردن في الساعة ١٠,٣٠ أن قوات الفيلق العربي قد استولت على هضبة مبنى الحكومة -وتبين أنه ادعاء كاذب- أحجم الإسرائيليون عن الرد.

حتى تلك اللحظة كانت ردود الفعل الأردنية كما توقع القادة الإسرائيليون، يظهرون تضامنهم العربي ولكن بطريقة محدودة لم تصل إلى الحرب الشاملة. ولكن الوضع تغير بعد ذلك في الساعة ١١,١٥ إذا أطلقت مدافع الفيلق العربي من طراز هاوتز (Howitzer) أول رشقة من ستة آلاف قذيفة على القدس اليهودية مبتدئة بكيبوتز رامات راشيل (Kibbntz Ramat Rashal) في الجنوب، وجبل المكبر في الشمال، قبل توجيهها إلى وسط المدينة وما يجاورها. استهدفت منشآت عسكرية إضافة إلى الكنيست (Knesset) ومبنى رئاسة الوزراء، ومع ذلك كان القصف عشوائياً، أيضاً، أصيب أكثر من ٩٠٠ مبنى بأضرار، من بينها مشفى هداسا في عين كارم حيث تحطم زجاجه الذي لونه الفنان مارك شاغال (Marc Chagall)، واشتغل سقف كنيسة المهد (The Dormition) في جبل صهيون. جرح أكثر من ألف مدني. بينهم ١٥٠ جروحهم خطيرة، وتوفي بينهم عشرون. وذكر القنصل البريطاني العام في حوالي الساعة ١١,٣٥ «يسود القدس قصف مستمر بنيران رشاشات ثقيلة وهاونات، وربما مدافع. يبدو أن نيراناً أردنية كثيفة كانت تنهمر على المدينة الجديدة. كانت الحرب قد لفَّت القدس بأكملها. وقبل قليل، أصابت رصاصة مبنى القنصلية وأخطأت قنصل جلالتها بأعجوبة». (١٩)

ترافقت المكاسب الأولى السريعة ضد مصر بأول نكسة إسرائيلية كبرى في الحرب عندما تدهورت الأوضاع على الحدود الأردنية بصورة حادة. كان دايان يرغب في تجنب فتح جبهة ثانية على الأقل حتى يؤمن الجنوب. كما أن فرنسا أعلنت حظر إرسال أسلحة إلى الشرق الأوسط -ومع ذلك ظلت الأسلحة الفرنسية تصل إلى إسرئيل سراً وبمعدل أبطأ- وكانت هناك حاجة للاحتفاظ بالذخيرة. ففي حين رفض إبان طلبات ناركيس المكررة السماح له بالقيام بعملية اختراق إلى جبل المكبر

بقوات مشاة، أجاز عندئذ عدداً من العمليات رداً على التهديد الشرقي الجديد. إذا أصدر أوامره بضرورة تحييد سلاح الجو الأردني والسوري والعراقي، بالإضافة إلى محطة الرادار الأردنية في عجلون. كما يجب تقليص مواقع العدو المتقدمة حول القدس القديمة. ويجب تنشيط لواء هاريل العاشر مع عدد من الوحدات من القيادة الشمالية من أجل تنفيذ عملية السوط ضد الأردن». (٢٠)

وقبيل الساعة ١٢,٣٠ قام سلاح الجو الإسرائيلي بضربة صاعقة ضد مطاري المفرق وعمان. كان وايزمن يحبذ، قبل الحرب، إبادة القوة الجوية الأردنية حتى دون استفزاز، كإجراء وقائي، ولكن رابين عارض الفكرة، أما الآن بعد هجمات طائرات الهوكر على نتانيا، أصبح لدى وايزمن ذريعته.

كانت طائرات الهوكر رابضة على الأرض تتزوَّد بالوقود عندما نفذ الإسرائيليون ضربتهم. وفي غضون تسع دقائق أصبحت القاعدتان غير صالحتين للعمل إذا أحدثت القنابل في المدارج حفراً كبيرة بحيث لم يعد بإمكان الطائرات الإقلاع، إضافة إلى أن أبراج المراقبة قد دمرت، وجاءت الموجة الإسرائيلية الثانية في الساعة ١,١٥ بعد الظهر وأكملت تدمير جميع طائرات الهوكر الأردنية كلها. واشتعلت ثماني طائرات أخرى بما فيها طائرة الجنرال بول الخاصة. أفلحت طائرة هيركيوليز C -١٣ (Hercules ١٣- C) بالإقلاع بأربع عشرة طياراً إلى مطار H-٣ في غرب العراق، لتتابع المعركة هناك. فقدت إسرائيل طائرة ميستير واحدة بنيران أرضية.

كان الملك حسين يراقب الهجوم من باحة قصره حيث كان ابناه الصغيران عبدالله وفيصل يرتعشان لصوت انفجارات القنابل البعيدة. وشهد مصرع صديقه الميجر فراس عجلوني وهو يحاول الإقلاع بطائرته النفاثة. وادعى الملك فيما بعد أن وجوده في البيت قد نجاه من الموت، لأن مكتبه في قصر بسمان قد تعرض لنيران المدافع والصواريخ الإسرائيلية التي أحدثت فيه عدة ثقوب وفتحات.

ومن الذين كانوا يراقبون المذبحة، وصفي التل، المستشار الملكي الذي عارض التحالف مع مصر، وضع يديه على عينيه وبكى قائلاً: لقد أضعنا كل ما بناه جلالته طوال حكمه: ثم التفت إلى الشقيري يعنفه وكأنه يعنف عبد الناصر، متسائلاً: «أين سلاح الجو المصري؟ أين طائراتكم الميغ، وصواريخكم؟». (٢١)

فيما يتعلق بالأردن، كان تدمير القوة الجوية مجرد بداية فقط للانتقام الإسرائيلي، فقد هاجم سلاح الجو الإسرائيلي اللواء الأربعين، أثناء تحركه جنوباً من جسر دامية، قال الميجر أرييه بن أور (Arye Ben-Or) قائد سرب فوجا (Fouga) الذي قصف الأردنيين بصواريخ جو أرض، مستذكراً: «كانت تجربة استثنائية أن يطير المرء فوق بيت لحم والخليل وأريحا... إذ كان شعوري أننا كنا نقاتل الآن على أرض وطننا التاريخي». دمر سرب فوجا عشرات الدبابات وأشعل النار في قافلة ذخيرة مؤلفة من ٢٦ شاحنة. وتابع بن أور الذي قتل في غارة مماثلة بعد خمسة أيام في الشمال، قوله: «لم أكن أعلم أن القتال هناك سوف يطلق هذا الفيض القوي من العواطف التي كانت كامنة في داخلي».

أما في القدس فقد كان الرد الإسرائيلي على القصف الأردني، باستخدام سلاح سري اسمه الرمزي «L» على اسم مخترعه الكولونيل ديفيد لاسكوت (David Laskov) من شعبة الهندسة في جيش الدفاع الإسرائيلي. كان هذا السلاح مخبَّأ في المعاقل الأمامية ومصوباً سلفاً على مواقع العدو المقابلة: وكان هذا السلاح صاروخاً أشبه بالكفن يحدث تدميراً هائلاً بالهدف الذي يصيبه. وذكر أحد الشهود العيان أن أكياس الرمل والحجارة تطايرت في الهواء. وغطت جميع المعاقل الأردنية سحب من الدخان. وانهارت أجزاء من المباني عليها، وكذلك أعمدة الهواتف. كان لدى أحد جنود الفيلق الأردني الذي استسلم، اعتقاد بأن إسرائيل أسقطت قنبلة نووية. (٢٢)

ومع ذلك استمرت إسرائيل في السعي لاحتواء المعركة أو إنهائها، حتى عندما اتخذت موقفاً أكثر عدائية من الأردن. إذ قبلت إسرائيل محاولة قام بها الجنرال بول في الساعة ١١,٤٠ لترتيب وقف لإطلاق النار. التقى ممثل إسرائيل في لجنة

الهدنة الإسرائيلية الأردنية المشتركة (IJMAC) الكولونيل جيري بيبرمان (Jerry Bieberman) مع ممثل الأردن في اللجنة الكولونيل ستانووي (Stanowi) وأخبره أنه «بناء على مصادر موثوقة، قد أبيد سلاح الجو المصري» ولذلك ينبغي أن يوافق الأردن على وقف إطلاق النار فوراً. لم يكن لهذه المبادرة أي انطباع، على أية حال. إذ قال رئيس الوزراء الأردني في خطاب له موجه إلى الشعب عن طريق الإذاعة: «إننا نعيش اليوم أقدس أيام حياتنا، موحدين مع جميع جيوش الأمة العربية، إننا نخوض حرب البطولة والشرف ضد عدونا المشترك. لقد انتظرنا سنوات هذه المعركة لنمحو وصمة عار الماضي» وكانت مكبرات الصوت من على قبة مسجد الصخرة تحث المؤمنين على حمل السلاح واسترجاع البلاد التي اغتصبها اليهود»(٢٣) وبهذا التضرع، بدأ الفيلق هجومه.

كان الميجر بادي عوض قائد كتيبة (عصام بن زيد) يُصغي إلى تقارير الإذاعة من انتصارات مصر واستيلاء الأردنيين على مبنى الحكومة، عندما تلقى كلمة السر (صاحب السعادة) كانت هذه الكلمة الآتية مباشرة من رياض تعني أن يتابع عوض وسريتين أخريين تقدمهما إلى الهضبة. كان عوض، قصير القامة، ممتلئ الجسم، خشن المظهر، المتمرس منذ معركة القدس في العام ١٩٤٨، متأكداً من أن الإسرائيليين سيقومون بهجوم مضاد بالمدرعات. ومع ذلك كان واثقاً من مقدرته على الدفاع عن موقعه برجاله الأربع مئة، وبنادقه الأربعة عديمة الارتداد، بالإضافة إلى بعض الرشاشات الثقيلة والهاونات، من وراء جدران المجمَّع.

كان مجمع مبنى الحكومة (قصر المندوب السامي) المعروف بالعبرية أرمون هاناتزيف (Armon Ha-Natziv) وبالعربية جبل المكبر، هو مقر حكومة الانتداب البريطاني، وأصبح بعد العام ١٩٤٨ مقراً لمراقبي الأمم المتحدة. يشغل المبنى الجهة الشرقية القصوى من هضبة تهيمن على المحور الحيوي إلى بيت لحم والخليل، ويمكن استخدامه كموقع لفصل القدس العربية أو القدس اليهودية. ولهذا كان لدى الإسرائيليين والأردنيين خطط طوارئ لاحتلال الهضبة في حال نشوب حرب.

وعلى الرغم من كون المنطقة منزوعة السلاح بموجب الهدنة، فقد كانت محاطة من جهة الجنوب والجنوب الشرقي بمواقع أردنية محصنة، ومن جهة الغرب بمزرعة تجريبية وبقاعدة اللنبي (Allenby). وكان جيش الدفاع الإسرائيلي يحتفظ بموقع مراقبة سري على المنحدر الشمالي للهضبة -المسمى بالبيت المعزول- ليعطي إنذاراً مبكراً حول أية تحركات أردنية هناك. ومع ذلك، خلافاً لجبل المكبر (Scopus) والمنطقة المنزوعة السلاح مع سوريا، نادراً ما كانت هذه الهضبة مصدر احتكاكات أردنية - إسرائيلية، ولكن كانت تحصل مشاجرات بسيطة بين إسرائيل والأمم المتحدة، مثل تلك التي حصلت في الحادي عشر من مايو (أيار) عندما شكا بول بأن علم الأمم المتحدة قد سُرق من أعلى المبنى الحكومي، ووضع مكانه بنطال منامة لونه أزرق فاتح. (٢٤)

تمركز رجال الميجر عوض حول المحيط الحراجي لمبنى الحكومة حيث كانوا يوجهون نيران هاوناتهم وبنادقهم عديمة الارتداد إلى رامات راحيل (Ramat Rachel) واللنبي والقطاع اليهودي من مناطقة أبو طور Abu Tor المختلطة، خرج بول غاضباً، ووصف نفسه في مذكراته، في تلك اللحظة، قائلاً: «لا أذكر أني كنت أكثر غضباً في حياتي». وأصر أن يعيد عوض تأكيد أوامره من رياض، واستجاب الميجر على الفور مقترحاً إخلاء المنطقة من جميع المدنيين. ورفض بول، وبدلاً من إخلاء المدنيين، تمترس وعماله داخل المجمع. وحاول الاتصال من هناك بوزارة الخارجية الإسرائيلية أملاً في تلافي حدوث هجوم مضاد.

كان الوقت الساعة ١,٣٥ بعد الظهر، عندما أرسل عوض دورية متقدمة لاستكشاف قوة إسرائيل في الطرف الغربي من الهضبة. ولدى اقتراب الدورية من المزرعة التجريبية، أطلقت عليها نيران من قبل راحيل كوفمان (Rachel Kaufman) زوجة مدير المزرعة وعمالها الثلاثة مستخدمين بنادق تشكيلية قديمة. أكدت التقارير الواردة من المزرعة ومن (البيت المعزول) العدوان الأردني.

وانتشر الخبر في القدس الشرقية حيث شاهد مراسل مجلة (لايف Life - الحياة) جورج دي كارفالو (George de Carvalo) السكان العرب يحتفلون بسقوط هضبة مبنى الحكومة ويهتفون: (غداً سنحتل تل أبيب).

صُعق الإسرائيليون، بعد أن أصابهم الذعر لما يجري من الأحداث، عندما سمعوا راديو عمان في الساعة الثانية بعد الظهر يعلن سقوط جبل المكبر، ويتذكر ناركيس كيف أن الإعلان عن احتلال مبنى الحكومة قد سبق الهجوم الفعلي، استخلص أن جيب إسرائيل سيكون الهدف التالي. إذ قال فيما بعد: «كانت تلك علامة تشير إلى أن لدى الأردنيين خطة، كشفها حماسهم المتوقد وإحساسهم بأن المشكلة قد حلّت أخيراً، وكان تقديره أن تقوم مئات الدبابات الأردنية من طراز باتون بصعود وادي الأردن إلى رام الله، ومهاجمة جبل المكبر من الخلف. وسوف تستغرق الرحلة ثماني ساعات. (٢٥)

أصبحت الظروف بالنسبة للإسرائيليين حرجة إذ تستطيع القوات الأردنية الانطلاق من هضبة مبنى الحكومة عبر المنطقة المجاورة للقدس من الجنوب - تالبيوت (Talpiot)، وكاتامون (Katamon)، وسان سيمون (San Simon)- وتلتقي مع القوات والدبابات النازلة من جبل المكبر في الشمال، ويمكن أن تضيع المدينة بأكملها، أما في الضفة الغربية، فكان اللواء المؤلل الثامن، معززاً بكتيبة فلسطينية، يتقدم في تلك الأثناء إلى جسر داميه محتلاً مواقع كان يحتلها سابقاً اللواء المدرع الأربعين، وعندها يستطيع العراقيون مع الألوية الأردنية السبعة أن يشكلوا رأس حربة تشق إسرائيل نصفين.

استدعت كل هذه الأحداث إعادة تقييم الاستراتيجية الإسرائيلية في الشرق بصورة شاملة. ولدى اجتماع دايان بإشكول ورابين وياريف في غرفة العمليات، تحدث عن ضرورة إسكات المدفعية البعيدة المدى التي تسببت بأضرار فادحة لرامات ديفيد. بفضل قيام الدبابات الإسرائيلية بمهاجمة البطاريات الموجودة قرب

مدينة جنين في الضفة الغربية، ويفضل ألا تدخل الدبابات الإسرائيلية المدينة نفسها. وينبغي أيضاً إيقاف القصف في القدس، وصد أي تقدم أردني. والأهم من ذلك كله هو استرجاع جبل المكبر. واستعداداً لذلك الجهد الحربي، كان دايان يرغب بدراسة الاستيلاء على ممر اللطرون، فقط، دون احتلالات أخرى. فقد قال «غايتنا ضرب مصر، ولا أحد غيرها، وأقترح ألا نقع في حربين».

وافق إشكوال على الخطة، ولكن رابين اعترض قائلاً: إننا نفتخر بما أوقعناه بقواتهم الجوية (القوات الأردنية) فلماذا نحتل أرضهم في هذه المرحلة؟ فوافقه ياريت بقوله: «لا بد وأن يهاجمنا الحسين، ولكن ما نفعله الآن يزوِّده بأساس يتذرع به ليشن الهجوم». سجل وزير الدفاع هذه النصيحة، وطلب أن نبذل مساع أخرى لإقناع الأردن بوقف إطلاق النار. وبدا دايان في نظر الكولونيل ليور الذي كان حاضراً ذلك الاجتماع، متناقضاً مع نفسه بقوله: إنه يريد تجنب الحرب مع الأردن، وفي الوقت نفسه يشن هجوماً عليه. وكتب يقول: «قال الرجل شيئاً للأجيال والبروتوكول ولكنه قام في الميدان بأمور مختلفة تماماً. اللعنة عليه، ماذا يريد دايان فعلاً؟».

ومع ذلك، لا يكتنف أوامر دايان في المعركة مثل هذا الغموض. فقد أعطى ضوءاً أخضر للقيادة الشمالية بإرسال لواءين مدرعين لبدء الهجوم على جنين، ثم أعطى تعليمات إلى ريهافام زيف (Rehavam Zeiv) نائب رئيس العمليات ليضع خطة للهجوم على القدس. تقوم بموجبها دبابات لواء هاريل بالتقدم على طول الهضبة التي يستولي عليها الأردنيون، المهيمنة على الطريق العام بين القدس وتل أبيب، وصد أية دبابة تهبط من الشمال وتحرير حامية جبل المكبر. وفي الوقت نفسه تقوم قوات المشاة بفتح ثغرة في المواقع الأردنية المحصنة عند الطرف السفلي الجنوبي للجيب. وينبغي إعادة احتلال مبنى الحكومة والهضبة المقام عليها على الفور. (٢٦)

وقعت المهمة الأخيرة على كاهل الكولونيل أشر دريزين (Asher Dreizin) البالغ من العمر ٣٤ سنة من كتيبة الاحتياط ١٦١ من لواء القدس. وقبيل بدء الهجوم قال رابين للوحدة: «لقد قاتلت هنا في العام ٤٨. وآمل، إذا ما كان علينا أن نخوض

المعركة هنا، أن تنجزوا ما عجزنا عن إنجازه». كان دريزين يشارك رابين هذه العاطفة. كان دريزين، مثله كمثل العديد من ضباط اللواء العاديين، تواقاً لتجنب الحرب، ولكنه في الوقت نفسه تواق لسحق أسطورة الفيلق العربي الذي لا يقهر. لقد أعدَّ خطة لاستعادة مبنى الحكومة، ولكن عندما وصل الأمر إلى الهجوم لم يكن لديه من الوقت إلا ما يتيح له رسم خريطة على التراب، وإيجاز رجاله بصورة مقتضبة جداً. وقال لزملائه الضباط فيما بعد: «بسبب سرعة كل شيء. كان لدي شعور بأننا سوف نفاجئ الأردنيين، مع أن العملية ما زالت معقدة مضطربة».

وانطلقت قوة دريزين المؤلفة من فصيلي مشاة وثماني دبابات شيرمان، من اللنبي الساعة ٢,٢٤ تعطلت في الطريق عدة دبابات أو غرزت في وحل المزرعة التجريبية، ولم يبق من الدبابات سوى ثلاث لتقوم بالهجوم. كانت المقاومة شديدة العزم. إذ نجح رجال الفيلق بقيادة عوض، الكامنون وراء جدران المجمع في تدمير دبابتين وقتل إسرائيليين -قائد فصيل- وجرح سبعة آخرين من بينهم دريزين (Dreizin) نفسه. ولكن بتفوق المهاجمين بغزارة النيران وبالعدد، استطاعوا اختراق البوابة الغربية للمبنى، وشرعوا بتطهير المجمع بالقنابل اليدوية. كان بول يركض هنا وهناك كالمجنون يصرخ في الإسرائيليين مطالباً إياهم بوقف إطلاق النار؛ لأن الأردنيين قد هربوا. وافق دريزين، في الوقت المناسب تماماً: إذ كانت قنبلة يدوية قد أعدت للرمي على غرفة تبين فيما بعد أنها كانت تحوي ثلاثين من عمال الأمم المتحدة مع أزواجهم وأطفالهم.

نادراً ما كانت العلاقة بين إسرائيل والأمم المتحدة، التي لم تكن مثالية قط، تتعزز بالعمل. لم يوفر الإسرائيليون ذخيرتهم، بل أحدثوا أضراراً في المجمع ودمروا سيارة بول. طلب رئيس الأمم المتحدة إخلاء المبنى، ولكن الإسرائيليين الغاضبين بسبب دخول الأردنيين إليه بسهولة. رفضوا ذلك الطلب. لم يكن لدى دريزين وقت للمناقشة. فالمعركة كانت مستمرة. أولاً على المرتفع خلف مبنى الحكومة - أنتينا هيل (Antenna Hill) ومن ثم في سلسلة التحصينات غرباً وجنوباً، وكان كل منها يحمل اسماً مناسباً لشكلها: الجرس، النقانق، وبعدها تقع قرى سور باهر (Sur Baher) العربية وجبل المكبر.

استمر القتال -بالأيدي أحياناً- حوالي أربع ساعات. تراجع عوض ومن بقي من رجاله أحياء إلى الخنادق التي كانت تحتلها قوات لواء حطين، وطلب من هناك تعزيزات من الألوية المدرعة الموجودة في وادي الأردن. لم يصل أحد، فارتبك جنود الفيلق وقهروا. وما إن حلت الساعة ٦,٣٠ بعد الظهر حتى كانوا قد تراجعوا إلى بيت لحم مخلّفين وراءهم ما بقرب من مئة قتيل وجريح. ولم يكن دريزين، الذي جرح مرتين ولم يبق معه سوى عشرة رجال ومقدار ضئيل من الذخيرة بأحسن حال من عوض ورجاله. ومع ذلك فقد مزَّق الإسرائيليون الذين تمركزوا ذلك المساء على هضبة مبنى الحكومة متوقعين هجوماً مضاداً، أسطورة الفيلق الذي لا يُقهر. كما سيطروا على القدس الجنوبية. (٢٧)

لم يكن الهجوم الأردني على مبنى الحكومة مفاجئاً لأوزي ناركيس، ولم يحبط رئيس القيادة الوسطى. كانت القدس اليهودية تتعرض للقصف، فأصبح لديه ذريعة للرد. وفي ذروة المعركة في الساعة ٣,١٠ بعد الظهر عرض ناركيس خدمة كتيبة المظليين الخامسة والخمسين بقيادة الكولونيل مردخاي «موتا» غور (Mordechai "Motta" Gur). كانت مهمة هذه الكتيبة الأصلية، إنزال مظلي مشترك وهجوم بحري بري على العريش، ولكنها ألغيت بسبب التقدم السريع الذي حققه هجوم سيناء، فوضع المظليون في حافلات ركاب ودفع بهم إلى القدس.

قال ناركيس لهيئة ضباطه بعد الحرب مبتهجاً: لقد نزلت علينا كتيبة المظليين ٥٥ من السماء. فلم تكن سماء الجنوب بحاجة إليهم. وكان ناركيس مصمماً على احتلال القدس القديمة رغم أن دايان رفض التفكير في هذا الاقتراح. أما الآن فقد حانت الفرصة أخيراً لتصحيح خطأ إسرائيل في العام ١٩٤٨، نعم لقد حانت الآن فرصة ثانية، عجيبة. قال ناركيس لضباطه: «كيفما بدأت الحرب في القدس، فأنا أعلم أنها ستنتهي في القدس القديمة». وما إن وصل غور إلى القيادة الوسطى، حتى قال له ناركيس: «استول على ما تستطيع الاستيلاء عليه طالما أن هناك ضوءاً. كان الكولونيل، أصغر قائد لواء في البلد. قاتل فترة وجيزة في العام ١٩٤٨، وفي النقب

فقط. ومع ذلك، فهو من مواليد القدس القديمة ويشاطر ناركيس رأيه في احتلالها. فوضَّع، على الفور، مظلييه من أجل التحريك إلى جبل المكبر والمدينة القديمة. وقال غور موضحاً: «سنحرر القدس».

بيد أن المهمة ليست بهذه السهولة. فغور وضباطه لا يعرفون إلا القليل عن موقع المدينة. ونادراً ما دُربوا على قتال المدن، كما أنهم كانوا يفتقرون إلى خرائط وصور جوية لميدان المعركة الذي دمر الكثير منه أثناء قصف القدس. كان أمام المظليين الذين مازالوا يحتفظون بالكثير من أسلحتهم الثقيلة وأجهزة الاتصالات المعدَّة للإنزال الجوي، خمس ساعات فقط ليضعوا الخطة، قال الكولونيل أريك أخمون (Arik Akhmon) ضابط مخابرات اللواء المظلي الخامس والخمسين: هدفنا هو تحويل اللواء إلى قوة مستعدة للقتال في القدس عند حلول منتصف الليل. والمشكلة ليست كيف نقوم بالمهمة بالطريقة الصحيحة، بل كيف نتجنب القيام بها بصورة مرعبة».

تبين أن مجرد جمع المظليين يعد عقبة كبيرة؛ لأن القصف الأردني أجبر حافلات الركاب على السير في طرق ملتوية غير معبدة مزدحمة بعربات لواء هاريل. كان اللواء، كالمظليين، غريباً عن المنطقة - إذ كانت كل مناوراتهم تجري في النقب - وكان عليه، رغم تجهيزه السيئ، أن يتعامل مع حقول ألغام كثيفة ومنحدرات ثلاث صخرية غير ملائمة للدبابات. قال الكولونيل أهارون غال (Aharon Gal) قائد كتيبة، بعد المعركة: «لقد واجهنا عدوين - الأردنيين والأرض، ولا أستطيع القول أيهما أسوأ».

ومن حظ اللواء العاشر أن عين لقيادته يوري بن أري (Uri-Ben-Ari) وهو شخصية ملونة مماحكة لا يرضيه شيء، والده فاز بالصليب الحديدي لإبلائه في القتال لصالح ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، ومات في داخاو (Dachau). وبعد هروب بن أري -المتميز بالفطرة- إلى فلسطين قاتل مع لواء هاريل في عام ١٩٤٩،

وقاد أول دبابة تصل قناة السويس في العام ١٩٥٦، وعلى الرغم من أن حياته العسكرية انتهت بسبب فضيحة مالية. فقد تابع دراسة تكتيكات بانزر الألمانية، وحصل على سوط الفروسية. فيتذكر أول أيام الحرب بقوله: «كنا جميعاً آسفين لوجودنا في القيادة الوسطى... قيل لنا: إنّ الحرب بدأت الساعة الثامنة، وحلت الساعة العاشرة والنصف ونحن جالسين هنا وهناك كالنساء الحوامل، نعلم أن شيئاً ما سيولد، ولكننا لا نعرف ما هو». (٢٨)

جاءت الأوامر أخيراً، بعد الظهر. وكان على اللواء، كما حدد دايان، أن يشن هجومه باتجاه الشمال إلى التلال المطلة على الطريق العام بين القدس وتل أبيب، ويحدث خرقاً في ثلاث نقاط، ثم يتقدم شرقاً مسافة أحد عشر ميلاً عبر القرى المحصنة: بيدو (Bidu) والنبي صموئيل (Nabi Samuil) وبيت إكسا (Beit Iksa) والشيخ عبد العزيز (Sheikh Abdul-Aziz) والهدف هو الوصول إلى الطريق العام بين القدس ورام الله قرب بيت حنينا (Beit Hanina) والاستيلاء على شعفاط (Shu'fat) العربية المجاورة، والالتقاء بالمظليين في جبل المكبر، وبحلول الساعة الرابعة كانت غالبية القوات قد أخذت مواقعها. وكان في مواجهتهم اللواء الهاشمي الأردني، والمشاة وكتائب الفدائيين المصريين.

وعلى الرغم من أنه كان لدى الإسرائيليين معلومات مخابراتية كثيرة، لم يكونوا مستعدين بسبب صعوبة الأرض وتعقيدات الأهداف. فعلى بعد ميلين شمال خط الهدنة واجهوا محطة رادر، بناها الإنكليز من قبل، محمية بتحصينات ومحاطة بثلاثمائة متر من الألغام. ويذكر الكولونيل غال: «ارتطمت الدبابات التي كانت من المفروض أن تغطي تقدمنا بالألغام. تبعثرت قواتنا. وكان على المشاة أن يهاجموا دون غطاء من المدرعات؛ لأنه لم يعد أمامها سوى ذلك الخيار... يقفزون من حجر إلى حجر، تحت القصف الأردني الكثيف، كي يتلافوا الألغام. كانت المعركة ضارية، بالسكاكين والحراب. وأسوأ مشكلة واجهت الإسرائيليين، حسبما قال بن أري هي الألغام التي كانت قديمة وحديثة ولا يمكن كشف مواقعها. إذ لم تكن لدينا أجهزة للكشف عن الألغام.. فخسرنا عشرات الأرجل». (٢٩)

قتل إسرائيليان ودمرت سبع دبابات شيرمان. وكذلك الخسائر الأردنية كانت طفيفة إذ قتل ثمانية فقط. ولكن بحلول منتصف الليل كان اللواء الهاشمي يتراجع إلى مواقع شمال الطريق إلى رام الله، تاركاً الطريق مفتوحة للدبابات الإسرائيلية. وأصبح بالإمكان تحرير جبل المكبر، والقدس العربية، المفصولة عن الضفة الغربية، كانت هي الأخرى تتعرض للهجوم.

وبما أن قصف المدافع الأردنية بعيدة المدى التي كانت بين برقين (Burqin) ويعبد، قد ازداد كثافة وشدة في آخر النهار تحركت فرقة (Ugdak) بقيادة البريغادير جنرال إيلاد بيليد إلى موقعها. كان على قواته، التي انتشرت لتهاجم سوريا، أن تعيد تمركزها بسرعة تجاه الأردن، وتعيد التجمع بوسائط النقل. كان بيليد جندي ابن الجندية، خدم أولاً وهو في العقد الأول من عمره كشافاً في الهاغناه (Haganah) ثم في سلسلة من قيادات المشاة والمدرعات، بلغت ذروتها في تعيينه مساعد رئيس العمليات في جيش الدفاع الإسرائيلي. كانت الأرض التي دخلها مثالية للدبابات، إذ كانت أقل وعورة من الأرض المحيطة بالقدس وعامرة بالطرق. خطط إيلاد لدى انطلاقه من وادي جزريل (Jezreel) الإسرائيلي -موقع معركة أرماجدون (Armageddon) الأسطورية- إلى وادي الأردن، أن يحيط بجنين ويجبرها على الاستسلام، كانت قوته مؤلفة من لواءين مدرعين استعارهما من القيادة الشمالية والقيادة الوسطى، ولواء مشاة مؤلل. يقول بيليد واصفاً المعركة: «عبرنا الحدود في الساعة ١٧:٠٠ وتغلغلنا في عمق الأرض؛ وكان أمامنا بطاريات مدفعية مضادة للدرع، ولكن مدرعاتنا عبرت من بينها، وعندها فقط استيقظ الرماة الأردنيون ففتحوا علينا النيران من أسلحة خفيفة».

كُلفت ثلاثة ألوية مشاة أردنية ولواء مدرع مع ست كتائب دعم، بإيقاف إيلاد (Elad). استدرج جزء من هذه القوة بعيداً بهجوم إسرائيلي خادع في وادي الأردن قرب بيسان (Beit Shean)، في حين انتشرت بقية القوات في الريف. إن انتشار الدفاعات الأردنية على جبهة طولها ثلاثون ميلاً، جعل الكولونيل عوض بشير

خالدي قائد لواء خالد بن الوليد الـ ٢٥ مشاة يحتج لدى الملك حسين مباشرة قائلاً: «أقدر مشكلتك السياسية في التخلي عن القرى، ولكنك لا تستطيع الجمع بين السياسة والعسكرية في آن واحد» ولكن ما أفاده هو إقامة الخنادق والتحصينات حول جنين ومعرفته الدقيقة بالأرض، وكان بإمكانه الاعتماد على تعزيزات قوية تأتيه من اللواء المدرع ٤٠ .

إن أصغر الألوية في الفيلق العربي، هو اللواء الأربعين المؤلف من مدرعات باتون M-٤٧ و M48 وكتيبة مشاة مجهّزة بناقلات جنود مدرعة M-١١٣، يقوده البريغادير جنرال الركن الغازي (al-Ghazi) كانت هذه القوة قد وُجهت لتصل إلى منطقة جنين في اثنتي عشرة ساعة، ولكن عندما نشبت الحرب، حول اتجاهها جنوباً نحو القدس، فقصفها سلاح الجو الإسرائيلي والآن بعد أن تأكد التهديد الإسرائيلي لجنين، أمر رياض اللواء بالتوجه جنوباً مَرَّة أخرى في وضح النهار مكشوفاً تماماً للقوة الجوية الإسرائيلية. أزيلت عشرات العربات؛ وضرب كذلك اللواء الثامن العراقي المؤلل وهو في طريقة من المفرق ليحل محل اللواء ٤٠ في دامية. (٣٠)

بدأ الهجوم الإسرائيلي في الساعة ٤,٠٠ بعد الظهر، وشكل كماشة من لواءين مدرعين بقيادة الكولونيل يوري رام (Uri Ram) والليفتانت كولونيل موشي بار كوخفا (Moshe Barkokhva) -بريل (Brill)- متجهين إلى الجنوب والجنوب الغربي من جنين، على التوالي، في حين انحدر مشاة الكولونيل أهارون أفنون (Aharon Av-non) من الشمال. كان اللواء الخامس والعشرون بقيادة خالدي يغطي هذين المحورين المؤديين إلى الهدفين التاليين - طريقي مجدّو - جنين، والعفولة - جنين. وما كان الإسرائيليون يعبرون الحدود حتى حياهم أبناء الجيش (الفيلق) العربي بعاصفة من نيران المدفعية والدبابات والهاونات.

ولدى وقوع قوات خالدي تحت قصف شديد من الأرض والجو، ظن أنهم هم الوحيدون المعرضون للهجوم. لقد أبدى جنوده المموَّهين جيداً والمسلحين بأسلحة مضادة للدرع وحوالي ثلاثين دبابة مقاومة شرسة، إذ استطاعوا أن يطوقوا وحدة

القوة الإسرائيلية الرائدة إلى أن طُوّقوا هم بدورهم. كانت الدبابات الإسرائيلية قادرة على اختراق دبابات باتون الأردنية الأحدث، من مدى قريب، وأن تشعل خزانات الوقود الخارجية للدبابات. استولت سرايا الاستطلاع الإسرائيلية، في هذه الأثناء، على مفترق عرابه (Arabe) وسدت الطريق على تعزيزات العدو.

ومع ذلك ظل الأردنيون يقاتلون، واستدعى خالدي غطاء جوياً؛ فمر طلبه من رياض في عمان إلى القاهرة ومن هناك حوله فوزي إلى السوريين. قال الجنرال إنه لم يعد الآن وقت لتعليق النار والأردن محاصر، والدبابات المصرية تعبر النقب. جاء رد فوزي في الساعة التاسعة والنصف تلك الليلة: «ستقوم الطائرات السورية بمهاجمة القوات الإسرائيلية في جنين مع خيوط فجر يوم غد». (٣١)

والواقع أنه لم يبق لدى سوريا من سلاح الجو إلا قليلاً. إذا أباد جيش الدفاع الإسرائيلي ثلثيه - طائرتي اليوشن، و٢٨ قاذفة، و٣٢ ميغ - ٢١، و٢٣ ميغ -١٧، و٣ حوامات - إثر ٨٢ غارة شنت في وسط النهار على القواعد الجوية السورية في الضمير، ودمشق، وصيقل (Saiqal)، ومرج ريال (Marj Rial)، و4-T. كما ضربت القاعدة الجوية العراقية في الـ H-3 ودمّرت فيها عشر طائرات. لم يفاجأ الإسرائيليون إذ خسروا عشر طائرات أيضاً معظمها بنيران أرضيه. وقتل ست طيارين، نجح اثنان منهما في الهبوط بالمظلة ليذبحهم القرويون السوريون.(٣٢).

صرح حافظ الأسد قائلاً: «نفذت قواتنا قصفاً كثيفاً على العدو في جميع أنحاء القطاع الشمالي. وفقد العدو معظم قوته الجوية». وادعى السوريون أنهم هم الذين بدؤوا الهجوم وليست إسرائيل، وأن ٦١ طائرة إسرائيلية، أسقطت وأن النيران اشتعلت في مصفاة النفط في حيفا، وأعلن الرئيس الأتاسي: لقد قررنا أن تكون هذه المعركة هي معركة التحرير النهائي من الإمبريالية والصهيونية.. ولسوف نلتقي في تل أبيب».

لقد كبت السوريون صدمتهم عندما أدركوا الضربة المدمرة التي تلقوها بعد أن علا صليل سيوفهم. فقائد الجبهة الوسطى مصطفى طلاس الذي نجا بأعجوبة في خيمته عندما أمطرتها النفاثات الإسرائيلية بوابل من نيران مدافعها، سارع إلى نقل مقر قيادته إلى المؤخرة. وقال: «لقد عرض علي الميجر توفيق الجهني (Tawfiq al Jahani) سيجارة ليهدئ أعصابي، ولكني رفضت وأقسمت أن أقلع عن التدخين منذ تلك اللحظة». ولكن ليس كل الضباط السوريين خُدّروا. فقد حث الأسد القيادة السياسيّة في اجتماع لها بعد ظهر ذلك اليوم قائلاً: «علينا أن نهاجم قبل أن تسبقنا إسرائيل وتفاجئنا بهجوم مشترك بالمدرعات والمشاة». وطرح الأتاسي احتمال ضرب إسرئيل من لبنان لتقليص خطر قيامها بهجوم مضاد على الأرض السورية. ولكن اللبنانيين قاوموا الفكرة، فصدرت الأوامر، بدلاً من ذلك، للبدء في تنفيذ عملية «نصر» في الساعة ٥,٤٥ من صباح اليوم التالي. واستعداداً للهجوم، كان لا بد من أن تفتح المدفعية السورية نيرانها على المستوطنات الإسرائيلية- التي استهدف منها بصفة خاصة مستوطنات روش بينا(Rosh Pina)، وعيليت هشاحر (Ayelet Hashaehar)، ومشمار هايردن(Mishmar Hayarden)-على طول الجبهة البالغ ثلاثين ميلاً. (٣٣)

بدأ القصف في الساعة ٢,٣٠ بعد الظهر، وأخذ يزداد شدة وكثافة طوال المساء. احتشد سكان المستوطنات بغضب مطالبين الحكومة بغزو مرتفعات الجولان وتحريرهم إلى الأبد من التهديد السوري. حذر ياريف من هجوم سوري يجري الاستعداد له في القطاع الأوسط من الجولان، مقابل كيبوتز غادوت (Gadot)، وقال إنه تم اعتراض الاتصالات الروسية في المنطقة. طلب رابين إذناً بالقيام بضربة استباقية، في المناطق المنزوعة السلاح، على الأقل، ولكن ذلك لم يقنع دايان. وعلل ذلك بأن لا حاجة لإسرائيل التي تخوض حربين أن تخوض حرباً ثالثة. ووافق، كارهاً، على أن تقوم مدفعية جيش الدفاع الإسرائيلي وطائراته بالرد على النيران السورية، وحذرهم من ضرب قرى مدنية. قرر دايان أنه لن تكون حرب في الشمال، طالما أن السوريين محجمين عن القيام بعمليات برية. (٣٤)

إن جهود دايان في تضييق حدود الصراع-صادقاً كان أم مخادعا، كما يعتقد ليور-لن تقلل من واقعة أن آلاف الرجال من العرب والإسرائيليين قد انخرطوا في القتال فعلاً. وعلى الرغم من أن مسار القتال، وخصوصاً القتال الجوي، كان في صالح إسرائيل، فليس هناك من سبيل للتكهن بالاتجاهات التي يمكن أن يتخذها مسار القتال في النهاية. كما أن الفوضى نفسها التي ميَّزت الأحداث السياسية في الشهور المنصرمة، ظلت سائدة في الحرب. كذلك ظلت البيئة فوَّارة-بيئة تشكلت ليس مما قامت به إسرائيل والدول العربية من أعمال فحسب، بل من سلوك الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي والأمم المتحدة أيضاً.

الدبلوماسية تتعثر:

بدأ الهاتف في غرفة نوم الرئيس يرن في الساعة ٤,٣٥ صباحاً. كان المتصل هو وولت روستو، ليخبر الرئيس بأن الحرب في الشرق الأوسط قد اندلعت.

قضى روستو الساعتين التاليتين في «غرفة المكتب» يصغي إلى التقارير الأولى عن النشاط العسكري. وما إن تأكد من هذه الأخبار حتى اتصل بالرئيس. فقال له جونسون: «شكراً»، ثم أجرى بهدوء عدة اتصالات بنفسه - مع راسك، وماكنمارا، وغولد بيرغ. وبعد تناول إفطار سريع، انضم الرئيس إلى روستو، وريتشارد هيلمز، وإيرل وويلر، في غرفة المكتب حيث سجل جهاز التقاط المخابرات «ياللجحيم، انفرط كل شيء».

كانت المشكلة مشكلة مخابرات أساساً. كان الأمريكيون يعلمون أن بضع مطارات في سيناء، قد عطلت وأن رحى الحرب البرية قد دارت. ادعت المصادر المصرية أن إسرائيل قد بدأت العدوان محاولة قصف القاهرة وإغلاق قناة السويس وأنها خسرت في هذه العملية ١٥٨ طائرة. ولكن المسؤولين الإسرائيليين -إيبان وإيفرون- قد أقسما أن مصر هي التي بدأت بإرسال موجات من الطائرات النفاثة باتجاه

الحدود، واختراق النقب بالدبابات. ومع ذلك استنتجت المخابرات الأمريكية أن «التقديرات المصرية مبالغ بها جداً «ويجب» تقليصها بنسبة عشرة أمثال»؛ وأن إسرائيل هي التي قامت بعمل استباقي وحققت تفوقاً سريعاً في الجو والبر.

لم تدخل هذه الأنباء سروراً كبيراً على الإدارة الأمريكية. وقال ماكنمارا متذكراً: «لم يحدث انفراج لدى ظهور الدلائل الأولى على نجاحات إسرائيل. إذ لم تكن لدينا أية فكرة عن كيف يمكن أن تسير الأمور، وعما إذا كان لا ينبغي أن نتدخل مباشرة بأنفسنا». وعلى الرغم من أن راسك قال ملطفاً الأمر: «لم يدفع بالإسرائيليين على الشواطئ». ظل يجيش غضباً منهم لنسفهم خطة ريغاتا وزيارة محيي الدين التي كان مازال يعتقد أنها ستتمخض عن نتائج ما. كما شعر جونسون بالحزن أيضاً لفشل جهوده الدبلوماسية، فكتب فيما بعد، يقول: «لم أخف أبداً أسفي لأن إسرائيل قررت أن تتحرك في الوقت الذي تحركت فيه» -ولا مخاوفي وقلقي بشأن مسار الحرب في المستقبل. (٣٥)

أشد تلك المخاوف تتعلق بالسوفيات ورغبتهم في التدخل. في الساعة ٧,٤٧، اتصل جنرال مناوب في غرفة الحرب «بماكنمارا وأخبره أن» الرئيس كوسيغن على الخط الساخن «ويطلب التحدث مع الرئيس». لقد رُكِّبَ الخط الساخن في البنتاغون بعد قضية الصواريخ الكوبية، ثم استخدم فيما بعد لإرسال التحيات أثناء العطل، ولكن ليس أثناء أزمات حقيقية أبداً. كان وزير الدفاع قد ألصق الخط الساخن في غرفة المكتب في البيت الأبيض.

سأل ماكنمارا: «ماذا نقول؟»

فأجاب جونسون: «ياإلهي!! ماذا نقول؟»

انتظر كوسيغن للتأكد من وجود جونسون بالفعل قبل أن يبعث برسالته: «من واجب جميع القوى العظمى أن تحقق على الفور وقفاً للصراع العسكري. لقد تصرفت الحكومة السوفياتية، وسوف تعمل في هذا الاتجاه. ونأمل أن تتصرف حكومة الولايات المتحدة بالأسلوب نفسه وتمارس نفوذها المناسب على...إسرائيل».

جاء الرد بعد نصف ساعة عندما عبَّر راسك لغروميكو(Gromyko) عن «هلعه» لدى سماعه أنباء القتال وأكد له أن واشنطن تعمل لمنعه.

«إننا نشعر بأهمية نجاح مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة في إنهاء هذا القتال بأسرع ما يمكن، ونحن مستعدون للتعاون مع جميع الأعضاء... للوصول إلى هذه الغاية».

وأخيراً، كتب الرئيس نفسه برقية افتتحها بقوله: «عزيزي الرفيق كوسيغن» - جعلت هذه الافتتاحية بعض من هم في الكرملين يظنون أن هذه ليست سوى نكتة - أتفق تماماً مع مفهوم السوفيات لواجب القوى العظمى، وأكرر طلب راسك العمل بسرعة في مجلس الأمن. وقال واعداً كوسيغن: «اطمئنوا إننا سنمارس ضغطنا لإنهاء الأعمال العدوانية».

اتجهت الطبيعة «البناءة الودية» للرسائل المتبادلة هذه -والتي تبعها سبع عشرة رسالة أخرى- نحو تهدئة الأمريكيين وتخفيف قلقهم فيما يتعلق بما يفكر فيه السوفيات. ومع ذلك كان جونسون كارهاً لاستغلال الفرص. ولكي يتجنب إحداث انطباع بأن أمريكا متواطئة مع إسرائيل، أمر الأسطول السادس بما فيه حاملتي الطائرات «أمريكا» «وساراتوغا (Saratoga)» البقاء قرب كريت (Crete) وأن يستمر طاقم البحارة الموجودين على البر بقضاء إجازاتهم في مالطا. كما فرض حظراً على إرسال جميع الأسلحة الأمريكية إلى الشرق الأوسط بأكمله. وكان الاتصال الوحيد الذي جرى مع ليفي إشكول، اتصالاً غير مباشر، عن طريق هاري ماك فيرسون لدى وصوله إلى إسرائيل، وكانت الرسالة موجزة جداً. كتب جونسون يقول: «اللهم امنحنا القوة لحماية الحق». (٣٦)

كان جونسون يفكر بتبصُّر، حتى في أثناء بحثه لأمور استراتيجية مستعجلة، في احتمال تحقيق تسوية في الشرق الأوسط بعد الحرب. لم يكن يتصور أن الحرب يمكن أن تيسّر، لا أن تعطل، مثل هذه الانطلاقة نحو التسوية، جديداً على التفكير الأمريكي. فمنذ الخامس عشر من مايو (أيار) اقترح هارولد سوندرز (Harold

Saunders) أن يدرس البيت الأبيض، إذا ما نشبت حرب هل يكون تأخير رد أمريكا فترة تسمح بإنجاز النصر الإسرائيلي (مع الإفتراض بأن الإسرائيليين قادرون على ذلك) مفيداً... وهل هناك أية مكاسب من القيام بضربة دبلوماسية تسوي مسألة وحتى مسألة اللاجئين. وبعد أسبوعين جهز يوجين روستو حملة شرق أوسطية من مسؤولين عسكريين ومدنيين رفيعي المستوى ليقدموا «ألمع ما لديهم من أفكار» بشأن حل سلمي للصراع العربي - الإسرائيلي، مذكراً إياهم بقوله: «دعونا لا ننسى أبداً أن الأزمة يمكن أن تكون فرصة كذلك. فقد انحلت نماذج عديدة، وفتحت أبواب. فلتَجُبْ عقولكم تلك الآفاق».

والآن، وقد شارف اليوم الأول على الانتهاء، كتب وولت روستو إلى الرئيس موصياً: «علينا أن نبدأ... التحدث مع الروس، وإن أمكن، مع آخرين بشأن شروط التسوية. إذ يمكن تحقيق ذلك بفضل مقايضة الأراضي التي اكتسبتها إسرائيل حديثاً بتنازلات عربية». إن وقف إطلاق النار لن يجيب عن الأسئلة الجوهرية الموجودة في أذهان الإسرائيليين حتى يكونوا قد اكتسبوا قدراً كبيراً من الأرض، وحطموا عدداً هائلاً من الطيران المصري بحيث يطمئنوا تماماً إلى موقفهم التساومي. وكخطوة أولى في هذا الاتجاه، أنذر السفراء الأوربيون في واشنطن بحقيقة أن الأحداث العسكرية في الأيام القليلة المقبلة سوف تقرر احتمال حل أوسع المشكلات. وطلب إلى الإسرائيليين أيضاً أن يطرحوا أفكارهم حول ترتيبات ما بعد الحرب. (٣٧)

مهاوي تلك الدبلوماسية، واضحة بمرارة، على أية حال، في الطور الافتتاحي للحرب. فخطة ريغاتا، قد ماتت عملياً، وهي حقيقية تأكدت ذلك الصباح برفض اليابان، ونيجيريا، وإثيوبيا، والبرتغال الاشتراك بهذه الخطة، حتى قبل أن يعلموا بنشوب القتال. وزيارة محيي الدين، التي لم تلغ رسمياً، قد أرجئت بالتأكيد. والسفراء العرب في واشنطن رفضوا التأكيدات الأمريكية بالحياد في هذا الصراع واتهموا الولايات المتحدة بتضليل مصر بخبث بفضل تشجيع إسرائيل على الهجوم. وأخذت الجماهير العربية الغاضبة تهاجم السفارات الأمريكية في جميع أنحاء

العالم العربي مبتدئين في بيروت. ولم يكن الوضع هادئاً محلياً. فعندما قال الناطق باسم وزارة الخارجية روبرت ماك كلوسكي: (Rober Mc Closkey) «موقفنا (تجاه الحرب) حيادي فكراً وقولاً وفعلاً». احتج اليهود الأمريكيون احتجاجاً عنيفاً. الأمر الذي اضطر راسك المرتبك إلى أن يوضح أن مفهوم (حيادي) العظيم في القانون الدولي لا يعني عدم المبالاة». وهكذا لم يعد أمام الإدارة، مُكرهةً، من خيار سوى الرد ردًّا متعدد الأطراف، من خلال الأمم المتحدة، كما دل البيان الأول حول الصراع، وهذا نصه:

«لقد حزنّا حزنا عميقاً عندما علمنا أن قتالاً على نطاق واسع قد نشب في الشرق الأوسط، وهو احتمال سعينا لمنعه... ولسوف تكرس الولايات المتحدة كل طاقاتها لإنهاء القتال والبدء بإرسال السلام وتعزيز التنمية في المنطقة. وندعو جميع الأطراف لدعم الأمن للتوصل إلى وقف إطلاق نار فوري». (٣٨)

افترض جونسون أنه إذا ما ووجه مجلس الأمن بحرب فعليه فإنه سوف يعمل بسرعة وبفاعلية لإنهائها. أول كلمة عن الحرب وصلت إلى مقر الأمم المتحدة في الساعة ٢,٤٠ صباحاً من الجنرال ريكهاي. إذ أرسل تقريراً مفاده أن الطائرات الإسرائيلية قد قصفت مواقع مصرية في غزة وقصفت كذلك رتلاً من قوات الطوارئ الدولية التابعة للأمم المتحدة فقتلوا ثلاثة جنود هنود. كما أن بنش (Bunche) هتف إلى الأمين العام للأمم المتحدة في بيته وأيقظه من نومه بالكلمات التالية: «لقد نشبت الحرب!» بعد خمس دقائق، كان يوثانت في طريقه إلى مقر الأمم المتحدة، متخلياً عن تأملاته اليومية المعتادة. وفي الوقت نفسها تقريباً، هتف جدعون رفائيل إلى سفير الدنمارك هانس طابور (Hans Tabor)، رئيس مجلس الأمن في شهر يونيو ذاك، وأخبره أن إسرائيل كانت ترد على هجوم مصري «جبان وغادر».كان رفائيل قد تلقى تعليمات بأن يتلو بياناً بهذا المعنى أمام مجلس الأمن، ولكن هذه التعليمات تغيرت بحلول الساعة ٦,٣٠ إذ لدى تلقيه مغلفاً موسوماً بعبارة (عيناك فقط) علم بتدمير القوة الجوية المصرية. فأصبحت أوامره الآن في اتجاه تأخير تبني قرار بوقف إطلاق النار بأية وسيلة وأكثر ما يمكن من الوقت.

ومن المفارقات أن محمد القوني، سفير مصر، كان يسعى أيضاً لتأخير اتخاذ قرار بوقف إطلاق النار. فقد شكا، هو الآخر، من «عدوان استباقي غادر» على غزة، وسيناء والمطارات المصرية، وأعلن أن «مصر قد قررت الدفاع عن نفسها بكل الوسائل وفق ميثاق الأمم المتحدة.» ولكن القوني كان قد تحدث طويلاً مع القاهرة واعتقد أن هجوماً مضاداً ضخماً قد بدأ. فكان هو والسفراء العرب الآخرون- سفير سوريا، الفرا- مبتهجين وهم يصغون إلى التقارير الإذاعية عن الانتصارات العربية، وأخذوا يتلقون التهاني من الشيوعيين والوفود الصديقة الآخرين. وقال القوني متباهياً إلى فيديرينكو: (Federenko) «لقد خدعنا الإسرائيليين» مُصِراً على أن الطائرات المصرية التي دمرت ليست سوى نماذج خشبية «وسوف نرى من سيربح الحرب». (٣٩)

لدى انعقاد المجلس في الساعة ٩,٣٠ صباحاً بدعوة من الممثل البريطاني والممثل الروسي-تساءل الممثل الفرنسي، روجر سيدوكس (Roger Seydoux) «فيما إذا كان الاجتماع ضروريا،» فانفض المجلس بسرعة. عارض المندوبون العرب فكرة وقف إطلاق النار، في حين أعلن جدعون رفائيل أن إسرائيل ستنظر إلى أية محاولة لإصدار أمر لقواتها بالعودة إلى الحدود نظرة استخفاف ولا مبالاة. أدان فيديرينكو «المغامرة الإسرائيلية... بتشجيع ظاهر وباطن من بعض الدوائر الامبريالية»، وهدد باستخدام الفيتو ضد أي قرار لا يدين إسرائيل بصراحة. انفض المجلس، بسبب هذا الركود، «لإجراء مشاورات مستعجلة» ولكن لم يكن ملتزماً بمتابعة المباحثات من المندوبين سوى غولد بيرغ. فمثلاً، عزل فيديرينكو نفسه داخل سفارته، لا يتصل بأحد، والعرب كانوا منتصرين، والإسرائيليون صامتون. فرأت واشنطن أن الظروف لم تكن مناسبة لإطلاق عملية السلام.

ومع ذلك، أصر غولد بيرغ على اعتبار الحرب فرصة طال انتظارها، دبلوماسياً وشخصياً. شق غولد بيرغ، الولد الأصغر من ثمانية أبناء خضري من شيكاغو توفي عندما كان في الثالثة من العمر، طريقه من فقر المدينة إلى أن أصبح محامياً

مشهوراً للعمال. عينه كينيدي سكرتيراً للعمال، تم رفض تعيينه عضواً في المحكمة العليا ليقبل عرض الرئيس بتعيينه سفير الولايات المتحدة إلى الأمم المتحدة - وهو قرار سرعان ما ندم على اتخاذه. لقد طغى عليه سلفه أدلاي ستيفنسون (Adlai Stevenson)، بسبب كونه طويل النفس متحفظاً، ورغم اتصاله اليومي بجونسون فإنه انقطع عن عملية اتخاذ القرار التي كان يأمل أن يكون له فيها أثر. وبسبب معارضة غولد بيرغ المتزايدة لحرب فيتنام اعتبر مستقيلاً.

كل ذلك تغير بنشوء أزمة الشرق الأوسط. بما أن غولد بيرغ صهيوني صريح، وكان يصطدم كثيراً مع وزارة الخارجية بسبب دعمه لإسرائيل، فقد استغل هذه الروابط الوثيقة مع تل أبيب والبيت الأبيض ليكون وسيطاً أساسياً. ففي ١٥ مايو عندما كان غولد بيرغ يكرم وفادة ضيوفه من زملائه سفراء الأمم المتحدة على ظهر سفينة (معدّيّة) سيركيل لاين (Circle Line) حول ما نهاتن، بعث إليه جونسون زورقاً من حرس السواحل ليذكّره بالأنباء القائلة -إن الجيش المصري قد دخل سيناء.

الآن، في الساعة ٤,٤٠ صباحاً في الخامس من يونيو، كان غولد بيرغ على الهاتف يتصل أولاً بغرفة المكتب ومن ثم ببنش (Bunche) ينسق لعقد الجلسة الطارئة لمجلس الأمن. كانت فكرته تأمين وقف إطلاق نار بسيط، مع بقاء القوات حيث هي. وفي منتصف النهار، سأل رفائيل عما تريد إسرائيل، فكان الجواب ببساطة: «الوقت». (٤٠)

أخذ الزمن يتضاءل، على أية حال، عندما أخذت الشائعات حول انتصارات إسرائيل تصل إلى نيويورك. وفي الساعة ٦,٣٠ مساء أصرت الهند على عقد مجلس الأمن لإعادة الوضع عما كان عليه قبل الحرب في الرابع من يونيو. لم يقبل غولد بيرغ مشروع القرار الذي أعدته الهند لأنه يضفي الشرعية، ضمناً، على الحصار وإخراج قوات الطوارئ الدولية. ونتيجة التنسيق الوثيق مع جونسون وولت

روستو، التأم لقاء بين غولد بيرغ وسفير بريطانيا اللورد كارادون (Lord Caradon) (واسمه سابقاً هيوفوت (Hugh Foot)، وكان آخر حاكم بريطاني لقبرص، وموظفاً في حكومة الانتداب البريطاني في فلسطين) لوضع مشروع قرار بديل، يدعو المتحاربين إلى وقف إطلاق النار على الفور، وأن يتكفّلوا فصل القوات، ويحجموا عن استخدام القوة مهما كانت طبيعتها وتخفيف حدة التوتر في المنطقة. وصممت لغة مشروع القرار بحيث يجبر مصر على إعادة فتح تيران وسحب قواتها من سيناء.

قال غولد بيرغ، فيما بعد، «كان ينبغي أن نعمل بسرعة قبل أن يتجمد الوضع إذا ما أردنا اغتنام الفرصة لاستعادة السلام». ويبدو أن فيديرينكو قد أدرك هذه الحقيقة، عندما عرف الوضع في الميدان. ولكنه ظل يرفض الموافقة على قرار لا يشترط انسحاب القوات الإسرائيلية، ولا يعترف بحقوق مصر في تيران.

فاقترح التأجيل لمزيد من التباحث حتى اليوم التالي، ونصح غولد بيرغ أن يتشاور مع القوني في هذه الفترة. ذكر السفير الإسرائيلي القوني الذي كانت علاقته به حميمية بقوله: «إن العرب يقبلون دائماً صيغة الأمس، بعد فوات الآوان». ولكن العلاقة الحميمة لا مكان لها هنا، فرفض القوني النظر في مشروع القرار الأمريكي. (٤١)

بدت الجهود الأمريكية لتحويل الحرب العربية-الإسرائيلية الثالثة إلى سلام دائم - لتغيير السياق والبيئة - منحوسة الطالع. فلا العرب ولا الإسرائيليون كانوا مهتمين بوقف القتال، وكان اهتمامهم بالتوصل إلى تسوية أقل من ذلك. والإسرائليون، من جهتهم، كانوا مصممين على منع وقف إطلاق النار لمدة ٤٨ ساعة على الأقل، وعلى ربط وقف القتال مع إعلان العرب إنهاء حالة الحرب. ومن ضمن تكتيكات رفائيل لتأخير اتخاذ قرار بوقف القتال أعلن أن أبا إيبان قادم إلى نيويورك وأنه سيتحدث في مجلس الأمن في اليوم التالي. وكان وزير الخارجية الإسرائيلي يأمل ألا يتخذ قرار قبل وصوله وشرح قضية إسرائيل. كتب إلى سفير الأمم المتحدة يقول: «لدى ذهابنا إلى المعركة لم نكن قد حددنا أهدافنا، ولكننا كنا نعرف ما هي أهدافنا ضمن شروط العيش الآمن والمستقر، واقتربنا أكثر من السلام». (٤٢)

«رماية الديوك الرومية» في اليوم الأول:

لم يكن تصور السلام بحد ذاته في نظر الجنود العرب والإسرائيليين على حد سواء أبعد منه منالاً مثلما كان في ذلك اليوم. إذ كانت الجيوش المتقابلة، بحلول مساء ذلك اليوم، قد غرقت في معركة ستحسم في وقت قريب مسار الحرب-بل مصير الشرق الأوسط برمته، في واقع الأمر.

ففي سيناء، في الساعة العاشرة ليلاً كانت ست كتائب مدفعية عيار ١٠٥ مم، ١٥٥مم تطلق أكبر ستار ناري في تاريخ العسكرية الإسرائيلية بمعدل ٦٠٠٠(ستة آلاف) قذيفة في عشرين دقيقة على أم قطيف. وأعلن شارون قائلاً: «ليهتز كل شيء». وفي حين تابعت المدرعات الإسرائيلية قصف الدفاعات المصرية في أقصى الشمال، تدفق مشاة جيش الدفاع الإسرائيلي في ثلاثة خطوط من الخنادق في الشرق، وقام المظليون بتحييد المدفعية المصرية في الغرب. كان ذلك تطبيقاً لما أسماه شارون «كشف متواصل للمفاجآت» - ضرب العدو من اتجاهات عديدة غير متوقعة بآن واحد في الليل. ووافق ضابط مصري وقع في الأسر على وصف هذه الهجمات بأنها «كمن يشاهد أفعى من النار تفك نفسها».

لقد دُمّر المصريون. كانوا يسمعون طيلة النهار تقارير إخبارية مبهجة عن انتصارات العرب. قال حسن بهجت أحد الضباط الكبار في جهاز المخابرات، المتمركز خلف أم قطيف : «كنا نسمع عن الحرب من المذياع. كان العالم كله يظن أن قواتنا أصبحت على مشارف تل أبيب». جاء في الأمر العسكري «٤» الصادر عن مقر قيادة عامر في الساعة ١١,٤٥ قبل الظهر «أن صداماً برياً قد وقع مع العدو الذي يحاول، أن يخترق خطوط دفاعاتنا الأمامية على الحدود في سيناء. ولكن الهجوم فشل». وتبع ذلك أمران عسكريان هما ١٢، و١٣ في الساعة ٤,٣٠ والساعة ٦,٠٠ ادعيا أن القوات الإسرائيلية التي تهاجم كونتيلا وأم قطيف إما أنها قد دحرت أو دُمِّرت. أما الجنرال مرتجى الذي لم يتوقع أبداً هجوماً إسرائيلياً مباشراً على أم

قطيف فقد أمر قواته الموجودة في جبل لبني وبير لهفان بشن هجوم مضاد. لم ينجح أي منهما، إذ حصرا على الطرق بسبب إغلاق الإسرائيليين لها بعوائق وتعرضوا لقصف جوي عنيف لا رحمة فيه. وعندما يئس القادة المصريون في أم قطيف من وصول أية تعزيزات أمروا مدفعيتهم بقصف مواقعهم هم أنفسهم. (٤٣)

ومع ذلك، لم تسر أمور الإسرائيليين سَلسة. إذ ضَلَّت نصف طائرات الهيلوكوبتر التي تنقل مظليين داني مات (Danni Matt) طريقها ولم تهتد أبداً إلى ميدان المعركة، والطائرات الأخرى لم تتمكن من الهبوط بسبب نيران الهاونات. كما توقف لواء مدرع كامل بقيادة الكولونيل موردخاي زيبوري (Mordechai Zippori) الذي كان يهاجم الجبهة، بسبب حاجته لدبابة كاسحة للألغام واحدة؛ في حين أن الكولونيل نير (Nir) الذي اخترق دفاعات المؤخرة عند سد روافا (Ruwafa) قد أصيب بقذيفة دبابة وأصيب إصابة حادة في ساقيه. ومع ذلك، تم الحفاظ على الخطة إجمالاً، وكانت ناجحة ببعض الاعتبارات إذ استطاع الإسرائيليون بخسارة ٤٠ قتيلاً و١٤٠ جريحاً اختراق الدفاعات المصرية واتخاذ مواقع الهجوم على أم قطيف.

واجه جميع من في الخط الأمامي المصري في سيناء مصيراً مماثلاً، بالفعل في أقصى الجنوب حيث تمركز اللواء الإسرائيلي المدرع الثامن بقيادة الكولونيل أفراهام (ألبرت) مندلر (Avraham Albert Mendler) مبدئياً كخدعة لصرف أنظار القوات المصرية عن طرق الغزو الحقيقي، قام بضرب المعاقل المحصنة في كونتيلاً والاستيلاء عليها. وفي عملية خلدها فيما بعد التاريخ المصري، قامت بها قوات استطلاع أبدت فيها هذه القوات قتالاً باسلاً. قال أحد ضباط الاستطلاع، اسمه يحيى سعد باشا، واصفاً تلك العملية: «واجهوهم بلا خوف وضربوا عدداً من الدبابات الإسرائيلية. لم يبق من الدبابات المصرية سوى ثلاث، أصيبت إحداها بأضرار وقتل معظم الضباط والجنود. كنت أشاهد الكتيبة وهي تتفكك... رأيت جثث الجنود بعد أن هرستها الدبابات الإسرائيلية... ورأيت الجرحى ملقون على الأرض، وكنت عاجزاً تماماً عن مساعدتهم». وبحلول الليل، كان رجال مندلر قد حققوا موقعاً إستراتيجياً قيمّاً، استطاعوا بفضله أن يمنعوا قوة الشاذلي من مساعدة أم قطيف، وأن ينضموا في معركة شارون الكبرى القادمة في نخل (Nakhl).

وفي الشمال عززت فرقة تل (Tal) استيلاءها على رفح وخان يونس ووصلت مشارف العريش. استوجب تطهير المدينة قتالاً صعباً، حسبما ذكرت سجلات جيش الدفاع الإسرائيلي». إذ كان المصريون يطلقون النار من على أسطح المنازل والشرفات والنوافذ. وكانوا يلقون قنابل يدوية على أنصاف مجنزراتنا، وسدوا الشوارع بالسيارات الشاحنة. وكان رجالنا يعيدون إلقاء القنابل اليدوية، وسحقوا السيارات الشاحنة بدباباتهم».

مرت الفرقة الثالثة من فرق الجيش الإسرائيلي الجنوبي - بقيادة الجنرال يوفي (Yoffe) حوالي منتصف الليل، مع الأضواء المتوهجة، من بين قوات تل وقوات شارون، في طريقها إلى بير لهفان وجبل لبني. وتقدمت الدبابات الطليعية من طراز سنتوريون بقيادة الكولونيل إلحنان سيلا (Elhanan Sela) بمحاذاة أبو عجيلة شمالاً متخللة ميدان شارون، وقد تبادلت نيران صديقة مع بعض دباباته، ثم انعطفت نحو الجنوب الغربي. واندفع اللواء ٢٠٠ بقيادة الكولونيل يساحار «يسكا» شادمي (Yissa char Shadmi Yiska) مسافة أبعد شمالاً في بوادي وادي هاريدين (Wadi Hari-din) الرملية. ومع أن المصريين يعتقدون أن هذا الوادي لا يمكن اجتيازه، فقد درسه جيش الدفاع الإسرائيلي في العام ١٩٥٦ ووجدوا أنه ملائم للدبابات. ورغم تعرض قوات سيلا شادمي لقصف مدفعي، وانفجارات ألغام أرضية، فقد أفلحت قواته في قطع جميع مفارق الطرق الرئيسية -إلى جبل لبني، وأبو عجيلة، والعريش- وبإيقاف لواءين مصريين مدرعين كانا يحاولان تطويق شارون.

كان حظ الإسرائيليين من النجاح في التقدم، أقل، في معركة حاولوا تفاديها في غزة. كان دايان قد منع صراحة دخول القطاع الذي يبلغ طوله ٢٥ ميلاً معللاً ذلك بأنه لا حاجة لإسرائيل أن تثقل نفسها بـ ٢٥٠,٠٠٠ لاجئ فلسطيني وتورط نفسها بقتال شوراع داخل المدن. ومع ذلك، بعد أن تَمَّ إصدار أمر «الملاءة الحمراء» بوقت قصير فتحت المواقع الفلسطينية في غزة النار على مستوطنتي نيريم (Nirim) وكيسوفيم (Kisufim) المجاورتين. فتجاوز رابين أوامر دايان وأصدر تعليماته إلى

لواء مؤلل معزز هو اللواء الحادي عشر بقيادة الكولونيل يهودا ريشيف (Yehuda Reshef) بدخول القطاع. وسرعان ما واجهت هذه القوة نيران مدفعية مدمّرة، ومقاومة باسلة من الجنود الفلسطينيين وبقايا الفرقة السابعة من رفح. ولاحظ رفائيل إيتان قائد المظليين «أن الجندي المصري، بطبيعته، أفضل في الدفاع الثابت منه في الدفاع المتحرك. أما الجنود الفلسطينيون، فعلى العكس كانوا أكثر رغبة بتقديم تضحيات».

قتل سبعون إسرائيلياً في بعض أعنف معارك الحرب قتالاً. كما قتل بن ويزيرمان (Ben Oyserman) من محطة CBC، وبول شوتزر (Paul Schutzer) من مجلة لايف (Life) الذي ظهرت صوره الأخيرة في طبعة خاصة عن الحرب، واثنا عشر جندياً آخرين من قوات الطوارئ الدولية. ومع غروب الشمس كان جيش الدفاع الإسرائيلي قد استولى على هضبة علي منطار (Ali Muntar) الحيوية المطلة على مدينة غزة، ولكنه هزم وصدّ من المدينة نفسها. (٤٤)

واستمرت المعارك غير المتوقعة تزداد شراسة على طول الجبهة الشرقية حيث لم تكن المقاومة التي واجهها الإسرائيليون أقل عنفاً ولم تكن الخسائر التي لحقت بالإسرائيليين أقل فداحة. فحول جنين، صدت الكتيبة ١٢من الفيلق العربي محاولات متكررة قام رتل بار كوخفا (Bar Kokhva) -وهي قوة كبيرة- لاختراق أحراش برقين القريبة من مفترق طرق قباطيا. أصدر نائب قائد الكتيبة الميجر محمد سعيد عجلوني أوامر بالتمسك بالأحراش حتى «آخر رجل وآخر قذيفة «وادعى أنه دمر ١٨ دبابة إسرائيلية. وكتب قائد عجلوني، الميجر صلاح علايان (Salah Alayyan) واصفاً المعركة: «كان الإسرائيليون المضطربون المذعورون يركضون حول مركباتهم المشتعلة كالنمل المذعور.» ولكن غارات سلاح الجو الإسرائيلي بدأت تحدث أثارها المدمرة على الأردنيين. كما أن دباباتهم الباتون M-48 المجهزة بخزانات وقود خارجية ثبت أنها عرضة للتدمير عن قرب حتى من قبل الدبابات الإسرائيلية شيرمان الأقدم منها. دمرت ١٢ دبابة من لواء عجلوني ولم

يبق سوى دبابات صالحة للعمل. وبعد الغسق بقليل شاهد عجلوني أنواراً تقترب من الجنوب فظنها تعزيزات له آتية من اللواء المدرع ٤٠ والواقع أنها كانت الدبابات الإسرائيلية التي فتحت نيرانها عندما أصبح العدو ضمن مدى مدافعها.

اعترف تاريخ إسرائيلي رسمي للمعركة أن «الأردنيين قاتلوا بشجاعة وفاعلية. وكان لا بد من تدمير دباباتهم وأسلحتهم المضادة للدرع قبل أن تتمكن فرقة أوغدا Ugdah بقيادة بيلد (Peled) من التقدم إلى أرض أكثر ارتفاعاً وإلى مواقع مشاة العدو». وصف إفرايم رينر(Ephraim Reiner)، قائد اللواء الإسرائيلي المدرع ٣٧، كيف أن قواته لم تستطع التقدم قبل أن يأتيه الدعم من نيران المدفعية والضربات الجوية ضد العدو». جاءت طائرة ودارت على محورها في الجو ثم انقضت مباشرة على دبابة القائد الأردني فجرحته وقتلت مشغل اللاسلكي وضابط المخابرات. عندها فقط أخبرت الفرقة بأني أهاجم.. هجوماً ليلياً كلاسيكياً، جميلاً جداً». ولدى إصابة عجلوني بجرح، أصدر أوامر لما تبقى من الدبابات بالتراجع إلى جنين حيث وجدوا أنفسهم مع بقايا لواء المشاة ٢٥ بقيادة خالدي محاصرين تماماً. (٤٥)

انعكس الاختراق الذي حققه جيش الدفاع الإسرائيلي في شمال الضفة الغربية في منطقة القدس. حيث كان اللواء العاشر بقيادة بن أري (Ben Ari) يقترب من بيدو (Bidu) ومفرق بيت إكسا -بيت حانينا الحاسم. كما شكل من وحدات مشاة مختلفة متعددة لواء آخر هو اللواء الرابع بقيادة موشي يوتفات (Moshe Yotvat) وأرسل ليفتح ممر اللطرون. إن موقع قلعة الشرطة الأردنية عند المدخل الغربي للممر- باب الواد، بالعربية، وشعرهاغاي (Shaar' Hagai) بالعبرية -الذي صمد لعدة هجمات إسرائيلية متوالية في العام ١٩٤٨، لم يبد مقاومة تذكر الآن وسقط في مطلع مساء الخامس من يونيو. وكذلك قرى يالو (Yalu) وعمواس (Imwas) وبيت نوبا(Beit Nuba) المجاورة.

كانت هذه القرى تؤوي فدائيين مصريين من كتيبتي الصاعقة ٣٣، و٥٣ المهيأتين للهجوم على المطارات الإسرائيلية. تحركت الدوريات بقيادة أدلاء من المخابرات الأردنية باتجاه الرملة وحزور (Hatzor) في الساعة السابعة مساء. كما أكد الضابط الفدائي علي عبد المنعم مرسي، «بدأنا نتسلل عبر المستوطنات الإسرائيلية...لم يكن لدينا فكرة عن مهمتنا سوى صورة للقاعدة التقطت بآلة تصوير بحجم الكف». وسرعان ما اكتشف رجال مرسي، فلجؤوا إلى الحقول المجاورة التي أشعل الإسرائيليون النار فيها بعدئذ. ولم ينج من القوة الأصلية المؤلفة من ٦٠٠ فدائي سوى ١٥٠ هربوا إلى الأردن.

قال لنائب رئيس هيئة الأركان حاييم بارليف (Haim Barlev) مبتهجاً إلى الحكومة في ذلك المساء: «ستدخل دبابات لواء هاريل المدينة في غضون ساعتين».

كانت المواجهة في قلب المدينة قد بلغت أوجها. ففي الساعة ٧,٤٥ بدأت المدفعية والهاونات تمطر المواقع الأردنية بوابل مندلبوم (Madlebaun Gate). وأضاءت المنطقة قذائف ضوئية، وأضواء كاشفة. انفرج المشاة الإسرائيليون المتمركزون على طول ذلك الخط لأول مرَّة من قذائف الأردنيين ونيران أسلحتهم الصغيرة التي لم تنقطع طوال اليوم. وفيما يتعلق بمظليي موتاغور كانت الاجراءات المضادة التي ينبغي اتخاذها هي مجرد الإعداد للاندفاع عبر حي الشيخ جراح العربي المجاور والاتصال بجبل المكبر. وكانت المقاومة التي واجهها هذا الهجوم مؤلفة من شبكة من العقبات - تحصينات وأسلاك شائكة وألغام.

حاول رابين إقناع غور بتأجيل الهجوم حتى الفجر حيث يمكن تقديم غطاء جوي؛ لكن العرض رُفض على الفور. وعلل غور رفضه بأن الطيران لا يجدي في قتال الشوارع، في حين أن المظليين يفضلون القتال في الظلام. كما أنه إذا ما اشتد القتال في سيناء، أو نشب مع سوريا، فإن الجيش ربما يؤجل عملية القدس إلى أجل غير مسمى. كان غور يأمل أن يتحرك في منتصف الليل، بيد أن صعوبات لوجستية (تعبوية) أرجأت ساعة الذروة حتى ٢,١٥ صباحاً، قبل تسعين دقيقة من الفجر.

خريطة: الحرب البرية في سيناء

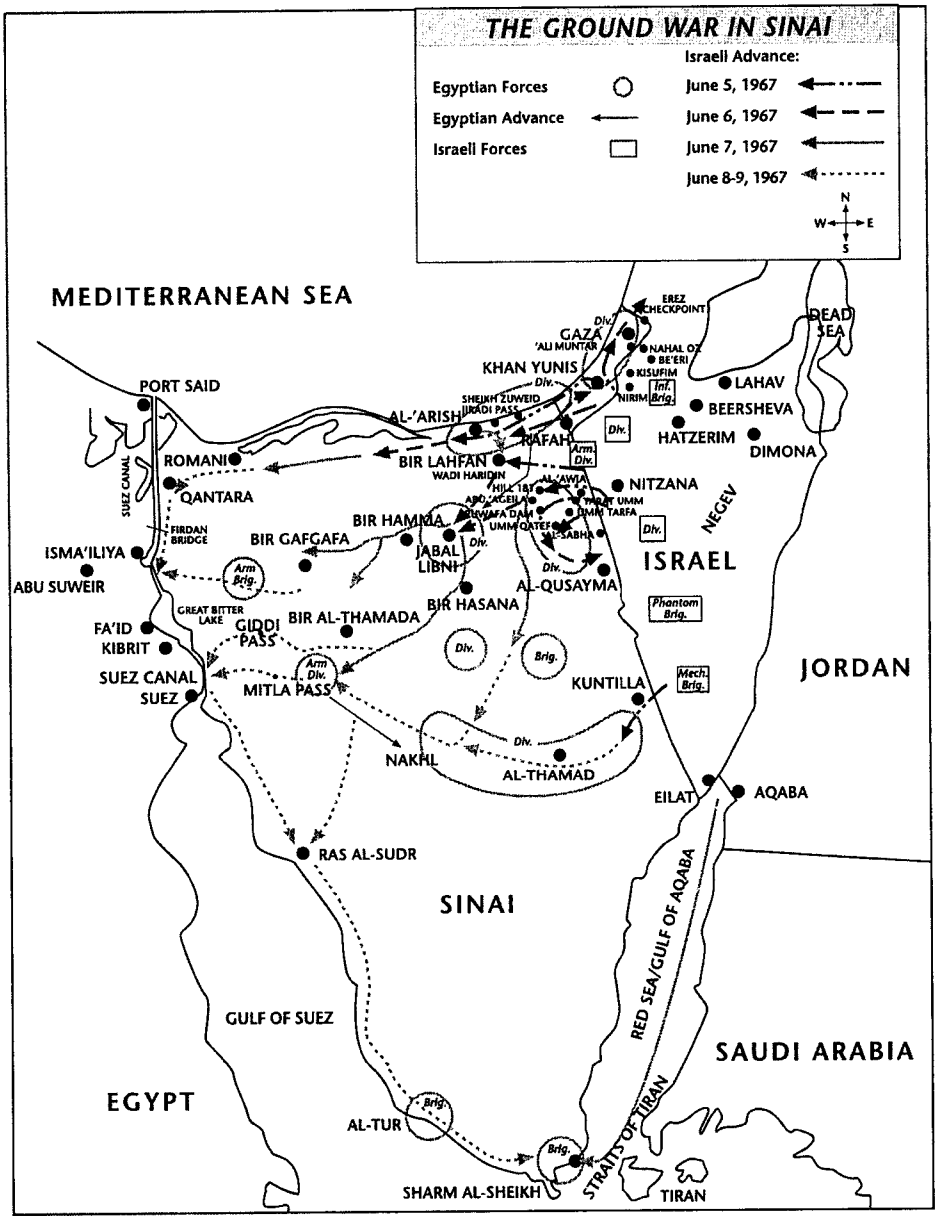

خريطة: معركة الضفة الغربية

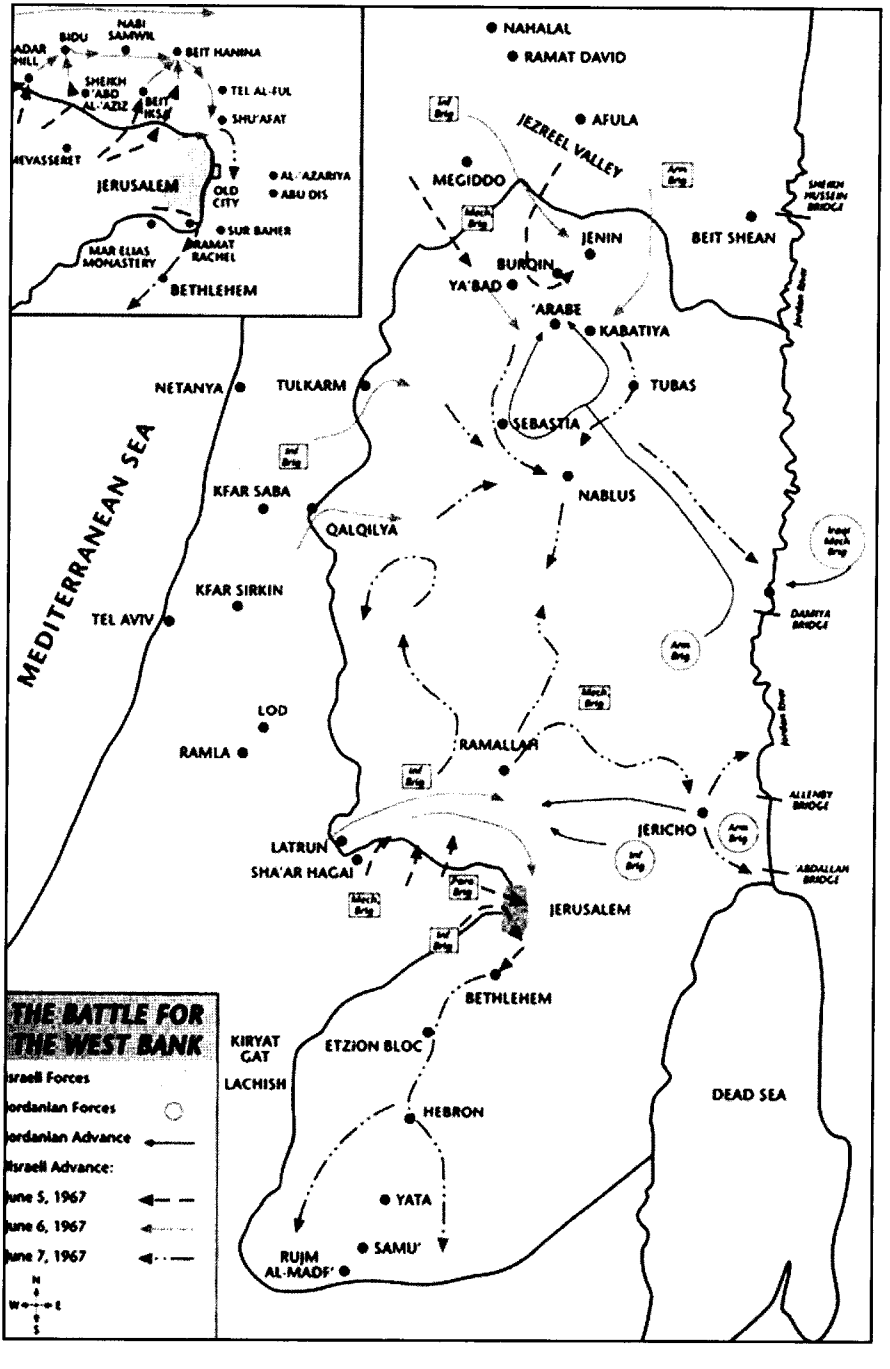

ظل الكولونيل واثقاً، كما كتب فيما بعد، من «أننا نعرف أن الفيلق العربي سيدافع عن القدس من مواقع ثابتة.. وأنهم لم يبنوا أبداً خط دفاع ثان. فإذا ما اخترقنا (الخط الأول) سيكون تقدمنا سهلاً». (٤٦)

كانت الألوية الأردنية في منطقة القدس - لواء الملك طلال، ولواء حطين، ولواء الإمام علي- ثابتة في واقع الأمر ليس بينها تنسيق أو اتصالات إلا قليلاً. ومع ذلك، عندما اشتدت الهجمات الإسرائيلية بعد الظهر، عهد إلى قائد لواء الملك طلال، الجنرال عطا علي هزاع بحكم المدينة. كان علي هذا البالغ من العمر٤٤ عاماً، لطيف الأخلاق، رشيقاً، وجندياً منذ الخامسة عشرة من عمره، حائزاً على ميداليات الشجاعة في القتال قرب بوابة مندلبوم في العام ١٩٤٨. وبوصفه خريج كلية كمبرلي (Camberley) في إنجلترا، لم يكن ضابطاً تافهاً، جاهلاً؛ بل كان وطنياً جداً يكره المتطرفين العرب. وقال ذات يوم: «لم أكن أخشى، قبل العام١٩٦٧، أن تبدأ إسرائيل الحرب، ولكن منذ العام ١٩٥٦، كنت أخشى أن يبدأ عبد الناصر الحرب». وفي حين أنه استنكر تورط الأردن في (حرب ناصر)، إلا أنه صمم أن يبقى في القدس حتى وقف إطلاق النار على الأقل.

أمر عطا علي قواته أن ترص صفوفها في خط يمتد من أبو طور (Abutor) في الجنوب حتى المدينة القديمة، والشيخ جراح وتل الفول، شمالاً حاصراً جبل المكبر بين ضلعيه. كان تحت تصرفه ٥٠٠٠ جندي من الفيلق العربي، و١٠٠٠ مقاوم فلسطيني، مسلحين بالهاونات، والرشاشات والهاوتزرات. ولكن لم تكن لديه دبابات، وبما أنه كان يعتقد أن العدو يفوقه عدداً، فقد أرسل، رغم تعطل جهاز الإرسال لديه، برسالة إلى الميجر جنرال محمد أحمد سالم، قائد الجبهة الغربية، يحثه فيها أن يرسل دبابات وجنوداً، على الفور.

استجاب سالم وبعث كتيبة باتون من اللواء المدرع الستين. كان اللواء الستين، كاللواء الأربعين، من الأولوية النخبة في الفيلق العربي يقوده ابن عم الملك حسين، الشريف زيد بن شاكر خريج كلية أركان جيش الولايات المتحدة. كانت أوامره

الأصلية هي صد القوات الإسرائيلية عن ممر اللطرون، ولكن بسبب ازدياد الوضع سوءاً في القدس نفسها وَجَّه اللواء الآن إلى التقدم نحو الضواحي العربية للمدينة، ومهاجمة جبل المكبر من هناك. تقدمت الدبابات ببطء تحت جنح الظلام وصعدت طريقاً طوله عشرين ميلاً إلى ارتفاع ٢٧٠٠ قدم عن أريحا. وفي موازاتهم جاء رجال المشاة من لواء الإمام علي، يشقون طريقهم بصعوبة صاعدين ممراً جبلياً من وادي قِلط (Wadi Qelt) إلى العيسوية (Isawiya). وقبل أن يصلوا إلى غايتهم، اكتشفتهم الطائرات الإسرائيلية جميعاً، وقصفتهم بالصواريخ، إضافة إلى القصف المدفعي، فأبيد عشرهم.

في الساعة التاسعة من تلك الليله، بعد أن أنجز الإسرائيليون استيلاءهم على القدس الجنوبية، وكانوا يستعدون لمهاجمة الخط الشمالي، رأى عطا علي أن السماء قد أضاءت فوق جبل الزيتون. أدرك بغريزته ما حدث. رُفضت مناشدات أخرى لإرسال قوات من رام الله والخليل، المدينتين اللتين عززتا لمواجهة أي هجوم. ولن تتلقى القدس أية تعزيزات. (٤٧)

كان القادة الإسرائيليون يراقبون عن كثب تعاظم المأزق الأردني سوءاً. فلم تعد المسألة بالنسبة لهم ما إذا كان جيش الدفاع الإسرائيلي سيحتل القدس الشرقية، بل هل احتلالها حكيم سياسياً. كان عدد من أعضاء الحكومة، من أبرزهم ميناحم بيغن وإيغال ألون يرون أن من الحكمة السياسية احتلال القدس الشرقية، وتابعوا ضغطهم طوال النهار على إشكول كي يوافق على مهاجمة القدس. ضرب إشكول بكفه على جبينه وقال «تلك هي فكرة». كان رئيس الوزراء يوماً ممزقاً بين الثقة المطلقة بمقدرة إسرائيل القتالية، وخوفه على سلامة إسرائيل في المستقبل. والآن، يواجه الإسرائيليون، بالإضافة إلى التدخل السوفياتي، خطر لوم العالم المسيحي، بل حتى خطر مقاطعته لإسرائيل، إن هي استولت على المدينة القديمة وأماكنها المقدسة.

لم يكن إشكول وحيداً، إذ كان يشاركه وزراء آخرون من أبرزهم وزراء الحزب الديني القومي، مخاوفه من ردة فعل عالمية. وكانت هناك ضغوط موازية تمارس، ابتداءً من الأردن. إذ على الرغم من الطلبات الإسرائيلية التي أرسلت إلى الأردن عبر قنوات دبلوماسية لوقف إطلاق النار، فقد استمر قصف مشارف تل أبيب وقلب مدينة القدس. وصل دايان إلى الكنيست ليقسم يمين تسلمه منصب وزير الدفاع، فوجد المبنى مهجوراً وعاد إلى تل أبيب. ولم يتمكن عدد من الوزراء من الوصول حتى المساء بناء على طلب بيغن ليجتمعوا في ملجأ تحت الأرض.

غاية بيغن من الاجتماع هي بحث مسألة المدينة القديمة - هل ستدخلها القوات الإسرائيلية وما هي سياسة إسرائيل إن فعلت. وبالإضافة إلى الضرورة العسكرية لإجبار الحسين على وقف القصف، وللدفاع عن جبل المكبر، كانت تسيطر على الوزراء الرؤية الألفية للعاصمة اليهودية الموحدة. كتب الكولونيل ليور متذكراً نشوته: «ربما كان ذلك الاجتماع أهم اجتماع وزاري شهدته القدس. وبوصفي ابن لأسرة مرموقة أبيدت في معسكرات الاعتقال، وبوصفي سليلاً للشعب اليهودي، ومواطنا لدولة إسرائيل، لم أستطع كبح جماح مشاعري المحلّقة». (٤٨)

جاشت المشاعر، عندما أخذ الوزراء يتكلمون فوق أصوات القذائف الرخيمة معبرين عن آرائهم. فبدأ بيغن القول: «هذه ساعة امتحاننا السياسي. يجب أن نحتل المدينة القديمة رداً على عدم استجابة الحسين لإنذاراتنا، ورداً على القصف الأردني». وعقّب ألون مؤيداً: «كلنا نريد رؤية المدينة القديمة جزءاً لا يتجزأ من إسرائيل - أو أن يصل الإسرائيليون إلى الأماكن المقدسة، على الأقل».

أما إشكول فقد نصح بالحذر: «علينا أن نزن التشعبات الدبلوماسية التي تنجم عن احتلال المدينة القديمة. حتى لو استولينا على الضفة الغربية والمدينة القديمة، فلسوف نجبر على التخلي عنهما في النهاية. فأيد وزير الحزب الديني القومي، حاييم موشي شابيرا معلناً: أفترض أنه سيمارس ضغطٌ لتدويل المدينة، وأنا، من

جهتي، لن أعارض الفكرة». كان الجدال حول الخطوط الأيديولوجية يخف حدة أكثر من الجدال حول الخطوط الغريزية، مع تأييد زالمان أران من حزب الماباي لشابيرا وموردخاي بنتوف من حزب مابام اليساري، المؤيد لبيغن. وأبدى أبا إيبان قلقاً بشأن احتمال إحداث أضرار بالأماكن الدينية.

وأخيراً اتفق الوزراء على ألا يتفقوا، وقبلوا صيغة توفيقية اقترحها إشكول، هي: «بالنظر إلى الوضع الذي نشأ في القدس بسبب القصف الأردني، وبعد التحذيرات التي أرسلت إلى الحسين، فربما تكون قد حانت فرصة لاحتلال المدينة القديمة». أما المهمة الفورية فهي إسكات المدفعية الأردنية، على أية حال.

وكان دايان يصارع هذه المسألة، في أعماق غرفة العمليات مع جنرالاته - رابين، ووايزمن، وبارليف. قال لهم: «أعرف ما تريدون. تريدون احتلال جنين». فلم يعترض أحد، ولم يتردد دايان. وهكذا، باختصار، كانت الخطوة الأولى هي تخويل إسرائيل لدخول الضفة الغربية. أما فيما يتعلق بالقدس فقد أمر دايان إرسال رسالة أخرى إلى الحسين، يهدد فيها بقصف عمان إذا ما أصرت قواته على الاستمرار بقصف إسرائيل. وفي هذه الأثناء، يمكن لجيش الدفاع الإسرائيلي أن يدفع بهجماته إلى شمال المدينة القديمة وجنوبها، وأن يحاصرها. وعندما أخبره إشكول بالبحث الجاري في مجلس الوزراء، أجابه قائلاً: «غداً ستكون المدينة القديمة بأيدينا، ولكن وزير الدفاع كان مصمماً على تأخير ذلك العمل أكثر حتى يتم احتلال سيناء. (٤٩)

ظلت هناك صلة جوهرية بين الجبهتين المصرية والأردنية. فقد كان القصف الأردني رداً على هجوم إسرائيل على مصر التي مكنها نجاحها المبكر في رد الضربة إلى الأردن. وهناك أيضاً صلة أخرى تكمن في واقعة أن ناصر والحسين كلاهما لم يكونا يعلمان بالحالة المزرية التي آلت إليها جيوشهما. فضباط ناصر كانوا يخشون تنويره بالأمر، في حين أن الحسين يفتقر إلى الاتصال بالميدان لم يكن لديه أية أدلة. ولم يكن أي منهما يصدق أن سلاح الجو المصري الذي يعد عماد الجهد العربي

الحربي قد أبيد في ساعات فقط، أو أن الدبابات الإسرائيلية كانت تتقدم على الجبهتين في حين ظل السوريون جامدين. واستمرت وسائل الدعاية المصرية - الإذاعة والصحافة- تتفاخر بانتصارات استثنائية، في حين أن القوات الإسرائيلية، حسب البلاغات الأردنية، قد دحرت وصدت عن جنين والقدس، وأن ٣١ طائرة قد أسقطت (٥٠). لم يستطع هذا الجهل الصمود أمام الأدلة على الكارثة التي حلت بالعرب، والتي أخذت تتعاظم وتتكاثر مع اقتراب نهاية اليوم.

بدأت الحقيقة تظهر لعبد الناصر في الساعة الرابعة بعد الظهر، إذ دخل مقر القيادة العليا لأول مرَّة ذلك اليوم فواجه هرجاً ومرجاً، كأنه مشفى مجانين.

كان عامر إما مخموراً أو متعاطياً مخدرات وتحول من حال الاضطراب الشديد إلى حالة الاكتئاب الشديد. كان يصرخ على الهاتف آمراً مرتجى أولاً أن يحرك قواته الموجودة في العريش إلى أم قطيف، ثم غير رأيه وأمره بالتراجع إلى جبل لبني وخط الدفاع الثاني. وتحدث مع صدقي محمود وأعلن أن الطائرات الأمريكية، وليست الإسرائيلية، هي التي نفذت الهجوم ضد مصر، وأن أحد طياريه -حسني مبارك- قد رأى نفاثات أمريكية. ورفض عامر استقبال مكالمات أخرى، سواء من السفارة السوفياتية أو من وزارة الخارجية الذين كانوا يتوقون إلى الحصول على معلومات. ولم يستطيعوا الاتصال بشمس بدران، إذ كان قد أحضر سريراً إلى مكتبه وعزل نفسه فيه.

وقال عبد اللطيف البغدادي الذي تطوع مع زميله كامل حسن ، وحسن إبراهيم من الضباط الأحرار السابقين لتقديم خدماتهم في مقر القيادة، ساخراً: «تصوروا أن هذا هو المسؤول الأعلى عن أمننا. وأن هذا هو ند دايان.»

حاول ناصر التحدث مع مشيره، لكنه وجده لا يواسى، وغير متماسك عملياً. وظل موضوع حديثهما الحقيقي مجهولاً، بيد أن نتيجته كانت واضحة لا جدال فيها. صدرت أوامر إلى الجنرال صلاح محسن قائد اللواء الرابع عشر الموجود في

العريش ليشن هجوماً مضاداً عند الفجر، حتى ولو دون غطاء جوي. كما اتخذ قرار بإعلام الجزائر بتدمير الطيران المصري والطلب إليها إرسال أعداد كبيرة من طائراتها الميغ. وأخيراً، وفي قمة التشاؤم، اتفق ناصر وعامر على التمسك بحكاية التورط الأنكلو-أمريكي المباشر في الحرب، وذلك لتخفيف وطأة الإهانة التي لحقت بمصر ولحث السوفيات على التدخل. فأرسلت تعليمات إلى السفير غالب في موسكو للاجتماع فوراً بكوسيغن وإعلامه بهذا التواطؤ. واستجابت البلدان المنتجة للنفط، وفي طليعتها العراق والكويت، إلى نداء عبد الناصر بوقف شحنات النفط إلى الولايات المتحدة وبريطانيا. وفي الساعة ٦,٥٠ بعد الظهر علم العرب المستمعون إلى «صوت القاهرة» «أن الولايات المتحدة هي العدو، وأن الولايات المتحدة هي القوة المعادية التي تقف وراء إسرائيل. الولايات المتحدة، أيها العرب، هي عدوة كل الشعوب، قاتلة الحياة، مهرقة الدماء، وتمنعكم من تصفية إسرائيل». (٥١)

وبدأت الإشاعات، الوسيلة التقليدية لنشر المعلومات في الشرق الأوسط، في الانتشار. فبعد ١٦ ساعة من إلقاء أول طائرة إسرائيلية قنابلها على مَدْرج مصري، كانت الألسن تهمس نتائجها في شوارع لبنان وسورية والعراق والعربية السعودية. استدعى رئيس المخابرات العسكرية الأردنية الجنرال إبراهيم أيوب هيئة أركانه في الساعة السابعة مساء وقال لهم: «علمت قبل قليل أن ٩٠٪ من الطيران المصري قد دُمّر».

من غرائب الأمور أن الشعب الوحيد من بين شعوب المنطقة القليلة الذي ظل جاهلاً بمجريات المعركة، هو الشعب الإسرائيلي. إذ كانت صفارات الإنذار تزعق طوال النهار، ولا يتلوها أية إشارة بالانفراج. وكان الإسرائيليون كلهم يعلمون أن الدبابات المصرية كانت تزحف إلى داخل النقب، وأن الجيوش العربية الأخرى كانت تتهيأ للغزو كذلك. وتحدث إشكول في الإذاعة الوطنية واصفاً «الحملة الدموية القاسية» التي يتعرض لها زملاؤه المواطنون، محذراً إياهم من أن «الفرق بين المقدمة والمؤخرة سوف يزول.. فكل إسرائيل خط جبهة واحد». وعلى الرغم من اللا أمن الخطير الذي أحدثته هذه الكلمات في صفوف الإسرائيليين، فقد أصر دايان على أن تحتفظ الصحافة بالصمت المطبق حول إنجازات سلاح الجو الإسرائيلي.

وكانت غايته تأخير الضغط العالمي المحتمل من أجل فرض وقف لإطلاق النار، وتأخير التدخل السوفياتي أطول مدة ممكنة. (٥٢)

لم يمنع هذا من أن تحيط إسرئيل الولايات المتحدة علماً بآخر المستجدات. أعطى مئير أميت إيجازاً إلى ماك فيرسون وباربر وركز على التهديد الذي يواجهه مصير إسرائيل، وأكد لهما أنه طالما بدأ وقف إطلاق النار فإن إسرائيل سوف (تضغط على جميع الأزرار). وأعلن أن المعركة ليست من أجل أمن إسرائيل فقط، بل من أجل إنقاذ جميع القوى الموالية للغرب في الشرق الأوسط. ثم أخذت تل أبيب تحيط واشنطن، أولاً بأول، بشروح عامة عن النجاحات التي حققها جيش الدفاع الإسرائيلي في سيناء والقدس والضفة الغربية، مع تقرير يتضمن نبأ تدمير ٤٠٠ طائرة عربية وخسارة ١٩ طائرة إسرائيلية. وكانت هذه المعلومات حول آخر المستجدات تخضع لمراجعة وولت روستو الذي يرسلها بدوره إلى الرئيس. وافتتح روستو مذكرته إلى الرئيس بعبارة «إليكم التقرير مشفوعاً بالخرائط عن رماية الديكة الرومية في اليوم الأول». (٥٣)

الحرب: اليوم الثاني ٦ حزيران (يونيو)

تقدمات إسرائيلية وتراجعات عربية

أمريكا في الحرب وفي السلم

«كذبات كبرى» وإيقافات لإطلاق النار

كان أفراهام يوفي (Avraham Yoffe) مدير جمعية حماية البيئة، مقاتلاً متمرساً في سيناء رغم أنه بلغ من العمر ٤٣ عاماً، ومصاباً بأذى في دماغه يجعله مترنحاً دائماً. فقد قاد في العام ١٩٥٦ رتلاً من المشاة إلى الشاطئ الشرقي من شبه جزيرة سيناء للاستيلاء على شرم الشيخ. ووضع فيما بعد بوصفه رئيساً للقيادة الجنوبية، خطط طوارئ لتحريك الدبابات عبر بوادي الصحراء التي كان يعتقد على نطاق واسع، أن اجتيازها مستحيل. وقبل الحرب ببضعة أسابيع استدعاه الجنرال غافيش، فوصل يوفي إلى المعسكر بثياب مدنية ظاناً أنه يقوم بزيارة مجاملة فحسب. ولكنه عاد بزي بريغادير جنرال وتسلم قيادة فرقة أوغدان مع لواءين احتياط تابعين لها في كل منهما ١٠٠ دبابة. وكانت مهمته اختراق سيناء من جنوب قوات تل (Tal) وشمال قوات شارون، شاقاً الجبهتين، ومنع وصول تعزيزات معادية، أيضاً. ثم يقوم، أثناء اندفاعه نحو الشرق، بمهاجمة خط الدفاع المصري الثاني، في حين أن خطهم الأول ما زال يقاتل.

لقد أنجز يوفي هدفه الأولي وهو الاستيلاء على مفرق طرق أبو عجيلة، وبير لهنان، والعريش، قبل منتصف الليل، وروى يسَّاحار شادمي (Yissachar Shadmi) الذي كان يقود ٢٤ دبابة سنتوريون، فيما بعد: «تلقينا معلومات بأن لواءين

مدرعين مصريين متقدمان، وأطفؤوا أنوار الدبابات، وأن مراقبي المتقدم قال، «لا أستطيع رؤيتها، فقلت له: أطلق عشوائياً، فدمرت أول رشقة أطلقناها سبع مركبات. فانتشر المصريون في الكثبان، وبدأت معركة مريرة دامت من الساعة الحادية عشرة مساء حتى الساعة العاشرة صباح اليوم التالي: «وأكملت الطائرات الإسرائيلية ما بدأه شادمي، وما إن حل منتصف النهار حتى كانت الصحراء مكسوَّة بحطام الدبابات المشتعلة. هرب المصريون شرقاً باتجاه جبل لبني الذي أعاد الإسرائيليون تجميع قواتهم لاحتلاله.

مكن الاندفاع نحو وسط مصر، تلّ وشارون من إنجاز ما لم ينجز بالأمس، وهو الاستيلاء على شعب جيرادي (Jiradi Defile)، وخان يونس، والحاميات الموجودة في أم قطيف. ودارت رحى معارك شرسة. ولدى اندفاع دبابات شارون السنتوريون مهاجمة عبر أبو عجيلة، قامت بالهجوم الرئيسي على أم قطيف، المعقل المصري الرئيسي، فتعرضت لألغام أرضية كثيفة دمرت الدبابات المتقدمة وأحدثت في الأرض حفراً عميقة، وعندما نجح مهندسو جيش الدفاع الإسرائيلي، أخيراً بتطهير الممر في الساعة ٤,٠٠ صباحاً، اشتبكت الدبابات المصرية والإسرائيلية بقتال شديد من على بعد عشرة ياردات. تركت ٤٠ دبابة مصرية و١٤ دبابة إسرائيلية تحترق جنباً إلى جنب، وفي هذه الأثناء، أنجز مشاة كوتي آدم (Koti Adam) تطهير الخنادق ثلاثية الصفوف. وكانت الخسائر الإسرائيلية ١٤ قتيلاً. و٤١ جريحاً مقابل ٣٠٠ قتيل مصري، و١٠٠ أسير.

قضى رجال شارون فترة الصباح بتطهير محيط أم قطيف والاستعداد للاستيلاء على القُسيمة (Qysayma) في الجنوب الشرقي. وفي هذه الأثناء. نجحت دبابات الكولونيل غونين، في الشمال، من اختراق ممر جيرادي ثانية، للاتصال بعناصر متقدمة على جانبه الغربي. لم ينتظر هؤلاء الذين كانوا متطوعين أي فرج، بل تقدموا إلى مشارف العريش، اندفع غونين ليتوحد معهم، وليتقدموا بعد تلقي المؤن عن طريق إسقاط جوي، إلى مطار العريش الذي احتله في الساعة ٧,٥٠ ومع ذلك

ما زالت نهاية المعركة بعيدة. قال يوسي بيليد، قائد إحدى الفصائل، واصفاً المعركة: «دخلنا المدينة في الساعة ٨,٠٠ صباحاً قاصدين قطعها للوصول إلى طريق الساحل. كانت العريش هادئة تماماً، مهجورة. وفجأة انقلبت المدينة إلى مشفى مجانين. فانهالت رشقات الرصاص علينا من كل حدب وصوب، من كل زقاق وزاوية، من كل نافذة وبيت».

وأثناء شرح غونين لعدة وحدات كيفية تطهير العريش، قَسم قوته إلى ثلاثة اتجاهات، رتّل من الدبابات والمهندسين والمدفعية بقيادة الكولونيل يسرائيل غرانيت (Yisrael Granit) استمر في تقدمه على طول شاطئ المتوسط باتجاه القنال، في حين تحولت قوة ثانية بقيادة غونين نفسه جنوباً نحو بيرلهنان وجبل لبني.

أما الكولونيل إينان ومظليو اللواء ٣٥ فقد أمروا باحتلال غزة. كان القتال في المنطقة من خان يونس إلى هضبة المنطار (Muntar) شرساً كما كان دايان يخشى، وكلف إسرائيل نصف خسائرها التي تكبدتها في الجبهة الجنوبية. ولكن توقع دايان بأن غزة ستسقط بسرعة لدى عزلها عن سيناء كان صحيحاً؛ فما إن انتصف النهار حتى كان الإسرائيليون قد استولوا على مقر القيادة المصرية في المدينة وشرعوا بعمليات تطهير. (١)

كان الهجوم الإسرائيلي على الخطوط المصرية الأمامية كاسحاً مدمراً. إذ دُكَّت الفرقة الثانية وعُزلت، وأبيدت الفرقة السابقة والفرقة العشرون تماماً. ودمرت آلاف المركبات -كانت هياكلها المحترقة على طول الطريق تضيء لهم الدرب ليلاً- ومئات الآليات المتوقفة بسبب أعطال ميكانيكية؛ لأن المحركات السوفياتية الصنع لم تكن مناسبة لظروف الصحراء، كما تبين على أرض الواقع، وقتل على الأقل ١٥٠٠ جندي. هرب ضابط الاستطلاع. عادل محجوب من أم قطيف فوصل قبيل الفجر إلى بير حسانا (Bir Hassana) ليجدها مدمَّرة كلياً تلتهمها النيران. إذ لم يكن الوقود متوافراً للمركبات ولا الذخيرة للأسلحة. كانت أشبه برحلة إلى جهنم. «كان

ضابط الاستطلاع حسن بهجت يراقب من على جبل لبني عندما فتحت المدفعية المصرية نيرانها على آلاف الجنود المتقدمين نحوه من الغرب» وبعد ساعة وصل أحد الجنود إلينا وتبين لنا أنه مصري. دمرت مدافعنا الجنود المصريين المتراجعين من أبو عجيلة».

لقد لوحق المصريون المنهكون من قصف المدفعية المعادية بضربات جوية متلاحقة طوال اليوم. ويذكر عزّام شيراحي (Azzam Shirahi) أحد ضباط الأمن في قاعدة بير جفجافة (Bir Gafgafa) الجوية كيف أن المشير عامر تكلم في اليوم التالي مع قائد القاعدة يطلب إليه إصلاح ا لمدرجات بسرعة لأنه سوف تُرسل طائرات جديدة فنزلنا جميعاً نحاول إصلاح المدرج ولكن القصف استمر. ظلت المدفعية المضادة للطيران تقصف بلا انقطاع حتى ذابت سبطاناتها دون جدوى. قتل العديد من الطيارين وجنود الدفاع الجوي وضباطه. ومنذئذ، لم تصل طائرات جديدة، ولم يعترض الإسرائيليين أحد. «أما الطائرات النفاثة المصرية القليلة التي استطاعت أن تقلع مثل طائرتي السوخوي اللتين قصفتا شاحنات التموين المرسلة إلى غونين ذلك الصباح، سرعان ما تعرضت لهجوم من قبل الأسراب الإسرائيلية». (٢)

وبرغم كل هذا الدمار كان الجيش المصري في سيناء ما زال عصياً على الهزيمة. إذ بقيت أكثر من نصف قوات ناصر سليمة، وذات أهمية -فالفرقتان الثالثة. والسادسة، وقوة الشاذلي- ما زالت قادرة على إطلاق النار. وما زال هناك مئات الطيارين جاهزين للطيران في حال تأمين طائرات جديدة. وكانت ٤٨ طائرة ميغ جزائرية في طريقها إلى مصر بالإضافة إلى قوات متطوعين من المغرب وتونس والسودان. وانهالت عبارات التأييد تنصب على مصر من المتعاطفين معها في جميع أنحاء العالم. فقد أبرق الزعيم الفيتنامي الشيوعي هو تشي منه (Ho Chi Manh) شخصياً إلى عبد الناصر قائلاً: «إننا ساخطون جداً من أعمال العملاء الإسرائيليين الرجعيين ومن الإمبرياليين الأمريكيين والبريطانيين. إن مصيرهم الهزيمة المنكرة». وأعلن بيان سوفياتي رسمي «دعماً أكيداً، وثقة كاملة بعدالة النضال العربي ضد الإمبريالية والصهيونية». وكان الشعب المصري الذي يستمع إلى راديو القاهرة قد علم أن جيشهم قد كسح «هجمات الأعداء على كونتيلا وخان يونس، وهو الآن يخترق أراضي العدو». (٣)

تتناقض هذه الظروف مع ظروف إسرائيل، تماماً فخلافاً لغالبية الجنود المصريين، كان الجزء الأكبر من قوة الغزو الإسرائيلي وطائراته قد انشغل في قتال متواصل لأكثر من ٢٤ ساعة؛ لقد أنهكوا، ونقصت ذخيرتهم وقلَّ وقودهم. ومن ناحية سياسية كانت الولايات المتحدة وبريطانيا قد أعلنتا حيادهما في هذا الصراع، أما فرنسا فقد حظرت إرسال مزيد من السلاح إلى إسرائيل. وعلى الرغم من تحسن المعنويات في إسرائيل بعد أن أعلم رابين الجمهور الإسرائيلي أخيراً في نشرة أخبار الساعة الواحد صباحاً بنجاحات جيش الدفاع الإسرائيلي جواً وبراً، فإن ذلك الاعتراف قد زاد من فرص فرض العالم وقف إطلاق النار. واستعداداً لمثل هذا الأمر الطارئ، اعترف رابين بأن ليس أمام إسرائيل إلا احترام قرار الأمم المتحدة. ولو جرى انتهاكه إلى أن يتم تحقيق ا لأهداف الصغرى، خصوصاً في شرم الشيخ.

قال دايان لجنوده. موضحاً: «سنجد الحرب تقترب من نهايتها قبل أن نضع أيدينا على أسبابها». وكانت أوامره إلى رابين الصادرة في الساعة ٧,٤٥ صباحاً مختصرة ودقيقة: «أتمم احتلال غزة. وطهر محور العريش، وتقدم إلى الغرب، ولكن ابق بعيداً عن القناة مسافة أربعة أميال وأعد العدّة للقيام بهجوم باتجاه الجنوب نحو القسيمة».

لقد فكر في إرسال رتل مندلر (Mendler) في سباق من كونتيلا على طول ساحل البحر الأحمر، ولكنه استقر أخيراً على أن يُشَنَّ هجومٌ مشترك من الجو والبحر، ليس أبعد من الليلة التالية، ٧ يونيو. أما فيما يتعلق بالسادس من يونيو، فكان على الجبهة الجنوبية أن تستمر بجلب انتباه إسرائيل الرئيس إذ كرس اليوم كله من أجل إتمام انسحاب المدرعات المصرية». (٤)

ومن سخرية القدر لم يشارك المصريون الإسرائيليين في تقييم الوضع - ذلك لأن ناصر وعامر كانا يائسين من الوضع أكثر مما هو في الحقيقة. فبدلاً من أن تدعو مصر إلى وقف فوري لإطلاق النار، وتركيز الضغط الدولي على إسرائيل، ظلت

القاهرة تدعي انتصارات لقواتها المتقدمة في النقب. وبدلاً من أن تحشد قواتها المتبقية «الكبيرة وتعمل على ترسيخ مواقعها في النهار والقيام بهجوم معاكس في الليل عندما يكون سيف جيش الدفاع الإسرائيلي قد انثلم، فإن القيادات المصرية أمرت قواتها بتراجع شامل غير منظم (كيفيّ).

إن مسألة من هو الذي أصدر الأمر بالتراجع، ستشق المصريين لسنوات عديدة قادمة. فالمدافعون عن عبد الناصر، ومن بينهم حسنين هيكل وأنور السادات، يصرون على أن المبادرة كانت من عامر وحده. وأن الرئيس لم يعلم بذلك إلا متأخراً وقد حاول إلغاء ذلك الأمر. أما المدافعون عن عامر فقد اعترفوا بأنه هو الذي أعطى التعليمات، ولكنهم يؤكدون بأن عبد الناصر قد أحيط بها علماً كاملاً ووافق عليها. وكلا الطرفين وافق على أن تاريخ الأمر يعود إلى الساعة ٥,٠٥ من صباح يوم السادس من يونيو عندما تلقى الجنرال فوزي نسخة من رسالة لا سلكية من عامر توجه الحامية الموجودة في شرم الشيخ للتهيؤ للانسحاب غرباً. وقبيل الظهر بقليل. بدأ المشير يدعو إلى التراجع إلى خط الدفاع الثاني. ولكن في الساعة الخامسة بعد الظهر استدعى رئيس الأركان فوزي، وأعطاه عشرين دقيقة لوضع خطط لانسحاب عام. كان فوزي مقتنعاً أن عامر كان يتصرف من تلقاء نفسه. بيد أن عامر وبدران شهدا فيما بعد أن عبد الناصر شخصياً وافق على الأمر. (٥)

أما فوزي، فقد سحق، في الحالتين. فعلى الرغم من الضربة النفسية التي تلقاها الجيش، كان فوزي يعتقد أن خطة «الفاتح» ما زالت صالحة للتطبيق وأن بالإمكان جر القوات الإسرائيلية المثخنة بجراح اليوم الأول من خط الدفاع المصري الأول، إلى خط الدفاع الثاني في جبل لبني وبير التمادا وسحقها. لم يكن فوزي وحده من هذا الرأي بل وافقه على ذلك كل أعضاء هيئة الأركان عملياً. وفي طليعة صبيحة ذلك اليوم عندما هتف عامر إلى مرتجى، يسأله بصوت مرتجف: «كيف حال قواتنا؟» أجابه قائد جبهة سيناء متفائلاً، ومطمئناً لعامر بأن الخسارة كانت فقط أربعة ألوية من أصل ١٤ لواء، وما زالت ألوية ثلاثة محتفظة بأم قطيف. وكان من المؤكد أن

تتدخل على الفور قوات إضافية - إما قوات سوفياتية أو كما حصل في العام ١٩٥٠ قوات أمم متحدة. وتابع الرد قائلاً: سيدي، إذا ما عززتم المحور الشمالي فإننا نستطيع الاحتفاظ بمواقعنا والصمود إلى أن تأتي القوات الأجنبية لتأمين القناة. لم يساوره شك أبداً في أن عامراً كان يفكر في التراجع.

ومع ذلك، كان قصده التراجع، كما اكتشف فوزي. فوضع بالاشتراك مع رئيس العمليات «القاضي» مسودة خطة لتراجع تدريجي إلى ممري الجدي (Giddi) ومتلا (Mitla)، وللدفاع المركز عن القناة. «كان من المفروض أن يستغرق الانسحاب ثلاثة أيام» كما قال مرتجى. «وكان ينبغي أن تبقى الفرقة الرابعة في المضائق. وفي الليلة التالية تحل محلها الفرقة السادسة، وفي الليلة الثالثة تنسحب الفرقة السادسة ويحل محلها لواء احتياط «بدا أن الاستراتيجية كانت عملية، في ظل الظروف القائمة، ولكن عامراً رفضها فوراً، وصاح فيه قائلاً: «أمرتك أن تنسحب !! انتهى».

لم يعد بحاجة إلى انتظار خطة مكتوبة، فهتف لأتباعه في سيناء: تأكد أن جميع الطائرات المتبقية كانت بحلول الساعة ١٣,٠٠ جاهزة وبالانتظار، «وأصدر تعليماته إلى صدقي محمود: «ليس أمامك سوى مهمة واحدة هي تقديم غطاء جوي للفرقة الرابعة حتى تصل إلى غرب القناة» ونصح أتباعه الآخرين بالجلاء بأية وسيلة وبأسرع ما يستطيعون. فالميجر جنرال عثمان ناصر، قائد فرقة المشاة الثالثة عشر، مثلاً، أخبر ضباطه بأن لديه اجتماعاً مستعجلاً في مقر القيادة، وحزم أمتعته، وانصرف. وشوهد فيما بعد يتردد على المقاهي في القاهرة، أما بقية الضباط فقد علموا بالأمر عن طريق الإشاعة. فقد كانت الخطوط المباشرة بينهم وبين مقر قيادة فوزي قد قطعت قبل الحرب بتعليمات واضحة عن عامر.

علل عامر، فيما بعد، قراره بانهيار القوة الجوية المصرية وسقوط خط الدفاع الأول، قائلاً: «كان الانسحاب هو الوسيلة الوحيدة لمنع تدمير الجيش بأكمله وأسره». ولكن نتائج الأمر تظهر تماماً في صورة جيش هائل استغرق تجميعه وحشده أربعاً وعشرين يوماً، أمر أن يتراجع في غضون ساعات.

يقول محمد أحمد خميس ضابط اتصالات في الفرقة الرابعة، مستذكراً: «دعانا قائد الكتيبة وأخبرنا بأن علينا أن ننسحب. كان ذلك الأمر مفاجئاً لنا تماماً. إذ كانت معنويات جنودي عالية، وهم يستعدون لشن الهجوم - كيف أواجههم؟ «فطلب من رجاله أن يتحركوا ليلاً دون أن يخبرهم شيئاً. ولدى بزوغ الفجر، نظر سائقي من نافذة السيارة فرأى القناة، فصاح مستهجناً: «تراجعنا!! تراجعنا!!» وأخذ يصرخ ويبكي دهشة وخوفاً». أما الوحدات الأخرى فكانت أقل حظاً. إذ أصبحت آلاف المركبات وعشرات الآلاف من الرجال والعديد من المصريين المحتشدين على الطرق فريسة سهلة للطائرات النفاثة الإسرائيلية التي تجوب الأجواء؛ لأن الغطاء الجوي الذي أمر به عامر لم يتحقق أبداً. (٦)

وأخيراً تُرجمت العلاقة المعقدة والملغزة بين عبد الناصر وعبد الحكيم عامر إلى فوضى في الميدان. فقد لطخ شرفهما، بلا شك، بخسارة سلاح الجو وغزة وشمال سيناء، ولم يكن لدى أي من الرجلين الرغبة أو الحضور الذهني ليحد من الخسائر، ولم يكن لدى أي منهما المهارة اللازمة لتنفيذ تراجع منظم، الذي يعد من أصعب المناورات العسكرية. ربما كانا يعتقدان أن أسطورة العام ١٩٥٦ المنقذة لماء الوجه، ستتكرر، وأن التراجع يمكن أن يحول إلى مناورة تكتيكية استدعاها التحيّز الإمبريالي الشامل. وربما كان يراودهما أمل أن نكسة السلاح السوفياتي الدرامية ستجبر الروسي على التدخل. ومع ذلك. أصبح السؤال: «لماذا أُصدر الأمر ومن أصدره: ناصر أم عامر؟» موضع نقاش. كان الجيش المصري يركض.

لقد ذهل الكولونيل أفراهام برين (Avraham Bren) الذي يلي يوني في القيادة والمحارب المحنك في حملتي سيناء السابقتين عندما شاهد من بير لهفان ذلك الهروب. فقد قال لمحققي جيش الدفاع الذين يستخلصون المعلومات بعد الحرب: «إنك تمر بمركبات محترقة، ثم فجأة ترى هذا الجيش الضخم، الذي لا يحصى، ينتشر فوق مساحة واسعة على مد النظر. لم يكن شعوراً مفرحاً، أن ترى ذلك العدو العملاق ثم تدرك أنك مجرد كتيبة من الدبابات». ولم يكن دايان الذي كان يتابع

مسار الحرب من غرفة العمليات بأقل حيرة ودهشة. «فرغم أن إسرائيل قد سيطرت على الجو، فإن مدن مصر لم تقصف، وأن الوحدات المدرعة المصرية في الجبهة كانت قادرة على القتال حتى دون دعم جوي. (٧)

قال رئيس المخابرات باريف في تقريره إلى رئيس هيئة الأركان الذي قدمه ذلك المساء، كاشفاً التحول الراديكالي الذي حدث في سيناء: «يقول طيارونا: إن الجيش المصري في حالة سيئة، يتراجع بأعداد هائلة على الطرق التي أغلقت جزئياً بضرباتنا الجوية». وأكد حاييم بارليف على ضرورة الاستمرار بتدمير الجيش المصري. ولكن جيش العدو كان أسرع في هروبه من إدراكنا له، فكيف حصل ذلك؟.

قال الجنرال يوني: «لم يكن هناك تخطيط قبل الحرب حول ماذا سيفعل الجيش بعد محور العريش - جبل لبني، حتى إنه لم يبحث أبداً، فلم يكن أحد يصدق أن بإمكاننا أن ننجز أكثر أو أ ن الجيش المصري سينهار بهذه السرعة. لم يكن أحد يصدق أننا سنقاتل أربعة أيام بصور متقطعة- كنا نفكر بعملية جراحية». أما أسئلة: أين سنقود الجيش، وإلى أي مدى، وإلى أية أهداف، فقد طرحها شايكي غافيش (Shaike Gavish) عند الغسق عندما جمع قادة أوغداه الثلاثة - شارون، وتل، يوفي - في جبل لبني.

كانت استراتيجية غافيش تقوم على منع المصريين من تعزيز خطهم الدفاعي الثاني وشن هجوم معاكس محتمل على العريش، كان يريد ضربهم بقسوة وهزيمتهم إلى الممرات محطماً ما تبقى لديهم من دبابات. ووفقاً لذلك، كان على قوات تل أن تهيمن على مواقع المصريين إلى الغرب من جبل لبني، وتهاجم الفرقة المصرية الثالثة شرق بير التمادا، والفرقة الرابعة في بير جفجافة. ويقوم يوفي، بعد أن يضرب جنوباً عبر بير حسانا (Bir Hasana)، وبقايا الفرقة الثالثة، يقسم قوته إلى رتلين يتوجه أحدهما إلى ممر الجدي، ويتوجه الآخر إلى ممر متلا. وفي أقصى الجنوب يقوم شارون بمنع تقهقر الشاذلي عند نخل (Nakhl) قبل دفع بقية الجيش المصري

إلى كمائن تل ويوفي. ويقوم رتل الكولونيل غرانيت (Granit) في هذه الأثناء بمتابعة التقدم على طول ساحل البحر المتوسط عبر رُمّاني (Romani) في طريقه إلى القنطرة (Qantara). ولكن دون احتلال القناة ذاتها، على الأقل في ذلك الوقت، لأسباب سياسية. قال يوفي: «ما إن أصدر إلينا غافيش الأوامر حتى توضَّح لنا مسار ما تبقى من الحرب. ومع أن بعض الانعطافات غير المتوقعة ربما تحصل - فإنه كان على الفرقة الرابعة أن تنتظرنا، أو أسوأ من ذلك - كنا في عملية ملاحقة. لقد حسمت المعركة فعلاً». (٨)

يبدو أن القادة المصريين قد اتفقوا، على الأقل بشأن النضال العسكري. إذ تحول اهتمام مصر مع بدء التراجع، عن الدبابات والمدافع إلى الدعاية السياسية، وخصوصاً إلى اتهام الولايات المتحدة وبريطانيا بالتدخل لصالح إسرائيل. وهنا، على الأقل، كان التنسيق بين ناصر وعامر كاملاً، فكلاهما اتصل بالسفير السوفياتي بوجيدايف مستخدمين ادعاء التواطؤ كوسيلة لتأمين دعم سوفياتي مباشر. ولدى فشل عامر في تقديم الدليل على قيام الولايات المتحدة وبريطانيا بهجمات على مصر، اتهم الاتحاد السوفياتي بأنه زود مصر بأسلحة سيئة. فأجابه بوجيدايف: «أنا لست خبيراً بالأسلحة. ولكني أعرف أن الأسلحة التي أعطيناها إلى الفيتناميين قد أثبتت تفوقاً على الأسلحة الأمريكية». أما ناصر فلم يفسح المجال كثيراً للجدال. إذ أملى ببساطة، رسالة مباشرة إلى كوسيغن يخبره بأن الأسطول السادس والقواعد الأمريكية في المنطقة كانت تساعد الإسرائيليين بنشاط. والآن سيجني اليهود نصراً عظيماً ما لم تقدم موسكو عوناً مماثلاً إلى مصر التي هي بحاجة ماسة إلى الطائرات. (٩)

تعاظمت هذه الأسطورة ككرة الثلج مع مرور اليوم حتى وصلت جميع أنحاء العالم العربي. أعلن راديو دمشق: «أن القاذفات البريطانية تنطلق بموجات متواصلة لا نهاية لها من قبرص لمساعدة الإسرائيليين وتزويدهم بالمعدات. وأن قاذفات كانبيرا (Canberra) تقوم بقصف مواقعنا المتقدمة». وادعى راديو عمان أن ثلاثة حاملات طائرات أمريكية تعمل قبالة ساحل إسرائيل. وذكرت التقارير أن سفناً حربية

أمريكية شوهدت قبالة بور سعيد، وفي ميناء حيفا، وتغلق مدخل القناة. وقالت مصادر أخرى أن إسرائيليين يقودون طائرات أمريكية مزوَّدين بخرائط لمصر من الـ CIA، وأن طيارين أمريكيين يطيرون بأسماء إسرائيلية. واعترف طيارون إسرائيليون وقعوا في الأسر بالتعاون مع الولايات المتحدة. لا يمكن لإسرائيل التي هاجمت مصر بألف ومئتي (١٢٠٠) طائرة أن تحارب وحدها - هكذا كان النقاش يدور. وفي بيان وزّع على نطاق واسع، دعا عبد الناصر الجماهير العربية إلى تدمير جميع المصالح الإمبريالية».

وفي غضون ساعات من إذاعة هذا البيان، كانت الجماهير تهاجم السفارات والقنصليات الأمريكية في جميع أنحاء الشرق الأوسط. في بغداد والبصرة، وحلب، والإسكندرية، والجزائر، حتى في المدن المتجانسة مثل تونس وبنغازي، حصر الدبلوماسيون الأمريكيون أنفسهم في مقراتهم واستعدوا لما هو أسوأ. أغلقت جميع المنشآت في العراق وليبيا، وحظرت الكويت، والبحرين والعربية السعودية شحن النفط إلى الولايات المتحدة وبريطانيا. قال راديو الجزائر: «أمريكا الآن هي العدو رقم (١) للعرب، ويجب إنهاء الوجود الأمريكي في الوطن العربي». منح الأمريكيون في مصر، وكان كثير منهم من المقيمين منذ مدة طويلة فيها، دقائق ليحزموا أمتعتهم ويرحلوا، ثم فتشوا بفوهات البنادق، ثم رحلوا دون إبطاء، كتب توماس تومبسون (Thomas Thompson) مراسل صحيفة لايف (Life) الذي كان من بين المبعدين، يقول: هكذا شعر الناس وهم في طريقهم إلى أوشويتز (Auschwitz) «شاهدت ريتشارد نولت (Rishard Nolte) في القاهرة جمهوراً غاضباً خارج مكتبه، فأبرق قائلاً: إننا نحترق جميعاً -وكرر كلمة «جميعاً»- أعدوا الصحف وهيؤوا المظاهرة لمحاولة دخول المبنى» ومع ذلك، في ذروة هذا التوتر استدعي نولتي إلى وزارة الخارجية المصرية، وأوصل إليها تحت الحراسة، ليحاط علماً هناك بحقائق التآمر الأنكلو - أمريكي مع إسرائيل.

قال له محمود رياض شاجباً بعنف: «تقولون إنكم ضد العدوان، ولكن عندما تعتدي إسرائيل ضد مصر لا تفعلون شيئاً. تقولون: إنكم لا تعرفون من هو المعتدي. إن المعتدي معروف بوضوح تام، وهنا في القاهرة تسعون أو على الأقل ثمانون سفيراً يعرفون هذه الحقيقة».

وكان جواب السفير الوحيد هو التأكيد على التعاطف الدولي الذي تستطيع مصر جنيه إذا ما قبلت قرار وقف إطلاق النار، الأمر الذي يمكن أن يجعل العالم يصف إسرائيل بأنها معتدية. ويمكن أن يأتي محيي الدين إلى واشنطن كما كان مخططاً؛ عندها يمكن إيجاد حل لمسألة المضائق، ولكن كلماته لم تنجح في إحداث أي انطباع لدى وزير الخارجية الذي تابع كلامه بالمزاج نفسه: «لو كانت مصر هي المعتدية لكان الأسطول السادس الآن على شواطئها». (١٠)

ورغم قناعة رياض بأن لأمريكا يد في الهجوم الإسرائيلي، فقد عارض قطع العلاقات مع واشنطن، تلك العلاقات التي يمكن لمصر أن تدير بفضلها مفاوضات ما بعد الحرب. بيد أن عبد الناصر لم يوافق على هذه الفكرة. إذ استدعى هيئة السفارة المصرية من واشنطن وأعلن قطع جميع العلاقات مع الولايات المتحدة. تبعه في قطع العلاقات مع واشنطن ست دول عربية، هي: سوريا والسودان والجزائر وموريتانيا واليمن، كما حظرت عشر دول عربية منتجة للنفط تصدير النفط إلى الولايات المتحدة وبريطانيا. وفي دمشق أنذر السفير سميث (Smythe) بمغادرة البلاد خلال ثمان وأربعين ساعة، وحددت إقامته في منزله حتى ذلك الحين. وكتب فولتي: «وهكذا انتهت مهمتي النيزكية إلى القاهرة».

من الناحية السياسية، على الأقل، نجح عبد الناصر، حيث فشل عسكرياً في حشد العالم العربي حول زعامته. ومع ذلك ظل ذلك النصر ناقصاً طالما أن دولة عربية واحدة، هي الأردن، لم تحذ حذوه. إن الحسين الذي اتهم سابقاً بأنه أداة استعمارية، قد أصبح عند عبد الناصر: أخانا الوطني البطل، الملك الصغير الشجاع» (١١) إن إدراج الملك حسين في تهمة التواطؤ الأنكلو - أمريكي ربما يؤدي إلى مضاعفات قوية في المنطقة، خصوصاً بين حلفاء الغرب من العرب؛ لذلك كان عبد الناصر بحاجة إلى تعاون الحسين، ولكن الحسين كانت له همومه الخاصة.

مكان حفظ الجثث:

كتب الحسين في مذكراته: كانت تلك الليلة جهنَّماً. كانت مضيئة كالنهار. السماء والأرض تتوهجان بأضواء الصواريخ وانفجارات القنابل المستمرة المنهمرة من الطائرات الإسرائيلية. «وكان الملك يروح ويغدو تحت جنح الظلام بين مقر قيادته في عمان ومواقعه التي ما زالت آمنة في الجبهة. وكانت الجبهة تتهاوى باضطراد.

في جنين، حيث كان مشاة الكولونيل خالدي، ودبابات عجلوني الثلاث المتبقية لديه يصدون قوات إسرائيلية متفوقة عليهما تفوقاً كبيراً كانت تتقدم من الشمال والجنوب، وصلت نجدة غير متوقعة في الساعة الرابعة صباحاً مؤلفة من كتيبتين من اللواء المدرع الأربعين. عززت هذه الكتيبة المدرعة الرابعة التي أفلحت في التسلل دون أن يلحظها الإسرائيليون، في حين صدت الكتيبة الثانية الإسرائيلين عن عرابه (Arabe) شرقاً. ولدى سماع صيحات «قاتلوا في سبيل الله» فتحت دبابات البريغادير الغازي (al-Ghazi) نيران مدافعها. كما انضمت إلى القتال كتيبة مؤللة جهزها الأمير عبد الله بناقلات أفراد مدرعة من طراز ١١٣. فأخذت المركبات الإسرائيلية تنفجر لهباً الواحدة تلو الأخرى. وبدأ المد يتحول. ويتذكر موسى باركوخفا، قائد اللواء الإسرائيلي، قائلاً: «تركنا العدو حتى أصبحنا على مدى قريب منه ثم اندفع يقاتلنا بشجاعة وعناد» كان الغازي يفكر في التحول من استراتيجية الدفاع إلى استراتيجية الهجوم، بفضل تماسك ما تبقى من دبابات اللواء الأربعين من طراز باتون لدحر الإسرائيليين عبر الحدود.

ثم أشرقت الشمس، وأصبح الأردنيون مكشوفين للسماء. فشرعت النفاثات والمدفعية الإسرائيلية تصب حممها على رجال «الغازي» لمدة ساعتين متواصلتين، فقتلت عشرة رجال وجرحت ٢٥٠ ترك الكثير منهم في ساحة الوغى. لم يبق سوى سبع دبابات -اثنتان منها دون وقود- وست عشرة ناقلة جنود مصفحة، أخذت طريقها ببطء شرقاً إلى طوباس، ومن ثم جنوباً باتجاه نابلس. وفي هذه الأثناء شقت

قوات باركوخاف المدرعة، مع مشاة أفنون، طريقها إلى قلب مدينة جنين. كانت المقاومة شرسة وعنيدة. خصوصاً حول قلعة الشرطة حيث جرح باركوخاف نفسه. ولم يستطع الإسرائيليون ادعاء السيطرة الوظيفية على المدينة التي هي المفتاح إلى شمال الضفة الغربية، إلا بعد أن حان وقت الظهر. (١٢)

وكان الأردنيون يخسرون المعركة على مسرح القدس أيضاً، في التلال الواقعة غربي المدينة، وعلى الرغم من أن رتل هاريل قد واجه مقاومة قوية خارج بيدو (Bidu) -قتل إسرائيليان وعشرون من جنود الفيلق العربي- وأن رتلاً آخر قد فقد معظم آلياته النصف المجنزرة بسبب جلاميد الصخر. استطاعت خمس دبابات شيرمان الوصول إلى النبي صموئيل (Nabi Samwil) في الساعة ٢,٥٥ صباحاً. وكان هناك بانتظارهم فصيل من دبابات باتون الأردنية التي دمرت بعد معركة دامت ١٥ دقيقة وخزانات وقودها الخارجية مشتعلة. أصبحت الطريق الآن مفتوحة إلى بيت حانينا، ضاحية القدس الشرقية الواقعة على بعد ٥٠٠ متر عن الطريق العام بين رام الله والقدس (١٣) أصبح جبل المكبر آمناً عملياً الآن.

لم يستطع الجنرال ناركيس، على أية حال، تصديق ذلك. إذ كان مقتنعاً بأن اللواء الستين ما زال يشكل تهديداً وشيكاً للقدس اليهودية - فقد سمع جنود موجودون على جبل المكبر الدبابات وهي تقترب - وطالبوا القيام بضربات جوية إضافية. لم يوافق بارليف (Bar-lev) على الطلب في البداية بدعوى أن الطيارين الإسرائيليين مرهقون بعد أن قاموا بخمس مهمات في أقل من أربع وعشرين ساعة، لكن ناركيس لا يُرد له طلب. إذ قال: إنَّ القدس ستضيع دون دعم جوي - منهكون أو غير منهكين، لا بد وأن يدمروا تلك المدرعات». حتى بعد أن أنزل جيش الدفاع الإسرائيلي الدمار في دبابات البريغادير بن شاكر، ظل رئيس القيادة الوسطى متشككاً، فرفض، لعدم تأكده من عدد الدبابات المتبقية أن يغامر بمصير جبل المكبر، إذ يمكن إنقاذ الحامية على يد المظليين، كما هو مخطط.

مما كان يعيق ذلك الجهد، عدد من أقوى تحصينات في القدس مؤلفة من عُقد من الخنادق، والمعاقل، والألغام، وعوائق الإسمنت المسلح، المعروفة منذ الحرب العالمية الأولى عندما خزن فيها الجنرال اللنبي معداته الحربية، باسم تلة الذخيرة (Ammunition Hill). كان الإسرائيليون ينظرون إلى هذه الحامية كتهديد مباشر لجبل المكبر والنصف الغربي من المدينة. في حين كانت في نظر الأردنيين تمثل خط الدفاع الأول ضد أي هجوم إسرائيلي على الشرق. وكان الجنود الإسرائيليون والأردنيون على طرفي ذلك الخط يتعرضون لقصف مستمر لعدة ساعات. ومع ذلك ظلت معنوياتهم عالية بصورة متكافئة ولم تنقطع عنهم الإمدادات. كان المشهد مهيأ لمعركة طاحنة عندما تحرك مظليو موناغور بهدوء إلى مواقعهم في الساعة ١,٢٥ صباحاً.

على رجال غور أن ينقسموا إلى ثلاث قوى. تقوم القوة الأولى باختراق الأرض المنزوعة السلاح قرب بوابة مندلبوم، ونقطة التفتيش التابعة للأمم المتحدة بين قطاعي المدينة، ومهاجمة أكاديمية الشرطة التي تحرس المشارف الجنوبية لتلة الذخيرة. وتقوم القوة الثانية بالتوجه نحو الشرق عبر الشيخ جراح والمستعمرة الألمانية المجاورتين من أجل الوصول إلى متحف روكفلر (Rockefeller). في حين تقوم القوة الثالثة باتباع وادي الجوز (Wadi Joz) صعوداً إلى مشفى أوغستا فيكتوريا (Augusta Victoria) على الهضبة في منتصف الطريق إلى جبل المكبر وجبل الزيتون. وكان الأمل يراود إسرائيل أنها بانتهاء هذه المعركة لصالحها، لن تتحرر فحسب من أي تهديد أردني بل ستصبح في وضع يؤهلها دخول المدينة القديمة. قال ناركيس للمظليين قبل بدء الهجوم: «القدس ليست كالعريش. فليكن لدينا أمل الآن في التكفير عن خطيئة الـ ٤٨». (١٤)

في الساعة ٢,١٠ صباحاً، أضيئت سماء القدس ثانية، بنيران المدفعية والدبابات والهاونات الإسرائيلية هذه المرّة، لإضعاف خط العدو، ووضعت أنوار كشافة قوية على ظهر مبنى اتحاد العمال -أعلى نقطة في القدس الغربية- فكشفت الأردنيين وأعمت أبصارهم عملياً. هكذا أعلن: زحفت الكتيبة ٦٦ بقيادة الميجر يوسف يوسي يوفي

(Yosef Yossi Yoffe) المزارع في الحياة المدنية، والمقاتل المحنك في غارات الانتقام في خمسينيات القرن العشرين، إلى الخط الأول من الأسلاك الشائكة وشقت طريقها عبره. وكان خلف ذلك الصف خط آخر، وبعده أربعة خطوط. لم يظهر أي منها في خرائط جيش الدفاع الإسرائيلي، حُصر المهاجمون في أرض منزوعة السلاح بين نيران متقاطعة من جهات مختلفة تحت ضوء القمر البازغ. قال أريك أخمون (Arik Akhmon) ضابط المخابرات المظلي متذكراً: «شققنا طريقنا عبر حقل ألغام إثر حقل، وسياج إثر سياج، وزمرة إثر زمرة، وما زالت أصعب المعارك لم تبدأ بعد. فأمامنا تلة الذخيرة» قتل سبعة إسرائيليين وجرح أكثر من ١٢ قبل قطع آخر الأسلاك. ولم يتلق غور الخائف من طلوع الفجر، إشارة بأن رجال يوفي قد اخترقوا أكاديمية الشرطة إلا في الساعة ٣,١٠ فأجاب غور: «أقبّلك».

كان الإسرائيليون يعتقدون أن مبنى أكاديمية الشرطة الذي أشيد في عهد الانتداب البريطاني ثم سلم إلى الأمم المتحدة، يؤوى القيادة الرئيسية لعطا علي (Ata Ali). لذلك كان الدفاع عنه شديداً. والواقع أنه لم يكن في المنطقة سوى فصيل واحد مؤلف من ١٤٠ رجلاً، وكتيبة الحسين الثانية بقيادة سليمان صلايته. استطاع المهندسون الإسرائيليون بتغطية من نيران دبابتين شيرمان استعيرتا من لواء القدس، أن يطهروا ممراً للوحدات المهاجمة التي دمرت في غضون الساعتين التاليتين حوالي ٣٤ معقلاً ووكراً من أوكار الرشاشات. ما زال الأردنيون يقاتلون ويوقفون الحملة الإسرائيلية على بعد ١٥ متراً فقط عن موقع صلايته. وبعد أن قتل ١٧ جندياً وجرح ٤٢ أمر الكابتن مدفعيته بقصف مواقعه هو، فانكفأ من زال قادراً من رجاله إلى تلة الذخيرة المجاورة.

تبين أن معركة الاستيلاء على أكاديمية الشرطة كانت باهظة الثمن للإسرائيليين إذ لم يبق سوى فصيل واحد ملائم لمزيد من القتال. ومع ذلك وصلت تعزيزات، وتقدم المظليون إلى تلة الذخيرة وهاجموها من جهات ثلاث: الغرب والشرق والوسط.

خريطة: معركة الاستيلاء على القدس

٥ حزيران (يونيو) -٧ حزيران (يونيو)

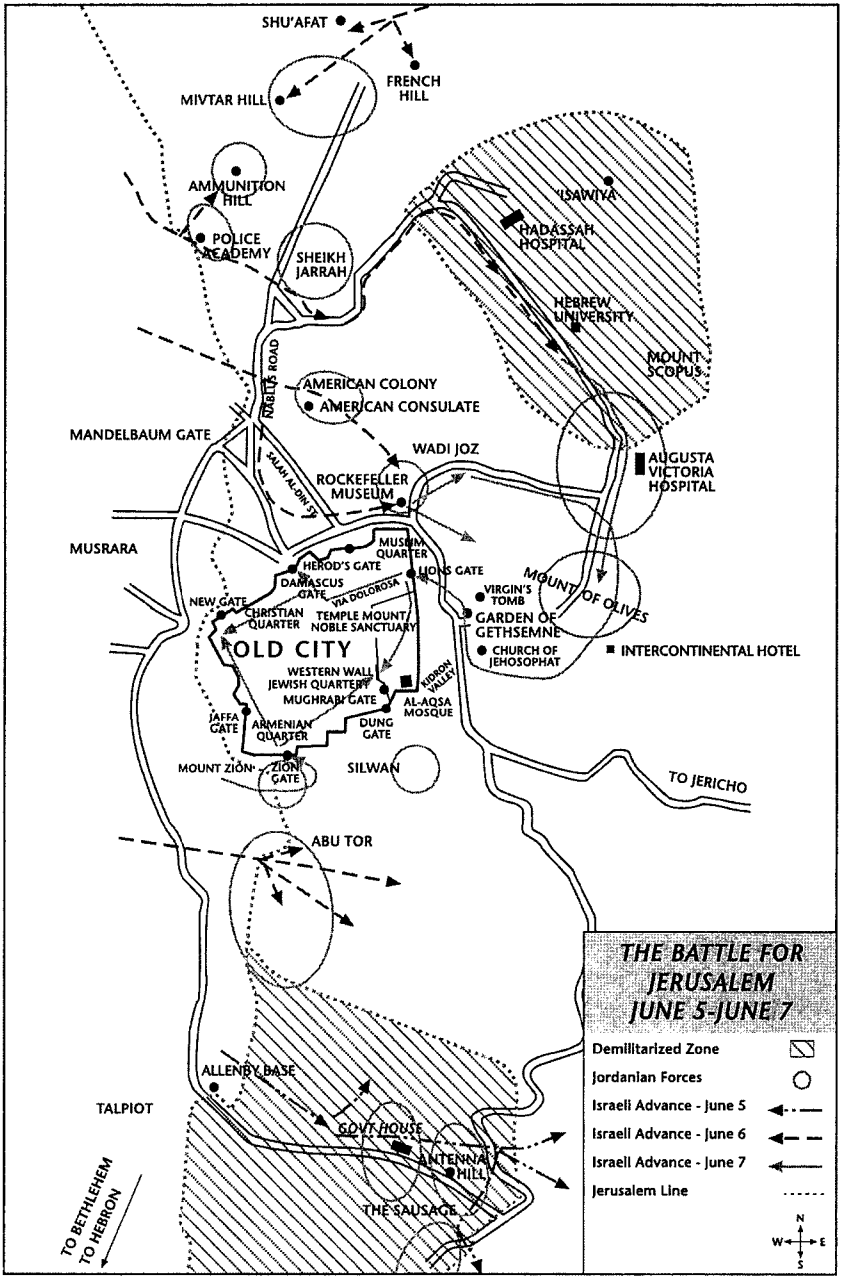

بعث الجندي (نفر) فرحان هامان بتقرير إلى الميجر منصور كرانشور (Kranshur) المسؤول عن دفاعات تلة الذخيرة، يقول فيه: «سيدي، نجح العدو في اختراق المنطقة إلى اليسار من أكاديمية الشرطة. هناك رتل دبابات وسريتا مشاة. يقول قائد الزمرة: إنه ما زال يسيطر على بعض المواقع ، لكنه يطلب دعماً من المدفعية».

بيد أن القصف المدفعي لم يجد في إيقاف الإسرائيليين القادمين، كما لم تصل تعزيزات من أكادمية الشرطة. وجرح أردني واحد فقط. مازال المدافعون يحبطون الهجوم بإلقاء قنابل يدوية، وبصليات من الرشاشت، وبصيحات «الله أكبر».

كادت الفصائل الإسرائيلية أن تباد. دُمّرت واحدة من دبابات شيرمان الثلاث، والدبابتان الأخريان لم تتمكنا من خفض سمت مدافعهما لقصف المواقع الأردنية الخفية. واضطر المظليون إلى التقدم على أرض مكشوفة دون غطاء، بسبب عجزهم عن استدعاء دعم من المدفعية دون تعريض أنفسهم للخطر؛ ولأن متاعهم المحمول أعرض من الخنادق بحيث لم يتمكنوا من المناورة عبر خنادق العدو، فكانوا يتساقطون الواحد تلو الآخر. وأطلق النار عليهم ليس من تلة الذخيرة فقط، بل أيضاً من مما يسميه الإسرائيليون «تلة مفتار (Mivtar Hill) إحدى الحصون الأردنية عبر واد يقع إلى الغرب. قال يوحنان ميللر (Yohanan Miller) أحد المتمرسين في المعركة: «لم تكن خسائرنا نتيجة اشتباك المقاتلين (بالسلاح الأبيض)، بل نتيجة القنابل اليدوية والنيران الآتية من مواقع بعيدة». وسرعان ما كان الضباط كما وصف أحد المتمرسين اسمه يوحنان ميللر، أن الضباط الإسرائيليين قد أصيبوا جميعاً تقريباً، وتبعثرت وحداتهم. ومع ذلك تابعت بعض المجموعات الهجومية الضعيفة تقدمها عبر الخنادق المفعمة بالجثث. ووصلوا مع خيوط الفجر االأولى الساعة ٤,٣٠ إلى معقل كرانشور(Kranshur).

اتصل الميجر لاسلكياً بعطا علي قائلاً: «المعركة الآن بالسلاح الأبيض والذخيرة تتناقص. ربما لا تسمع مني بعد هذا أية كلمة، ولكن ربما تسمع عني وعن رجالي». فأجابه عطا علي: «أطال الله عمرك، يا صديقي»، ووافق على طلب كرانشور لقصف

المنطقة كلها بالمدفعية. وعلى الرغم من أن كرانشو قد أصيب في ساقه، فقد استغل الهجوم المضلِّل ليجمع جنوده الناجين ويهرب بهم من آخر ثغرة مفتوحة، شمالاً إلى هضبة شعفاط. وقام المهندسون الإسرائيليون من بعده بنسف معقله باستخدام ٢١ رطلاً من مادة TNT. انتهت معركة الاستيلاء على تلة الذخيرة التي تعد من أكثر المعارك دموية في التاريخ العربي-الإسرائيلي بحلول الساعة ٥,١٥ صباحاً. قتل ٧١ جندياً أردنياً، وجرح ٦٤ معظمهم بجروح خطيرة. وقتل ٣٥ إسرائيلياً، أي ربع قوة يوفي، كذلك. (١٥)

في حين بدأ رجال يوفي باحتلال تل الذخيرة، قامت فصائل المظليين المتبقية من اللواء بعبور خط المدينة. قصفت الكتيبة ٢٨ بقيادة يوسي فرادكين (Yossi Fradkin) بقذائف هاونات عيار٨١ مم، أثناء انتظارها إشارة البدء في التقدم، فقتل وجرح منها ٦٤ فرداً. ورغم أن هذه الكتيبة قد أعيقت كثيراً بسبب نقص في الرجال والعتاد، فإنها نجحت في شق طريقها عبر الأرض المنزوعة السلاح إلى المستعمرة الأمريكية في القدس الشرقية. ومن هناك، كان على المظليين - حسب الخطة المرسومة - أن يتحركوا نحو المدينة القديمة عبر شارع صلاح الدين ذي الدفاعات الضعيفة.

ورغم أن فرادكين متمرس جداً في القتال في أثناء حربي ١٩٤٨، و١٩٥٦، فهو لم يقاتل أبداً في القدس، قال لزملائه الضباط بعد الحرب: «لم يكن الضباط يعرفون ما هو متوقع منهم. لم يكونوا يعرفون أين نحن ذاهبون بهم. ولم يكونوا يعرفون المكان». فبدلاً من أن يتجه إلى شارع صلاح الدين، اتجه خطأ إلى شارع نابلس حيث كان الأردنيون في انتظاره بقوتهم. ولدى اكتشاف تقدم الإسرائيليين من تلة الذخيرة، اتصل الميجر كرانشور بالكابتن نبي سحيمات (Nabi Shkhimat) قائد قطاع طريق نابلس وقال له محذراً: «دبابات العدو تتقدم باتجاهك. فاستعد لتقاتل على جبهة كبيرة من بيت إلى بيت، حتى آخر رجل، وآخر طلقة».

استعد سحيمات (Shkhimat) وعزز طواقم البازوكا والمدافع المضادة للدرع في المعاقل ثلاثية الطبقات المواجهة لطريق نابلس. تخبَّط الإسرائيليون في دوامة مضطربة. أطلقت الدبابات ميزاتها مسددة مباشرة وعن مسافة قريبة على الشارع

موجة إثر موجة من المظليين، ولكن الأردنيين صمدوا في مواقعهم. قال محمود أبو فارس قائد إحدى السرايا في كتيبة الحسيني الثانية واصفاً مهاجميه: «كنا نقاتل عن إيمان وليس تنفيذاً لأوامر». وقال: إن أحد الضباط الإسرائيليين حاول الإمساك به ولكن أبا فارس قطع أذنه ثم قتله بمسدسه. وبرغم شدة المقاومة الأردنية وصلابتها، أخذت تتضاءل أمام القوة النارية والزخم الإسرائيلي. قال قائد إحدى الزمر، غازي إسماعيل رباعية (Ruba'iyya) متذكراً كيف حاول أن يرفع من معنويات رجاله الخمسة المتبقين: «ولكني فشلت ونظرت في وجوههم فرأيت ما يراه الجندي قبل الموت». اتصل لاسلكياً بقيادة الفصيل ولكنه لم يتلق جواباً. كان سحيمات (Shkhimat) قد أمر رجاله بالانسحاب إلى مصراره (Muyrara) المتاخمة للمدينة القديمة، تاركاً ٤٥ قتيلاً و١٤٢ جريحاً.

لم يكن المشهد أقل جهنمية بالنسبة للإسرائيليين. قال ييغال نير (Yigal Nir) أحد المظليين جازماً: «لقد تحول الشارع فجأة إلى مسلخ؛ إذ أصيب كل من حولي في ثوان. ولما لم أكن خائفاً من قبل، كان ذلك التحول مروّعاً؛ وفجأة شعرت بالخذلان واليأس.» لم يقطع مسافة الـ٦٠٠ متر من القنصلية الأمريكية إلى الـYMCA (جمعية الشبان المسيحيين) سوى ثلاثين رجلاً -أي نصف القوة الأصلية- وأطلقوا على هذا الزقاق اسم «زقاق الموت».

كانت الكتيبة الـ٧١ أكثر حظاً من غيرها، إذ نجحت في فتح ثغرة في الأسلاك واختراق حقول الألغام، والوصول إلى مقربة من وادي الجوز عند أسفل جبل المكبر. كان قائد هذه الكتيبة الميجر عوزي إيلام (Eilam Uzi)، المهندس المدرب في شيكاغو والمتمرس في غارات الانتقام، قد شعر بخيبة الأمل عندما نقلت وحدته من سيناء. قال بعد الحرب: «عندما قالوا لنا بأننا ذاهبون إلى القدس، شعرت بخيبة أمل عميقة. من الواضح أننا لن ننزل بالمظلات هناك، بل سوف نحرس الحدود فقط... وبعدئذ عندما ابتدأ القصف... تأكدنا أن الأمر خطير جداً. وأن حرباً ستنشب هناك».

استطاع الإسرائيليون، من وادي الجوز، أن يعزلوا المدينة القديمة عن أريحا وأن يعزلوا القدس الشرقية عن رام الله. كما قصفت مدفعية جيش الدفاع الإسرائيلي بصورة مباشرة ومركزة الطريق الوحيد المتبقي إلى الضفة الغربية شرقاً عبر ضاحية العازرية (al-Azariya)؛ وردع القصف الإسرائيلي كذلك الأردنيين عن القيام بهجوم معاكس ضد إيلام (Eilam) من مواقعهم حول أوغستا فيكتوريا (Augusta VICTORIA) التي مازالت مخيفة. جازفت زمرة من الفصيل الثامن والعشرين بالتوجه نحو متحف روكفلر للآثار، الواقع على الزاوية الشمالية الغربية من المدينة القديمة كقلعة متألقة، واحتلته في الساعة ٧,٢٧ صباحاً بعد مناوشات قصيرة.

اعتقد غور أن هذا الموقع كان مثالياً لقفزة هجومية نهائية على المدينة القديمة، تنفذ من خلال بوابة هيرود (الزهور-Hearod). نقل قائد المظليين مقر قيادته مع ثلاثة علماء آثار إسرائيليين حريصيين على الدفاع عن الآثار الموجودة في المتحف، إلى روكفللر. فتبين له أن المنطقة مازالت تحت سيطرة القناصة الأردنيين، وأن لواءه كان يستنفد بصورة خطيرة. ومع ذلك طلب السماح من ناركيس كي يخترق البوابة على الفور. فجاء الجواب سلبياً؛ لأن مجلس الوزراء لم يتخذ بعد قراراً بشأن القدس. فقال غور الغاضب جداً، متجاهلاً الحكومة: «إذا ما أطعت الأوامر بعدم دخول المدينة القديمة، ألا تكون الثمرة أسفاً يتوارثه الأجيال وعاراً على جيش الدفاع الإسرائيلي الذي كان ينظم صفوفه خارج الأسوار؟» ولكن ناركيس نجح في تهدئته قائلاً: «إن هدفنا هو إحاطة المدينة أساساً للاستيلاء عليها». وكان على المظليين أن يعيدوا تجميع أنفسهم في روكفللر ويستعدوا للاستيلاء على هضبة أوغستا فيكتوريا بعد ظهر ذلك اليوم. (١٦)

في حين استقر رجال غور في روكفللر، قام يوري بن أري واللواء العاشر بالاندفاع إلى طريق رام الله-القدس. وخاضت دبابات شيرمان الإسرائيلية، معركة ضارية في تلال الفول (Telal-Ful)، وهي هضبة صغيرة مدوّرة كان الملك حسين قد بدأ بإنشاء أحدث مقصورة عليها، ضد ثلاثين دبابة باتون أردنية بقيادة الكابتن ديب سليمان،

والكابتن عوض سعود عيد. نجح الأردنيون في إحباط تقدم العدو وتدمير عدد من أنصاف المجنزرات، ولكن القوة الجوية الإسرائيلية بالإضافة إلى هشاشة خزانات الوقود الخارجية في دبابات باتون الأردنية، أسهمت أخيراً في حسم المعركة، فانسحب سليمان وعيد نحو أريحا تاركين دباباتهما تحترق ليتصاعد منها الدخان.

وبعد ذلك، انضم اللواء العاشر إلى اللواء الرابع ونزلا معاً عبر شعفاط العربية المجاورة والتلة الفرنسية (French-Hill)، مخترقين الدفاعات الأردنية عند ميفتار (Mivtar) ليظهر عند تلة الذخيرة. كان تقدم اللواءين سريعاً جداً حتى إنني ظننت أن القوات الإسرائيلية الموجودة في الجانب الإسرائيلي من المدينة أردنيين فأطلقت عليهم النار. نشأت فوضى عندما أخذت الدبابات وطواقمها تجوب الشوارع بحثاً عن معركة. ووصف الكولونيل موشي بيليس (Moshe Peles) نائب قائد المظليين، الوضع قائلاً: «لم نكن ندري ما الذي تم الاستيلاء عليه، ولم يُستول عليه بعد. لم نكن نعرف شيئاً».

تساءل المؤرخون الإسرائيليون فيما بعد: هل كان النضال من أجل الاستيلاء على تلة الذخيرة ضرورياً، وهل جعل وصول الدبابات السريع الخسائر في الأرواح فادحة للغاية؟ مثل هذا التخمين الثاني يأتي بسهولة في الإيضاحات التي تطرح في غرفة الصف، أما من وجهة نظر ناركيس، ومن خلال ضباب المعركة، وبسبب الاعتقاد السائد آنذاك بأن دبابات باتون الأردنية كانت مازالت تتقدم، فإن الهجوم على تلة الذخيرة يبدو خير وسيلة لإنقاذ جبل المكبر. كما أن المناورة تلك حققت حصاراً مضاعفاً للقدس - المشاة في الداخل، تحيط بهم حلقة مدرعة خارجية. وبحلول منتصف يوم السادس من يونو، ذكرت برقية من الجيش الأردني أن العدو قد احتل القدس بأكملها ما عدا المدينة القديمة. (١٧)

لم تكن الأخبار مفاجئة للحسين. فقد حذر الجنرال رياض الملك حسين قبيل الفجر، قائلاً: «إذا لم نحسم الأمر في غضون الـ٢٤ ساعة القادمة، فبإمكانك أن تُقبِّل جيشك والأردن كله قُبلة الوداع. إننا على وشك خسارة الضفة الغربية؛ وسوف

تعزل جميع قواتنا أو تدمر». وطرح القائد المصري للجيش الأردني احتمالين: إما قبول وقف إطلاق النار على الفور، أو الأمر بتراجع عام. خياران قاسيان، بيد أن لا مُسوِّغ لهما. فالقوات الأردنية مازالت تسيطر على المدينة القديمة ومعظم القدس الشرقية، والتقدمات الإسرائيلية في الضفة الغربية محصورة في اللطرون وجنين. كما أن القوات الأردنية تستطيع الصمود، حتى دون غطاء جوي، إلى أن يتم ترتيب وقف إطلاق النار، مؤكداً بقاء معظم الضفة الغربية أردنية. وكان الوضع هذا مماثلاً للوضع المصري في سيناء، وغطت العواطف هنا،كما في مصر، على الحقيقة.

وما إن سمع الملك حسين نصيحة الجنرال حتى سارع إلى دعوة سفراء الولايات المتحدة، والاتحاد السوفياتي، وبريطانيا، وفرنسا، وأخبرهم بأن نظامه «ربما لا يدوم ساعة واحدة بعد الآن، إذا لم توضع نهاية فورية للهجمات العنيفة».

كان الحسين قد وقع، للمَّرة الثانية، بين خيارين أحلاهما مُرّ.

فقبوله وقف إطلاق نار رسمي في وقت كانت مصر ما تزال تقاتل يرقى إلى إعلان الاستسلام. والفلسطينيون ربما يثيرون الشغب، وربما يتمرد الجيش. ومع ذلك، ليس التراجع بأقل مهلكة، إذ يمكن لعبد الناصر أن يستخدمه ذريعة لسحب قواته وإلقاء اللوم على الأردن لانهيار الجهد الحربي العربي. وكان تقييم بيرنز على النحو التالي: «سيكون حفظ النظام والقانون في الأردن بعد وقف إطلاق النار أصعب بكثير منه في حال عدم وقفه. فما بالكم لو دعا عبد الناصر إلى الإطاحة بالحسين ليستطيع الأردن متابعة المعركة؟!».

كان الحل الذي توصل إليه الحسين، هو السعي إلى تفاهم سري مع إسرائيل على وقف إطلاق القتال، أو الأفضل من ذلك السعي لوقف إطلاق نار مفروض دولياً. ادعى في اتصال هاتفي بالجنرال بيرنز، أن لديه مهلة ١٥ دقيقة ليتخذ قراراً بشأن إخلاء الضفة قائلاً بطريقة أقرب إلى الهيستريا: «إذا لم ننسحب الليلة فلسوف نُطحن. ولن يكون في غد سوى خيار واحد هو الأمر بتدمير معداتنا وترك كل جندي

يبحث عن نفسه. «وقال مؤكداً إن عبد الناصر قد تخبط تخبطاً رهيباً: «ما من أحد توقع أن يتصاعد الصراع إلى هذا الحد وبهذه السرعة» - وأن رياض «كان يدير العرض تقريباً» في الأردن، ولكن الحسين لم يلق باللوم على أحد، ونفى أن قواته هي التي أطلقت النار أولاً على أهداف مدنية. فكان همه الوحيد هو التوصل إلى «نهاية فورية للعنف» - متجنباً استخدام مصطلح «وقف النار» - وإلا فإن نظامه سيسقط.

بعث الحسين في تلك الليلة ما لا يقل عن أربعة طلبات بوقف نار واقعي ولكن الردود في كل مرَّة كانت سلبية. قال باربر من تل أبيب: «أعتقد أنه فات الآوان على إثارة أي اهتمام في إسرائيل بشأن الاحتفاظ بالحسين ونظامه». ادعت إسرائيل أن الحسين إما فقد السيطرة على قواته أو أنه كان يخدعها لإلغاء هجومها، مستشهدة بالمعارك المستمرة في قطاعي القدس ونابلس. أما رد واشنطن على الحسين فلم يكن أكثر دفئاً، رغم أنها دعمت وقف القتال؛ إذ جاء ردها على النحو التالي: إما أن تكون شخصياً مسؤولاً عن جيشك، وإما أن تظل هدفاً».

وبما أن الملك حسين قد أصيب بإحباط خطير ويأس شديد، أخذ يرد على نفسه محذراً: إذا ما استمرت الحرب فلا خيار أمام الأردن سوى تأييد اتهام ناصر لأمريكا وبريطانيا بالتآمر. (١٨)

لم يكن ذلك التهديد عبثاً، كما أثبت الحسين بعد نصف ساعة، عندما تلقى مكالمة هاتفية من القاهرة، يسأله فيها عبد الناصر: «هل نقول إن الولايات المتحدة وبريطانيا (تهاجمان) أم فقط الولايات المتحدة؟» محاولاً معرفة ما إذا كان لدى بريطانيا في المنطقة حاملات طائرات أيضاً. فأجابه الحسين: «الولايات المتحدة وبريطانيا، كما وافق الملك على إصدار بيان بهذا المعنى على الفور. أثلج ذلك صدر عبد الناصر وشجعه، فقال مبتهجاً: «والله، سأصدر بياناً، وأنت ستصدر بياناً، وسوف نعمل على أن تصدر سوريا كذلك بياناً مفاده أن الطائرات الأمريكية والبريطانية تشارك في القتال ضدنا انطلاقاً من حاملات الطائرات. وسوف نؤكد

على هذه المسألة. وسوف نوضحها للناس». وانتهى الحديث بحث عبد الناصر للملك حسين على «ألا يستسلم» رغم أن القتال مازال صعباً. «نحن معك بكل قلوبنا، وطائراتنا اليوم تحلق فوق إسرائيل وتقصف مطاراتها منذ الصباح». (١٩)

بما أن أجهزة اتصالات القيادة العربية الموحدة، المتقدمة قد صنعت في خط مدني غير مشفر ولم ترمز أبداً- لذلك التقطت المخابرات الإسرائيلية المحادثة وسجلتها ونشرتها على نطاق واسع. على أية حال لم ينف الحسين هذه المكالمة، وأكدتها صحيفة الأهرام المصرية علناً بقولها: «اتفق الملك والرئيس فيما بينهما على وجوب إحاطة الأمة العربية علماً بهذا التطور المهم وأن تكيّف مواقفها وفق ذلك». وتلقت الأردن استثناءً خاصاً من ناصر لإبقاء علاقاتها مع الولايات المتحدة قائمة، ولكن هذا الاستثناء كان له ثمن إذ أصبح الحسين جزءاً مما أسماه جونسون «الكذبة الكبرى».

ساعد الادعاء بالمؤامرة الغربية لمساعدة إسرائيل، الحسين على تهدئة الفلسطينين والحفاظ على التحالف المصري - الأردني. ومع ذلك، ظل موقفه يتدهور عسكرياً. وعلى الرغم من طلبات المساعدة المتكررة التي وجهت إلى سوريا والسعودية. وبرغم التأكيدات المتكررة بأن البلدين قد أرسلتا قواتهما إلى الأردن، فإن مثل هذا العون لم يصل أبداً. فقد وصل اللواء السوري السابع عشر المؤلل إلى الحدود الأردنية ولكنه رفض التقدم أكثر من ذلك إذ ادعى قائده أولاً أنه بحاجة إلى استطلاع المنطقة، ومن ثم ادعى أنه لم يتلق تعليمات من دمشق في التقدم أكثر من ذلك. كما كان عدم وجود أوامر هو السبب نفسه الذي تذرَّع به السعوديون الذين وقفت قواتهم أيضاً عند الحدود الأردنية. ويقول الدكتور منير زكي مصطفى، أحد الأطباء العسكريين المصريين، الذي ألحق بالسعوديين: «كنا نأمل أن تهاجمنا ولو طائرة إسرائيلية، حتى نستطيع القول إننا شاركنا في الحرب وأطلقنا مدافعنا - ولكن عبثاً».

فقط اللواء العراقي الثامن وحده هو الذي حاول الانخراط في القتال وعبور جسر دامية، ولكن الطائرات الإسرائيلية قصفته هناك وأبادت معظمه. كما دمر سلاح الجو الإسرائيلي كتيبة فلسطينية وهاجم قاعدة H-٣ في غرب العراق - التي كانت آخر أمل للحسين في الحصول على غطاء جوي. ورغم أن طائرتي ميراج قد أسقطتا إلا أن سلاح الجو الإسرائيلي خلَّف وراءه صفوفاً من طائرات الميغ والهوكرهنتر تحترق ويتصاعد منها الدخان.

وبحلول وقت الظهيرة، طلب الحسين من رياض أن يحيط المشير عامر علماً بالحقيقة: فكتب الجنرال رياض يقول: «الوضع في الضفة الغربية يكاد يكون ميؤوساً منه. الإسرائيليون يهاجمون على كل الجبهات. ويقصفنا سلاح الجو الإسرائيلي ليل نهار، ولا نستطيع المقاومة... كما أن القوات الأردنية والسورية والعراقية قد دُمرت عملياً.» واختتم الجنرال رياض رسالته بتأكيد اعتقاده بأن عدم فرض وقف إطلاق نار من قبل الأمم المتحدة سيضطر الأردن إلى سحب قواته من الضفة الغربية أو يواجه هزيمة منكرة كاملة. وكان الحسين قد وطد نفسه على هذه الحقيقة كذلك، عندما أرسل برقية متابعة إلى عبد الناصر الساعة ١٢,٣٠، يقول فيها:

«بالإضافة إلى خسائرنا الفادحة في الرجال والعتاد، بسبب الافتقار إلى الحماية الجوية، فإن دباباتنا تصاب بالعجز بمعدل دبابة كل عشر دقائق. إن الجزء الأكبر من قوات العدو مركزة الآن ضد الجيش الأردني... فإذا ما استمرت الحال على هذا المنوال، فلن تسفر إلا عن نتيجة واحدة، هي «أنكم والأمة العربية ستخسرون هذه القلعة بكل قواتها، بعدما قامت به من قتال مجيد سيكتبه التاريخ بالدم». (٢٠)

وعلى الرغم من عزوف الحسين عن قبول وقف إطلاق نار مفتوح أو المصادقة على التراجع، كان مستعداً للتخلي عن حقه وامتيازاته ويترك القرار لعبد الناصر. ومع ذلك لم يصل أي قرار، مع اقتراب المساء من نهايته. أرعد الهجوم الإسرائيلي في هذه الأثناء. إذ كانت دبابات الجنرال بيلن حول جنين تتأهب لمتابعة طريقها

جنوباً إلى نابلس، وكان رتل آخر يتقدم نحو المدينة من قلقيلية غرباً، أما خارج القدس فكان اللواءان العاشر والرابع قد احتلا رام الله بسكانها ال٥٠,٠٠٠ نسمة. وفي القدس ذاتها، فقد قامت كتيبة المشاة الـ١٦٣ بقيادة الليفتنانت كولونيل ميشيل بيكاس (Micheal Peikas) بالهجوم على «أبو طور» (Abutor) المعقل العربي المحصن المطل على الجدار الجنوبي للمدينة القديمة. كان القتال ضارياً: قتل فيه ١٧ إسرائيليا، من بينهم بيكاس نفسه، وجرح ٥٤. وهكذا أمّن جيش الدفاع الإسرائيلي المنطقة بعزل المدينة القديمة عن بيت لحم والخليل جنوباً. في حين أن القوات الإسرائيلية الآتية من رام الله ستقطع آخر طريق مفتوح إلى أريحا.

وفي آخر نهار السادس من يونيو، كان الجزء الأعظم من جيش الأردن يواجه خطر العزل والحصار والتجميد في أراضي الضفة الغربية. ودار جدال بصوت عال بين رياض -الهادئ عادة، المعتدل الذي لم يفوت غفوة بعد الظهر حتى أثناء القتال- وبين الملك حسين حول رفض الحسين الموافقة على الإخلاء. فقال رياض منتقداً شاكياً: «كانت من أصعب مهماتي هي ملاطفة يوتانت وتملقه من أجلك».

خرج الملك من مقر قيادته غاضباً واستولى على سيارة جيب وأسرع بها إلى وادي الأردن. فالتقى هناك وجهاً لوجه ببقايا لواء المشاة الخامس والعشرين واللواء المدرع الأربعين يتراجعان من جنين. فعلق على ذلك المشهد فيما بعد بقوله: «لن أنسى منظر تلك الهزيمة الجنونية. كانت الطرقات غاصة بالشاحنات وسيارات الجيب وكل أنواع المركبات مطعّجَة، مبعّجة، أحشاؤها ظاهرة، مازال الدخان يتصاعد منها باعثاً رائحة مزيجاً من رائحة المعدن المنصهر والدهان المحترق بفعل القنابل المنفجرة - رائحة كريهة لا تصدر إلا عن مسحوق البارود. كان في وسط حاويات الجثث هذه رجال، كانوا يحاولون شق طريقهم بمجموعات من ثلاثين أو أزواجاً، جرحى منهكين تحت الضربة القاضية التي توجهها إليهم أسراب طائرات الميراج الإسرائيلية التي تزعق في سماء صافية تلمع في ضوء الشمس». فكر الحسين بالسؤال عن علي بن علي، ابن عمه الذي يخدم في اللواء الأربعين، ولكنه اشمأز من استغلال مركزه فظل ساكتاً. (٢١)

في حين تضاءلت سيادة قوات الحسين، ظلت هذه القوات تقاتل؛ إذ صمم عطا علي الذي كان خلف أسوار المدينة القديمة على الصمود، رغم أنه لم يبق لديه سوى مدفعي هاون ثقيلين، ولكن كان لديه من المؤن والذخيرة ما يكفيه ورجاله أسبوعين. فأقام قيادة له في الحي الأرضي، ووضع خمسين جندياً عند كل بوابة من بوابات القدس السبعة. وانتظر الهجوم الإسرائيلي.

بدأ الهجوم الإسرائيلي في الساعة ٧,٠٠ تماماً تلك الليلة، ورغم أن هدف الإسرائيليين لم يكن بعد احتلال المدينة القديمة، بل هضبة أوغستا فيكتوريا، فإن كتيبة فرادكين الثامنة والعشرين، أخطأت طريقها إلى الهضبة عن طريق وادي الجوز، فانعطفت في منعطف آخر أدى بها إلى بوابة القديس ستيفن أو بوابة الأسود (Lions Gate) فأمطروا بنيران قاتلة. انحصرت أربع دبابات شيرمان على الجسر الضيق الذي يربط حديقة غيثسيميين (Gethsemane) مع كنيسة شعفاط (Jehosophat) فأصيبتا بالنيران الأردنية وهما تحاولان الاستدارة، كما دمرت ثلاثة سيارات جيب من سرية استطلاع المظليين. كان إجمالي الخسائر الإسرائيلية البشرية خمسة قتلى و٢٥ جريحاً، أما الناجون فقد هرعوا للاحتماء بساحة ضريح العذراء المنخفضة. ذكر المراقبون الموجودون على جبل المكبر في تلك الأثناء، أنهم شاهدوا قافلة من أربعين دبابة باتون تتقدم عبر العازرية في طريقها إلى جبل الزيتون. أصدر غور، الذي خشي أن تحصر القوة كلها في أرض مكشوفة وظهورهم إلى السور، أمراً إلى رجال فرادكين بالعودة إلى روكفللر. لقد فشلت محاولة إسرائيل للإحاطة الكاملة بالمدينة القديمة وإجبار حاميتها على الاستسلام. وكان ذلك بالنسبة للأردنيين كمن يشتري وقتاً ثميناً. (٢٢)

كان عجز الإسرائيليين عن الوصول إلى أوغستا فيكتوريا بمثابة إبرة منشطة عززت من عزوف الأردن عن التراجع. ومع ذلك، كان أثر ذلك على الأردن أقل ما كان على إسرائيل، حيث غرق القادة العسكريون والمدنيون في جدال عميق حول محاسن احتلال المدينة القديمة ومساوئها. وكان الرهان على الاعتبارات الحاسمة

للزمن والرأي العالمي، وعلاقات إسرائيل بالولايات المتحدة والأمم المتحدة. ومن الأمور الضاغطة بالقدر نفسه اشتعال نقطة وميض أخرى، ليس في سيناء أو في الضفة الغربية، بل على الحدود الشمالية مع سوريا.

دمشق والقدس:

لم ترد إسرائيل على القصف السوري لمستوطنات الشمال الذي لم يخب منذ اليوم السابق. تابع سكان تلك المستوطنات الذين يشكلون أكبر تكتل في البلاد، ضغطهم على الحكومة كي ترد على القصف السوري، وكان يقود قضيتهم هذه وزير العمل إيغال ألون (Yigal Allon). كان ألون، خريج أكسفورد قائد قوات النخبة، بطل حملة العام ١٩٤٨، البالغ من العمر ٤٩ عاماً، ضد مصر فوعد المزارعين بأن الحرب لن تنتهي والمدفعية السورية لا تزال تصب حممها عليهم.

كان باستطاعة ألون الاعتماد على دعم ضمني من إشكول في الترويج إلى عملية تبيد تلك المدافع. إذ كان إشكول، المزارع السابق في الجليل والخبير المائي يتعاطف جداً مع المستوطنين الشماليين، وكان لديه اهتمام متأصل في نفسه بمنابع نهر الأردن.

قال الكولونيل ليور متذكّراً: «لقد أبدى إشكول، منذ اللحظة الأولى التي نشبت فيها الحرب خشية خاصّة على الشمال. ففي كل جلسة تشاور وفي كل بحث... يسأل ثلاث مرات أو أربع ما الذي يجري في الشمال؟، وأعتقد أنه كان مهووساً بالشمال... يزعج الشعب باستمرار فيما يتعلق ببانياس (أحد منابع نهر الأردن). إذ يسأل في اليوم الواحد اثنتا عشر مرة وما هو شأن بانياس؟».

ولكن ليس جميع وزراء إشكول يشاركونه هذا الهوس الجولاني، فزالمان أران، وحاييم موشي شابيرا، وغيرهم، كانوا ما يزالون يخشون فتح جبهة جديدة، وتدخل السوفيات، وكانوا يجدون في دايان دعماً قوياً لهم.

عبر وزير الدفاع، دايان، أيضاً عن قلقه بشأن الروس، وكان يشك فيما إذا كان لدى القيادة الشمالية التي انخرطت قبل فترة وجيزة في الضفة الغربية القوات اللازمة لاحتلال الجولان. فاستبعد في حديث له مع وزراء المجلس وجود أي تهديد إستراتيجي من سوريا، بقوله: «إننا نخشى المصريين لأنهم أقوياء رغم بعدهم، ونخشى الأردنيين الضعفاء لقربهم الشديد منا، أما السوريون فهم ضعفاء وبعيدون- فلا حاجة لمهاجمتهم».

ولكن دايان، يسترشد، بالإضافة إلى الاعتبارات الاستراتيجية، بالمصلحة السياسية في تأمين حصر القرارات العسكرية في يده. فحذر ألون ووزراء آخرين- غليلي (Galili) وكارمل (Carmel)- المؤيدين لاحتلال الجولان، قائلاً: «لا تتدخلوا بالأمور الأمنية. فليس هناك ديمقراطية في الشؤون الأمنية: فإن حاولتم التدخل، أخرج من الحكومة».

ربما يجيز دايان عملاً محدوداً في الشمال: كاحتلال المناطق المنزوعة السلاح، وربما منابع بانياس. وأسر ذات يوم إلى بن غوريون بأن «طيش السوريين» لا يطاق. وعندما يتم حسم الجبهات الأخرى، سيأتي دور سوريا.(٢٣)

كان موقف دايان، مبنياً على الاحتفاظ بمستوى مقبول من العنف في الشمال، ولكن طرأ على ذلك الافتراض تغير كبير في الساعة الثانية من صبيحة السادس من يونيو. إذ انهالت رشقات مدفعية كثيفة من كيبوتز دان، وكفار شولد (Kfar Szold) عند طرف وادي الحولة عين غيف (النقيب) (Ein Ger) الواقعة على الساحل الجنوبي لبحيرة الجليل (طبريا). إذ أخذ حوالي ٢٦٤ مدفعاً يمطرون المستوطنات بما زنته٤٥ طناً من القنابل في الدقيقة، وسقط حوالي ألف قذيفة على مستوطنة روشيبنا(Rosh Pina) وحدها.

وفي محاولة لتضليل المدفعية السورية عن أهدافها، قام مهندسو جيش الدفاع الإسرائيلي بإشعال براميل من الدخان على طول الحدود، ولكن هذا التكتيك لم يثبت فعاليته، إلا جزئياً. تضرر حوالي ٢٠٥ بيتاً، و١٤ مبنى عاماً، و٤٥مركبة، وأصيب ١٦ شخصاً بجروح، وقتل اثنان.

كتيبتان سوريتان هما اللتان كانتا تطلقان هذه الحمم من القذائف -الكتيبة ١٢٤ والكتيبة ١٦٨- من مدافع عيار ١٣٠ مم، بالاضافة إلى أربع سرايا مدفعية هاون ثقيلة وأسلحة مضادة للدرع. قال الكابتن إبراهيم أكثوم (Ibrahim AKTUM)، ضابط المراقبة في اللواء الحادي عشر المتمركز على تل العزيزيات: «يبدو أن العدو يعاني من خسائر فادحة، ويقوم بالتراجع «أمّا وزير الدفاع السوري، الأسد، فقد أعلن أنه» في هذه الساعة التاريخية الحاسمة بدأت قواتنا بقصف مواقع العدو على طول الجبهة. وما هذه إلا الطلقات الأولى في حرب التحرير».

بعد الغارات الجوية المعادية في اليوم السابق، استعادت سوريا الثقة بنفسها لعدم رد إسرائيل على القصف. وحوالي منتصف الليل، تلقت القيادة العامة اتصالاً لاسلكياً سرياً للغاية من القيادة العامة في القاهرة يقول: «قواتنا تقوم بضرب إسرائيل وجيشها بعنف. ولقد دمرنا أكثرية الطيران الإسرائيلي وجيشنا الآن يتقدم نحو تل أبيب... أخبرونا في الحال عن الوضع في الجبهة الشمالية وعن حالة العدو». سارع سويداني إلى عقد اجتماع لهيئة الأركان وأمر بتنفيذ «عملية نصر»- الهادفة إلى احتلال شمال إسرائيل.

تقرر أن يبدأ الهجوم باندفاع تضليلي إلى طرف وادي الحولة، ثم يتبعه غزو رئيسي في الجنوب بمحاذاة بحيرة الجليل بثلاثة ألوية كاملة.

بدأ الهجوم التضليلي في الساعة السابعة عندما نزلت قوات من كتيبة المشاة الـ٢٣٤ بصحبة سريتين من دبابات T-٣٤ من بانياس باتجاه كيبوتز دان. لم يشاهد أي مستوطن في الكيبوتز الأمر الذي جعل السوريين يعتقدون أن الإسرائيليين قد هجروها. والواقع أنهم كانوا في ملاجئ مضادة للقنابل، وعندما سمعت أصوات صفارات الإنذار هرعوا للدفاع عن محيط المستوطنة. قال أعضاء الكيبوتز، ذُكر في السجل باسم (يوسي) (Yossi) واصفاً ما حدث: «خرجت، وفجأة رأيت ست دبابات تتجه نحونا وهي تطلق علينا مباشرة قنابل متفجرة، ودخان وفوسفور كإشارة لهجوم المشاة... سمعت صيحات ورأيت ٧٠ جندياً مصطفين ويطلقون النار من مسافة ٣٥٠ متراً... فأطلقت مسدداً عليهم مباشرة ورأيت كيف أخذوا يتساقطون».

جرت محاولات أخرى للهجوم على أهداف إسرائيلية أخرى على تل دان (Tel Dan) وحصن جيش الدفاع في أشمورا(Ashmora) أسفرت كل منها عن نتائج متطابقة. دُمرت سبع دبابات، وقتل عشرون جندياً. كما فقد الكولونيل إسحاق هالفون(Yitzhak Halfon) حياته أيضاً. (٢٤)

صدت هذه المحاولات ولم يحقق الاندفاع السوري أهدافه إذ فشل قادة ثلاثة ألوية في الوصول إلى موقع الانطلاق الإسرائيلي لجهلهم بطبيعة الأرض. إذ وجدوا الجسور المقامة على نهر الأردن ضيقة جداً بحيث لا تتسع للدبابات السوفياتية العريضة، وكانت الدبابات تفتقر إلى أجهزة اتصال بالمشاة. وهناك وحدات أخرى ظلت، ببساطة، في معسكراتها قرب القنيطرة متجاهلين الأوامر التي صدرت إليهم بالتحرك. أقنع فشل هذا الهجوم دمشق بعدم متابعة عملية نصر. وتلاشت أية شكوك بإمكان متابعتها، ظلت ترواد أذهان البعض إثر شروع الطيران الإسرائيلي والمدفعية الإسرائيلية بقصف مواقع السوريين. كان الوضع على الجبهة السورية سيئاً، كما جاء في تقرير عسكري داخلي يقول: «لم تتابع قواتنا الهجوم إما لأنهم لم يصلوا، أو لأنهم لم يكونوا مُهيئين تماماً، أو لأنهم لم يجدوا ملاذاً من طائرات العدو؛ ولم تستطع قوات الاحتياط الصمود ضد الهجمات الجوية، فتبعثروا بعد أن تحطمت معنوياتهم. وبحلول مساء يوم السادس من يونيو، كان قسماً كبيراً من الجنود الاحتياطيين هؤلاء يعودون إلى قواعدهم كيفياً».

وبعدئذ، لدى قول السوريين بأنهم «كانوا يتعرضون لأقسى الظروف - قصف جوي متواصل بكل أنواع المتفجرات بما فيها النابالم، وأن خسائرهم بلغت ٢٠٪» «قرروا إحياء الخطة الدفاعية «عملية الحرب المقدسة». لم يردعهم هذا القرار عن القيام بهجوم افتراضي. إذ ادعى راديو دمشق أن مستوطنة شعار ييشوف (Shaar Yishuv) قد احتلت (إنها لم تهاجم قط) وأن خمس طائرات إسرائيلية قد أُسقطت، وأن اليهود كانوا يهربون إلى حيفا. كما أنهم لم يحيطوا المصريين

بالحقيقة أبداً. بل أبرقت القيادة العامة إلى القاهرة تقول: «تقوم قواتنا باحتلال وادي الحولة والتقدم بسرعة نحو مستوطنة روشيبنا وصفد. وفي آخر النهار سنكون حتماً في الناصرة». (٢٥)

في هذه الأثناء تصاعد قصف المستوطنات الإسرائيلية محققاً مستويات متنوعة من الإصابات المميتة خلال اليوم. لم يحدث ذلك أي انطباع لدى رابين، معتبراً ذلك القصف وتلك المحاولات الهجومية أنها جرت لدحض الزعم الذي أخذ ينتشر في العالم العربي «بأن السوريين سيقاتلون لآخر جندي مصري». ووافق على عدد من العمليات الصغيرة لاحتلال المناطق المنزوعة السلاح ومنابع بانياس وأخذ أسرى حرب ليجري تبادلهم فيما بعد بطيارين إسرائيلين أسقطوا فوق سوريا. ومع ذلك ظلت أولويات جيش الدفاع الإسرائيلي في الضفة الغربية، وليس في الجولان. كما قال رابين في ختام كلامه.

لم تكن هذه النتيجة التي اختتم بها رابين كلامه تعجب ديفيد إلعازار (David El-azar) رئيس القيادة الشمالية، الذي ولد في ساراجيفو حيث كان وبارليف أصدقاء طفولة، وانتقل إلى فلسطين وهو في السادس عشر من عمره، وجعل من الجيش موطناً له. وبما أن «دادو (Dado)» -هكذا كانوا يسمونه- كان قائد فيلق مدرع في العام ١٩٥٦، اكتسب شهرة بالشجاعة والعدوانية. كما اكتسب محبة المستوطنين الإسرائيليين في جميع أنحاء الشمال، وبتبادله تلك المشاعر الدافئة معهم كان يسعى دائماً لحمايتهم بصورة دائمة من السوريين.

كان قصف الجليل والهجوم على كيبوتزدان، في نظر دادو مجرد تمهيد لهجوم أوسع وأعنف. ورغم أن كثيراً من وحداته كانت مشغولة في الضفة الغربية كان يشعر بأن لديه من القوات ما يكفي لاحتلال شمال الجولان على الأقل. كان اليعازر قد حدد هجومه في صبيحة يوم الثامن من يونيو -لأن النشرة الجوية تنبأت بسماء ضبابية يوم السابع من يونيو، الأمر الذي يربك الطيران- وكان متأكداً من موافقة الحكومة على خطته. (٢٦)

وبينما كان دادو يخطط، كان دايان مازال يعارض القتال على جبهة ثالثة مجازفاً باستفزاز السوفيات. أكد رابين على ضرورة إسكات المدافع التي تقصف المستوطنات اليهودية واحتلال منابع الأردن. وأصر مئير أميت على أن الأمريكيين سيدعمون الحملة. إلا أن وزير الدفاع ظل ثابتاً على موقفه لا يهزه شيء، فلم يحصل اليعازر وعملية «المطرقة» على أي ضوء أخضر.

لم يكن اعتدال دايان تجاه سوريا ينسحب على الأردن. إذ غضب بسبب رفض الحسين عروض إسرائيل المبكرة للحفاظ على الهدوء، ونفذ صبره من طلبات الملك حسين الأخيرة لوقف إطلاق نار ضمني. فقال لرابين: «لنضع نهاية، أولاً، للعمل الذي فرضته علينا، ثم نرسل له الرد المناسب». والعمل الذي كان في ذهن دايان هو احتلال مرتفعات الضفة الغربية المطلة على وادي الأردن، ونزول عناصر جيش الدفاع الإسرائيلي إلى أريحا ومعابر نهر الأردن عند إنجاز تدمير مدرعات العدو.

بيد أن دايان ظل يشير بضبط النفس والإحجام فيما يتعلق بالقدس فقط، رافضاً كل الاقتراحات التي تنصح باحتلال المدينة القديمة.

ولسوف يكرر موقفه ظهيرة ذلك اليوم عندما ينضم ووايزمن إلى ناركيس أثناء زيارتهما إلى جبل المكبر المحرر حديثاً. قال دايان: «ياله من منظر إلهي» وهو يتمتع بالمشهد المذهل للمدينة القديمة بقبابها الذهبية وأبراج كنائسها. بيد أن ناركيس التواق للحصول على إذن باختراق تلك الأسوار، لم يكن ذا مزاج بمشاهدة المناظر.

ولدى تذكره كيف أن الجنرال الروماني تيتوس (Titus) قد حاول تدمير العلاقة اليهودية بالقدس ولكنه فشل، طلب إذناً فورياً لاحتلال المدينة القديمة. فكان جواب دايان: «لا تحت أية ظروف». يستطيع الجيش زرع محيط المدينة بالألغام، ومحاصرتها ودفعها إلى الاستسلام من تلقاء نفسها؛ أما اختراق الأسوار فربما يطلق شرارة رد فعل عالمي سلبي لا تستطيع إسرائيل تحمله. وقال دايان: «لا أريد شيئاً من ذلك الفاتيكان». (٢٧)

لم يكن التلميح إلى روما غير مقصود، إذ كان قد وصل إلى إسرائيل اقتراح بابوي مفاده إعلان القدس مدينة مفتوحة لا تنتهك حرمتها بأي هجوم من الطرفين. وسرعان ما باركت واشنطن الخطة التي شرعت تمارس ضغطاً على الإسرائيليين لقبول وقف إطلاق نار مع الأردن والإحجام عن دخول المدينة القديمة. فدخول المدينة القديمة الآن لا يعني فقط إغضاب المسيحيين في جميع أنحاء العالم، بل استعداء الأمريكيين كذلك.

ولكن محاصرة المدينة القديمة يمنح الحكومة أمراً واقعاً. كيف لا يحاول الجنود اليهود المنتصرون المتحلقون على بعد أمتار حول أقدس موقع وصلوا إليه؟ طرح هذا السؤال في لجنة الدفاع الوزارية عندما التأم اجتماعها التالي في الساعة الثانية من مساء ذلك اليوم.

توصل إشكول، بعد تردد كثير، إلى جواب. تقوم القوات الإسرائيلية باحتلال المدينة القديمة وتجمع الحكومة زعماء الكنائس كلها وتضمن لهم احترام مقدساتهم. وحذَّر بيغن، مذكِّراً بالجهود المبذولة في الأمم المتحدة للتوصل إلى وقف إطلاق نار من احتمال بقائهم خارج الأسوار كما حصل في العام ١٩٤٨. واقترح أن يسير قادة البلد العسكريون والمدنيون إلى الجدار الغربي وأن يُصلوا من أجل حرمة المدينة وقدسيتها. وافق بيغال ألون. احتلوا المدينة ولْتقمِ الصلاة مع احتلالها. أما فكرة حاييم شابيرا فكانت أن تتوجه إسرائيل إلى زعماء المسيحيين والمسلمين لإقناع الملك حسين بهدوء تسليم المدينة وتوفير مزيد من إراقة الدماء. كانت ردود فعل معظم الوزراء متشائمة؛ فغاليلي (Galili)، مثلاً، طالب باحتلال المدينة على الفور، وبدون جعجعة، قبل أن يصل ضغط الأمم المتحدة إلى ذروته.

ومع ذلك كله، ظلت كلمة دايان هي الكلمة الفصل، على ما يبدو، ومازال دايان معارضاً لدخول المدينة القديمة. وعلل معارضته بأنه طالما يسيطر جيش الدفاع الإسرائيلي على المنطقة عسكرياً، فإنه يمكن الانتظار حتى يحسم القتال في سيناء

نهائياً قبل إلزام نفسه بمعركة مدن أخرى. وفي لقاء خاص بين وزير الدفاع وبيغن، أضاف الأول تعليلاً آخر: ينبغي ألا تحتل إسرائيل الأماكن المقدسة لتتخلى عنها فيما بعد تحت تهديد فرض مقاطعات دولية على إسرائيل. ولدى قسمه أمام إشكول ألا يجيز أي هجوم غير ضروري، استطاع دايان أن يكبح النشاط الإسرائيلي أكثر من ذي قبل. ومع ذلك ظل تفكيره في القدس وفي معارك أخرى لغزاً. كما قال أحد ضباط جيش الدفاع الكبار إلى دبلوماسي أمريكي بلهجة لا تخلو من المزاح: «سوف يغمض دان عينه عن أية محاولة لاعتراض مسار الأحداث ومقاطعته».

المعركة من أجل وقف إطلاق النار:

هل تحتل المدينة القديمة، أو مهاجمة سوريا، أو احتلال شرم الشيخ على الفور أم الانتظار يوماً آخر - كل مثل هذه الأسئلة كانت خاضعة لعامل الزمن الهام. إذ فهم الإسرائيليون أن الحرب لن تحسم في ميدان المعركة بل في واشنطن ونيويورك على بعد ستة آلاف ميل.

هذا الفهم هو الذي كان يكمن وراء رحيل أبا إيبان مبكراً صبيحة ذلك اليوم من تل أبيب في مهمة إحباط تبني الأمم المتحدة قراراً بوقف القتال. كان إيبان يحمل إلى المجلس خطة سلام شامل، واثقاً أن العرب سيرفضونها، وبذلك يمنح إسرائيل ساعات إضافية، إن لم يكن أياماً، من القتال. ولكن إيبان كان ينظر إلى ما بعد نهاية الحرب، إلى فترة الدبلوماسية المكثفة التي ستتلو الحرب بالتأكيد. كان مصمماً على تلافي ما أسماه (كابوس) و(الصدمة السياسية) في العام ١٩٥٦حيث أجبرت إسرائيل المنتصرة على التخلي عن مكاسبها دون فرض السلام. «فها نحن نخترق دائرة العدوان العربية المغلقة ثانية، وها هي خطط تطرح كذلك ليروا أن عنقنا قد أعيدت إلى... حبل المشنقة».

كان إشكول، مع ذلك، متردداً. ففي حين أنه كان يأمل، أيضاً، في أن يغير النصر العسكري بيئة العلاقات العربية - الإسرائيلية القائمة منذ العام ١٩٤٨. فقد وجد أن ذكر السلام في هذه المرحلة يعد مجازفة كذلك. زوَّد الدكتور

ياكوف هيرتزوغ (Yaakov Hertzog) سكرتير مجلس الوزراء إيبان بتعليمات مفادها: نطلب منك ألاّ تطرح خططاً دبلوماسية أو اقتراحات سلام في هذه المرحلة. بل علينا إنجاز الطور العسكري، والترويج لاتجاهات دبلوماسية بعيدة المنال، إنما فقط يزيد الضغط من أجل إيقاف تقدم قواتنا. فضلاً عن تقديم اقتراحات كهذه إلى الأمم المتحدة يجعلنا عرضة لإعاقة فرص تحقيق مثل هذه الاقتراحات عن طريق الاتصالات المباشرة في الميدان... أو عبر أية قناة ثنائية يمكن أن تفتح أثناء المحادثات». (٢٩)

انطلق إيبان في رحلته المتعرجة، بعد أن قضى يومين لم يذق فيهما طعم النوم. فأولاً، نجا بأعجوبة من قنبلة متشظية أردنية عبرت المرج الأمامي لبيته، ثم تأخر وصوله إلى طائرته المحلية ذات المحركين بضع ساعات بسبب حركة مرور عسكرية؛ أما بقية الأمور فقد حشدت كلها. حلقت طائرته على ارتفاع منخفض لتتفادى رادار العدو، وحطت في أثينا، ثم أخذ يبحث عن خط طيران لمتابعة رحلته. ثم توقف مرَّة أخرى في أمستردام قبل أن يحط وزير الخارجية المنهك أخيراً في نيويورك. لم يسترح، بل ذهب فوراً إلى مجلس الأمن.

كان جدعون رفائيل ينتظره بقلق. فقد قضى السفير الإسرائيلي هذه الأربع والعشرين ساعة المنصرمة يناضل بمشقة ضد صدور قرار بوقف إطلاق النار، خصوصاً، صدور قرار يعيد الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل الحرب دون إنهاء حالة الحرب. فقد كتب إلى أرثر غولد بيرغ (Arthur Goldberg) يقول: «يجب ألا يجني ناصر نصراً سياسياً من هزيمة عسكرية فهذا الأمر حيوي ليس لإسرائيل فحسب، بل لوضع الغرب في الشرق الأوسط». ألحَّ إيبان، لدى وصوله، على ألاَّ يتضمن القرار أية إشارة إلى نظام الهدنة، وتحدث مطولاً عن الضرر الذي تسببه مثل هذه الإشارة إلى جهود السلام المقبلة». فرد غولد بيرغ بعد أن سنحت له فرصة الكلام أخيراً، مطمئناً إياه بقوله: «أبًّا... لا تقلق. لقد انتهى الأمر. مشروع القرار وكل شيء... أرسل جدعون؛ سأعطيه مسودة مشروع القرار».

لم يكن لدى إيبان وقت لتدقيق النص. إذ استدعي بعد لحظات ليخاطب المجلس حيث قرأ من ملاحظات بخط يده كتبها وهو في طريق السفر، ومع ذلك كانت كلمة بارعة.

مبتدئاً بالإعلان عن أن إسرائيل «قد اجتازت الخطر إلى المقاومة الناجحة المجيدة» تابع إيبان بسرد تأريخي لأصول الأزمة، بدءاً من إعادة عسكرة سيناء إلى إخراج قوات الطوارئ الدولية، وإغلاق ناصر لمضائق تيران. ووصف إسرائيل وصفاً مجازياً مشيراً إلى الحصار، بقوله: «إسرائيل... تتنفس الآن برئة واحدة فقط». وأشار إلى قوات الطوارئ الدولية واصفاً إياها بـ «المظلة التي طويت عندما بدأت السماء تمطر». كما كانت إشاراته درامية، إذ وجه إلى كل سفير موجود ناظراً إليهم فرداً فرداً، القول: «انظر حول هذه المائدة وتخيل قوة أجنبية تغلق بالقوة نيويورك أو مونتريال أو بوسطن أو مرسيليا أو طولون أو كوبنهاغن، أوريو، أو طوكيو أو ميناء بومباي. فكيف يكون رد حكومتك؟ ماذا ستفعل؟ كم ستنتظر؟». وأخيراً، أظهر بوضوح «غريزة إسرائيل السلمية» متجاهلاً نصيحة هيرتزوغ، ودعا إلى خطة سلام شاملة للشرق الأوسط قائلاً: «دعونا نبني نظاماً جديداً من العلاقات من حطام الماضي!! فلْنر عبر الظلام مشهداً لفجر أكثر سطوعاً ولطفاً». (٣٠)

مهما كانت المخاطر التي ولدها إيبان بتجاوزه التعليمات للمرة الأولى، فإن عبقريته وبراعته في الخطابة قد عادلتها، بل أكثر. إذ أخذت الإذاعات في كل أنحاء العالم، وفي مقدمتها نيويورك تايمز، تحيي براعته في الإمساك بزمام الكلمة. وامتدحت صحيفة شيكاغو تريبيون خطابه بوصفه «كأحد الخطابات الدبلوماسية العظيمة على مرّ العصور». أحدث إيبان في الرأي العام تأثيراً عميقاً. وكان ذلك لصالح إسرائيل. إذ كان من بين ال ١٧٤٤٥ رسالة التي تلقاها البيت الأبيض خلال الثماني والأربعين ساعة الأولى من الحرب ٩٦٪ تؤيد إسرائيل، و٣٪ حيادية و١٪ فقط تدعم العرب. وأظهر استطلاع لهاريس (Harris) أن أكثر من نصف الأمريكيين كانوا يعتقدون أن السوفيات هم مهندسو حرب الشرق الأوسط بتعزيز الموقف الشيوعي في فيتنام. حتى الصحافة التي كانت عادلة ومنصفة في الشرق الأوسط. أخذت لا تخفي نشوتها للتقدم الذي أحرزته إسرائيل.

لم تفت هذه التطورات ليندن جونسون الحساس تماماً للعواطف العامة. تابع الرئيس، وهو محتجب في غرفة المكتب حيث قدمت له زوجته ليدي بيرد (Lady Bird) طعام الإفطار بصحبة راسك ومكنمارا والأخوين رستو تفحص مجريات الحرب. فقد كان مستاء جداً من دور السوفيات في الأزمة ومن كذبة العرب الكبرى. لقد شغلت موجة التأييد لإسرائيل العارمة في طول الولايات المتحدة وعرضها جونسون نفسه، كما شغلته متطلبات سنة الانتخابات القادمة.

كان يميل إلى السماح لإسرائيل بالاحتفاظ بما احتلته في سيناء على الأقل. واستخدامه كورقة مساومة في المفاوضات المستقبلية. فأكد راسك بوضوح قائلاً: «لا نستطيع أن نجعل إسرائيل تقبل تسوية ضئيلة». وأضاف وولت روستو توضيحاً أدق بتساؤله: «عما إذا كانت تسوية هذه الحرب ستكون على أساس اتفاقات الهدنة التي تترك العرب في وضعية العداء تجاه إسرائيل، جاعلين القضية الإسرائيلية حية في حياتهم السياسية كقوة موحِّدة لهم، وتتيح الفرصة لتكون للسوفيات يد في العالم العربي؛ أو فيما إذا كانت التسوية على أساس قبول إسرائيل كدولة شرق أوسطية لها حقوق المرور في القناة وفي مضائق تيران».

كان الإسرائيليون سهلي الانقياد بالطبع؛ ففي رسالة سرية أرسلت عبر القاضي شمعون أغرانات (Shimon Agranat) رئيس المحكمة الإسرائيلية العليا، إلى غولد بيرغ، ومن غولد بيرغ إلى جونسون، أكد فيها إشكول للرئيس جونسون أنه يتفهم الصعوبات التي تواجهها أمريكا في فك حصار تيران، وإزالة التهديد الذي يتعرض له أمن إسرائيل. وطلب فيها فقط من أمريكا أن تساعد عل تأخير إصدار قرار من مجلس الأمن بوقف القتال، وأن تدعم مطالبة إسرائيل بتحقيق السلام مقابل إخلاء الأراضي العربية المحتلة، والأكثر حسماً، ردع السوفيات عن التدخل. وكتب إشكول يقول، في ما عدا ذلك: «نحن مستعدون للتعامل مع الأمر بأنفسنا».

كانت الإدارة مستعدة - على ما يبدو - لقبول الطلب الإسرائيلي، كما كان يعتقد المسؤولون الإسرائيليون. إلا أن بن غوريون، اعتماداً على مصادره الخاصة في الحكومة، استنتج أن «إيبان لم يوصل رسالة جونسون بدقة. إن أمريكا تريد إنهاء ناصر بسرعة». (٣١)

ولكن، إذا كان جونسون راغباً في جعل إسرائيل تكسب الحرب، فإنه كان أيضاً تواقاً لتخفيف ما يمكن أن يلحق بمصالح أمريكا في الشرق الأوسط من ضرر إلى أدنى حد، ولتفادي صدام مع الاتحاد السوفياتي. فأبرق الرئيس إلى كوسيغن في الساعة ١٠,٠٣ صباحاً يحث السوفيات على رفض اتهام ناصر للولايات المتحدة بالتواطؤ مع إسرائيل ومذكراً إياه بالتزام أمريكا بحرية الملاحة في المضائق، وساعياً إلى تعاون السوفيات مع أمريكا في مجلس الأمن، قائلاً: «ما زلنا نعتقد أن القتال في الشرق الأدنى يجب أن يتوقف بأسرع ما يمكن». وطلب من كوسيغن، بوجه خاص، أن يدعم قراراً بوقف القتال يدعو جميع القوات إلى الانسحاب إلى ما وراء خطوط الهدنة، دون الانتقاص من حقوق أي طرف أو مطالبه أو موقفه، ويدعو إلى إنهاء استخدام القوة مهما كانت طبيعتها.

لم يصل جواب من كوسيغن، في حين كانت الجهود للتوصل إلى قرار بوقف القتال مجمدة. قال غولد بيرغ بعبارات واضحة: إن المشروع الأمريكي يهدف إلى إنهاء الحصار والبدء في مباحثات مباشرة حول فصل القوات وإجراء «تعديلات إقليمية». لن يكون الإسرائيليون الذين كانوا يسعون إلى مقايضة مكاسبهم باعتراف عربي بإسرائيل وعقد سلام معها، سعداء بمثل هذا القرار، كما أوضح غولد بيرغ. بيد أن واشنطن ستدعمه إن دعمته موسكو، واختتم قوله: «إنها لصفقة كاملة، تؤخذ كلها أو تترك كلها». وبرغم كلام فيديرينكو الطنان كله ضد أمريكا، فإنه كان مغرماً بغولد بيرغ. وصفه بأنه «يهودي ماكر يستطيع خداع الشيطان نفسه» وكان معجباً بإبداعيته. بيد أن المشروع الأمريكي قد ذهب إلى أبعد من شروط الروس التي مازالت تربط وقف القتال بانسحاب فوري غير مشروط. ومع ذلك، تلقى السفير

السوفياتي فيما بعد ذلك اليوم هاتفاً استثنائياً من نائب وزير الخارجية، سيميونوف (Semyonov) في موسكو. أعطى سيميونوف باسم غروميكو تعليمات إلى فيديرينكو ليقبل وقف إطلاق بسيط، حتى دون انسحاب، «عليك أن تفعل ذلك حتى ولو لم توافق الدول العربية، أكرر، حتى لو لم توافق الدول العربية».

صدم المسؤولون الأمريكيون بهذا التحول المفاجئ في سياسة السوفيات، وتساءلوا هل تجاوز فيديرينكو تعليماته، أم أن الاتصالات بينه وبين موسكو قد انهارت. وتعمقت الفوضى بتلقي مكالمة على الخط الساخن من كوسيغن - بعد ثماني ساعات من تلقي المكالمة الأخيرة - يؤيد دعمه لوقف القتال بالإضافة إلى الانسحاب. بدأ جدال في البيت الأبيض حول ما إذا كانوا سيستجيبون إلى موقف فيديرينكو أم إلى موقف كوسيغن. أجاب جونسون أخيراً، «مازال سفيرانا في مجلس الأمن يجريان مشاورات مكثفة طوال النهار، ونعلم أن سفيرينا قد وافقا على قرار قصير جداً يدعو إلى وقف القتال كخطوة أولى».

ابتهج الأمريكيون بهذا التطور، ولكن الإسرائيليين لم يبتهجووا به كما توقع غولد بيرغ. فقد وافقوا متشككين على ادعاء غولد بيرغ بأن الانسحاب سوف يستغرق «أربعة شهور على الأقل» تاركين فرصة واسعة للدبلوماسية، ولكنهم كانوا ينزعجون لمجرد ذكر الهدنة. ورغم ادعائهم بأنهم يخوضون حرباً دفاعية، فهم لا يستطيعون رفض وقف إطلاق النار بدعوى أنهم يريدون مزيداً من الأرض ليقايضوا عليها. كان ذلك المأزق مختفياً وراء الحيوية التي أظهرها إيبان بقوله أمام مجلس الأمن : «إننا نرحب، ونحبذ، وندعم وقف إطلاق النار».

وبعد سبع دقائق، في الساعة ٤,٣٠ بعد الظهر، صدر القرار. وسوف يسري وقف القتال بموجبه الساعة العاشرة بتوقيت غرينتش. لم يضع جونسون وقته، إذ ظهر على الفور في تلفزيون وطني ليعلن: «الخطوة الضرورية الأولى... باتجاه ما نأمل أن يكون زمناً جديداً من السلام المستقر والتقدم لكل شعوب الشرق الأوسط». (٣٢)

بيد أن ظهور جونسون كان سابقاً لأوانه؛ إذ لم يسجل المندوبون العرب ردود فعلهم بعد. وأول من أبدى رد فعله من السفراء هو الدكتور محمود الفرا، الأردني، المولود في خان يونس، السياسي الذي تلقى علومه في أمريكا، ورفض ذات يوم منصب سكرتير الأمم المتحدة كيلا يضطر لمصافحة إسرائيلي. تلقى الفرا قبل قليل هاتفاً من أحمد طوقان، وزير خارجيته، أخبره بمدى الهزيمة التي حلت بالأردن. وأكد ذلك يوتانت الذي ما زال يتألم بسبب عار قراره بشأن قوات الطوارئ الدولية، وظل غائباً عن الأنظار منذ نشوب الحرب كيلا يلفت إليه الانتباه، إذ قال: «الصورة، يا صديقي مظلمة كئيبة». فانفجر الفرا باكياً. وتضاعفت صدمته الآن عندما نهض ليعلن قبوله وقف القتال.

كانت مفاتيح إنهاء القتال والحفاظ على الجيش المصري، ومدينة القدس القديمة وبقية الضفة الغربية، في يد محمد القوني. في بداية المناقشة اقترب غولد بيرغ من المندوب المصري وأخبره بأن سلاح ناصر الجوي قد دُمّر، وأن قواته أخذت تهرب. ووعده بأن يعمل على تحقيق انسحاب إسرائيل، شريطة أن تدعم مصر قرار وقف القتال. فذهل القوني، واستعلم عن الحقيقة من القاهرة. فتلقى معلومات صريحة. كان القوني سيرفض أي قرار لا يأمر بانسحاب القوات الإسرائيلية انسحاباً غير مشروط. فأي مشروع قرار يفتقر إلى هذا الشرط لا يقبل، كما شرح وزير الخارجية، رياض، مضيفاً - دون سخرية، على ما يبدو - بأن «القوات الإسرائيلية في سيناء قد اختلطت بالقوات المصرية، ولا توجد قوات طوارئ تابعة للأمم المتحدة لتقرر وضع أي من الفريقين». وهكذا أخذ القوني الميكرفون وأعلن رفضه لتسوية غولد بيرغ - فيديرينكو، وأدان تآمر الولايات المتحدة وبريطانيا في العدوان. ثم تلاه على الفور جورج طعمة - البعثي الراديكالي، القصير الثخين، ذو النظارات - مؤكداً وحدة سوريا مع موقف مصر. ثم السفير العراقي، عدنان الباججي (Adnad Pachachi) الذي استنكر القرار بوصفه «استسلاماً لإسرائيل».

لقد أحبطت جهود غولد بيرغ. نفى الكذبة الكبرى وعرض أن يفتح الأسطول السادس لمراقبي الأمم المتحدة، وقام بآخر محاولة قبل أن يفوت الآوان لتوطيد آلية لتطبيق وقف القتال. ولكن هذه محاولة لم تصمد، وأحبطت أيضاً، وانفض المجلس في النهاية. ولم ينعقد لمدة ٢٤ ساعة. (٣٣)

اليوم الثاني: حل العقدة

لم تأسف تل أبيب على ولادة أول قرار بوقف إطلاق النار في نيويورك ميتاً. قال رابين: «أخذ عبد الناصر يتصرف كحليف لنا أكثر مما هو عدو». وعندما وصل مجلس الأمن إلى طريق مسدود، أكمل جيش الدفاع الإسرائيلي استعداداته لعملية نخشون٢ (Nachon2) وهي الطور الثاني من الحرب.

ظلت الخطة تولي الجبهة المصرية أولوية من أجل إبادة جيش ناصر والاستيلاء على ممري الجدي ومتلا. كما أولي شرم الشيخ اهتماماً خاصاً حيث بقي حجم القوة المصرية غير معلوم بالضبط. أجاز دايان ورابين عملية «أضواء-بالعبرية يوريم» المتضمنة سبراً بحرياً للمنطقة، وهجوماً مظلياً يأتي من البحر الأحمر أو من ساحل خليج السويس. وفي غزة تمَّت الموافقة على إنشاء حكومة عسكرية كاملة مسؤولة عن منع السلب والنهب واستعادة الحياة الطبيعية. ولكن جميع العمليات على الجبهة السورية قد أرجئت ثانية، حيث كانت مهمة الجيش سد الطريق على أية غزوات معادية أخرى، بالإضافة إلى الاستيلاء على أراض محدودة. وإذا ما دخل لبنان الحرب - فقد قامت بالفعل طائرتا هوكر لبنانيتان بقصف مواقع في الجليل بعد ظهر ذلك اليوم، أسقطت إحداهما - فإنه يسمح لجيش الدفاع الإسرائيلي بعبور الحدود واحتلال أراض حتى نهر الليطاني، وأخيراً، ربما تقبل إسرائيل استسلام المدينة القديمة، ولكنها لم تفعل شيئاً حتى ذلك الوقت لإجبارها على الاستسلام. وسوف يعين حكام عسكريون في هذه الأثناء لإدارة المدن الكبرى في الضفة الغربية حيث يُحترم السكان العرب. أما فيما يتعلق بالسكان الذين يريدون الهرب إلى الأردن، فإن إسرائيل لن تقف في طريقهم، كما قال دايان.

كان مستقبل الضفة الغربية، وغزة، والقدس هو شغل مجلس الوزراء الشاغل عندما اجتمع تلك الليلة في مكتب رئيس الوزراء. وبعد الاستماع إلى تقرير بارليف عن مجريات الحرب في الساعات الأربعين الأولى، أدرج القادة الإسرائيليون القضايا التي سيطرحونها عندما تنتهي الحرب، ومن بينها: مصادر المياه، والمناطق المنزوعة السلاح، ومشكلة اللاجئين الفلسطينين. رفع أبي هارمان (Abe Harman) من واشنطن اقتراحاً بإنشاء دولة فلسطينية في الضفة الغربية، متحدة فيدرالياً مع إسرائيل، وإرسال وحدات رمزية من الفلسطينين غير المعادين لإسرائيل للقتال على الجبهتين المصرية والسورية. كان إشكول مهتماً أكثر بأن يعامل المدنيون وأسرى الحرب معاملة إنسانية، رغم أن فكرة التسوية قد لمعت في ذهنه أيضاً. فحث الوزراء على ضرورة دراسة تعريفات جديدة للمفهومات الدبلوماسية والاستراتيجية، قائلاً: «يجب أن نبتكر برنامجاً يؤمن مكانة إسرائيل المناسبة في الشرق الأوسط ضمن سياق سلام دائم وحدود آمنة». (٣٤)

على بعد ثلاثين ميلاً، وصلت رسالة إلى مقر القيادة في عمان. كانت الساعة تشير إلى ١١,١٥، أي بعد أكثر من عشر ساعات على طلب الحسين توجيهات من ناصر، فلم يتلق الجواب إلاّ الآن. افتتح ناصر رسالته على النحو التالي: «أخي العزيز الملك حسين. لقد وجدنا أنفسنا وجهاً لوجه مع أحرج اللحظات التي تواجهها الأمم أحياناً ويطلب منها التحمل والصبر... نحن مدركون تماماً لوضعك الصعب؛ ففي هذه اللحظة بالذات جبهتنا تنهار كذلك. فبالأمس تلقى سلاحنا الجوي ضربة مميتة من العدو. ومنذئذ جردت قواتنا البرية من كل دعم جوي وأجبرت على الصمود في وجه قوى عظمى... وأظن أن خيارنا الوحيد الآن هو إخلاء الضفة الغربية للأردن الليلة، والأمل في أن يصدر مجلس الأمن أمراً بوقف القتال».

وهكذا، باختصار، اعترف ناصر أخيراً بما كان يعرفه الحسين، وهو أن سلاح الجو المصري لم يعد موجوداً وأن جيشه في تراجع تام. لقد تلقى إذناً بسحب الجيش الأردني إلى الضفة الشرقية دون الخوف من لوم مصر أو أنظمة راديكالية

أخرى. اكتسب الحسين مقابل الضفة الغربية والقدس شرعية. إذ اختتم عبد الناصر رسالته بقوله: «أود أن أعبر لك عن إعجابي بسلوكك البطولي وإرادتك القوية الباسلة، وبالشجاعة التي أبداها الشعب الأردني وجيشه. والسلام عليكم ورحمة الله».

ما زال هناك ما يستطيع الملك الصغير فعله. لقد أهمل الإسرائيليون طلبه لوقف قتال ضمني. فتقدمت قواتهم على الفور إلى بقية الضفة الغربية -عبر نابلس، وقلقيلية، وبيت لحم، والخليل - واستولت على المدينة القديمة وهبطت إلى وادي الأردن وأريحا.

ورغم أن العديد من وحدات الجيش كانت منهكة مرتبكة تماماً، كان لابد وأن يخوض بعض المعارك. وافق الحسين، المنهك المكتئب، تجاه هذه الحقائق التي لا يمكن إغفالها، على اقتراح رياض بإخلاء الضفة. وتلقى القادة الأردنيون في الساعة ١١,٣٠ أوامر بالتراجع، كل رجل بمفرده عبر نهر الأردن. وفي رسالة منمقة بعث بها الملك حسين إلى الرئيس العراقي «عارف» أثنى فيها على نفسه وعلى المعارك التي خاضتها قواته:

«دلتنا أحداث اليومين المنصرمين على أن الأخوّة العربية والتفاهم العربي والأخلاق الصافية التي عبرت عنها الرغبة في الجنة والتوق إليها-ستظل هذه القيم خالدة بمرور الزمن... امتزج دمنا في المروج الخضراء، وعلى الهضاب والجدران وفي قلب الأرض الطاهرة. (٣٥)

ثم بدأت الأحداث تتحول، على ما يبدو. ففي واشنطن تم الاتفاق بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، في وقت سابق على التوقيت الأردني بسبع ساعات، على وقف القتال. وقبل الأردنيون والإسرائيليون القرار. وخلافاً للإسرائيليين الذين كانوا يعتمدون على رفض مصر لقرار وقف القتال لكي يتابعوا تقدمهم، اعتقد الحسين أن القرار يمكن أن ينقذه من الهزيمة. وعزز هذا الانطباع تقارير وردت من قادة الميدان -الغازي، والبريغادير تركي في نابلس- تطمئنه بأن وحداتهما مازالت تتمتع بالهمة العالية والنشاط وروح الصمود وأن الجيش مازال قادراً على القتال.

وهكذا في أقل من ساعتين بعد إصدار أمر الإخلاء، تهيأ الملك لإلغائه. سيدخل قرار وقف القتال حيز التنفيذ مع الفجر، وحتى ذلك الوقت، صدرت التعليمات لجميع الوحدات التي هربت إلى الضفة الشرقية بعبور النهر ثانية والثبات في مواقعهم غرب النهر. كما أمر لواء الأمير حسن بن طلال، المعزز بالفدائيين العراقيين، بالتمسك بالطرق المؤدية إلى جسري أريحا والأردن في حين يعاد تجميع بقايا اللواء الأربعين إلى الشرق من نابلس. فقد اعتقد الحسين أنه إذا ما كان بالإمكان الدفاع عن هذه المواقع لمدة أربع وعشرين ساعة فإن كثيراً من الضفة الغربية ومدينة القدس سيتم إنقاذها. (٣٦)

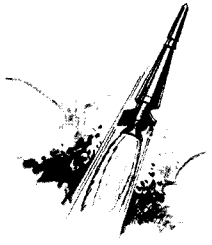

(الحرب: اليوم الثالث ٧ يونيو)

المعركة المصيرية للاستيلاء على القدس

مُزّق «الستار» المصري

تهديدات سوفياتية وجنون أمريكي

أخبر الملك الحسين عبد الناصر بقراره عدم إجلاء جيشه إلى الضفة الشرقية ببرقية قال فيها: «لقد أمرت كل جنودنا في الضفة الغربية لنهر الأردن وفي جميع الجبهات الأخرى أن يتمسكوا بمواقعهم ويصمدوا فيها. وبعون الله سيكون النصر حليفكم وحليفنا أيضاً». أما الرسالة التي بعثها لجنده فكانت لهجتها أكثر عدوانية، رجاهم فيها قائلاً: «اقتلوا العدو حيثما ثقفتموه بأسلحتهم، وأيديكم، وبأظافركم، وبأسنانكم». مذكراً إياهم بما يتناقض مع تلك اللهجة بأن يحترموا وقف إطلاق النار إن احترمته إسرائيل.

وصلت هذه التعليمات إلى عطا علي بعد الساعة ٢,٢٠ صبيحة يوم السابع من يونيو تماماً عندما كانت مكبرات الصوت الإسرائيلية من خارج المدينة القديمة تشجعه ورجاله على إلقاء سلاحهم والاستسلام. وكان القائد الأردني قد أعطى جنوده خيار البقاء في مواقعهم أو التراجع عن أي طريق ممكن. فقاد الميجر بادي عوض الذي نفذت ذخيرته ولم يبق معه من الوقود إلا قليلاً، سيارته الجيب صاعداً جبل الزيتون ومن هناك إلى أريحا عبر الصحراء. لم يكن غيره محظوظين مثله. فمثلاً قاد الليفتنانت غازي إسماعيل ربايعة رجال سريته المئة والعشرين تحت نيران العدو والجوع البائس، وجاب بهم من بيت إلى بيت طالباً إيواءهم، ولكنهم صُدوا. قال معلقاً على ذلك: «عندما تهزم لا يحترمك أحد».

انقضت أيام ثلاثة قبل أن ينجحوا في الوصول إلى البحر الميت ممزقي الثياب وقد هزلت أجسامهم جوعاً. (١)

فيما يتعلق بالملك حسين، لم يكن الوضع مهلكاً إلى هذا الحد عندما طلب من جيشه الصمود، في حين كان جيش مصر يولّي الأدبار. كان من المؤكد أن يغضب ناصر. فبعد أن أصدر الحسين تعليماته بوقت قصير تلقى برقية من القاهرة مضمونها: «استنتجت القيادة العليا لقواتنا المسلحة أن الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى، كانتا، دون أدنى شك، تساعدان إسرائيل». أجاب الملك على البرقية بصورة ملتوية غير مباشرة مؤكداً أنه لم يكن أمامه أي خيار سوى قبول وقف إطلاق النار ونسب قراره هذا إلى «الجبرية الشرقية (الإيمان بالقضاء والقدر). ومع ذلك لا يمكن إهمال الخطر القادم من مصر. فالمظاهرات الناصرية قد عمت شوارع عمان ، وكذلك المحتجون الذين يطالبون الأردن أن تتخلى عن اصطفافها مع الغرب، لتنحاز إلى الاتحاد السوفياتي. وأكثر مشكلة تؤدي إلى عدم الاستقرار هي هروب عشرات الآلاف من الفلسطينيين من غرب النهر إلى شرقه. فإذا ما أضيف عددهم إلى اللاجئين الفلسطينيين الساخطين منذ العام ١٩٤٨ - الذين يشكلون أكثرية الشعب الأردني- فإن هذه الموجة الجديدة من الفلسطينيين المشردين ستشكل تهديداً للحكم الهاشمي.

ومع ذلك، رغم خطورة التهديدات المصرية والفلسطينية المميتة للحسين، فإنها تبدو ضئيلة أمام تهديد إسرائيل له. فقد انطلق لواءا يوري رام، وموشي باركوخفا المدرعين قبيل الفجر من جنين باتجاه نابلس. ولدى تقدم دبابات رام من عرابة إلى طوباس لمهاجمة المدينة في اندفاع غير تقليدي نحو الشرق دمرت ٣٥ دبابة من دبابات الغازي وسدت عليه طريق التعزيزات. وفي حين كانت قوات المشاة ووحدات الاستطلاع قد أخذت تطارد الشاردين فوق جسر دامية -نجحت خمس دبابات في عبوره- واحتلت التشكيلات المدرعة سباسيطا (Sabastia) عاصمة السامرة القديمة. وكان بانتظار الإسرائيليين في نابلس ٢٥ دبابة، كل ما تبقى من الفرقة المدرعة الأربعين، فزودت بتعليمات التمسك بمواقعهم والثبات فيها. قال الكابتن

محمد الداروبي قائد إحدى السرايا متذكراً: «كنا على أتم الاستعداد والحذر للقاء العدو. شاهدنا في الساعة ٦,٣٠ رتلاً من دبابات العدو يقترب. وجاء رتل آخر عن طريق الشارع الرئيسي من عربه. فكانت لنا هدفاً رائعاً فأمطرناها بوابل من قذائفنا. ولكن إطلاقنا النار عليهم كشف مواقعنا، وأدركنا أنها أصبحت مسألة وقت حتى يظهر طيران العدو في الأجواء».

أما في داخل القدس، فلم تكف سوى قوات أردنية رمزية مصممة على مقاومة الهجوم الإسرائيلي المرتقب وشيكاً. لقد انسحب المدافعون عن المدينة القديمة كلهم ما خلا مائة، كما لم يبق في هضبة أوغستا فيكتوريا سوى عدد أقل من ذلك. ومن آخر من اعتقد بأن العرب قد خسروا المعركة هم وجهاء الفلسطينيين بزعامة رئيس بلدية القدس روحي الخطيب، وحاكم المنطقة أنور الخطيب. أما القدس الشرقية إيماناً بأن ناصراً لا يهزم، وأن إسرائيل ستهزم عما قريب لا محالة، فلم تزوّد نفسها بالمؤن للحرب. فلم تخزن مواد طبية للطوارئ، ولم تُنشئ ملاجئ للقذائف والقنابل. ومنذ أن بدأت الحرب أقنع المسؤولون الفلسطينيون أنفسهم بأن الطائرات المحلقة فوق رؤوسهم والدبابات الموجودة على جبل المكبر كانت أردنية، أو حتى عراقية.

وما إن أطلَّ صباح السابع من يونيو، وشوهدت نجمة داوود ترفرف فوق متحف روكفلر، وجنود عطا أيوب تتراجع، حتى لم يعد بإمكان الوجهاء إنكار الحقيقة. فالتمسوا الحسين أن يعلن القدس مدينة مفتوحة لحماية مقدسات المسلمين من الدمار. (٢)

لم يكن الحسين غير آبه بهذه الشؤون. بل العكس، بوصفه سليل أسرة خسرت مكانين من أقدس الأماكن الإسلامية -مكة والمدينة- للسعوديين، فقد كان مصمماً على الاحتفاظ بالمكان الثالث (الحرم القدسي). فحث الفلسطينيين على الثقة بالله وألا يفقدوا الأمل. فبالنسبة إليه، تخلى عن دعوته السابقة «بإنهاء العنف، حسب الوضع القائم» وعبر عن استعداده الآن لقبول وقف إطلاق نار رسمي. وما عليه إلا أن يقنع الإسرائيليين.

ناشد رئيس الوزراء الأردني، جمعة، الأمم المتحدة والسفير بيرنز لإقناع إسرائيل بالإحجام عن احتلال المدينة القديمة، وأن توقف تقدمها إلى نابلس، مضخماً خطورة الموقف، وما يمكن أن ينجم عنه؛ فالنظام الهاشمي برمته سينهار إن فشلوا في إيقاف إسرائيل. ولإثبات إخلاص الأردن أشار جمعة إلى تحدي الأردن اقتراح ناصر بالجلاء عن الضفة الغربية، ورفضه مزيداً من الدعم الجوي العراقي. كما حشد الجنرال خماش ضغطاً على بيرنز، وتوسل إليه أن يوقف «المذبحة التي لا معنى لها» وينقذ الملكية من الانهيار. فأبرق السفير الأمريكي هذه الرسائل على جناح السرعة، مشفوفة بتحذيرات من تقديره الشخصي لسلامة ١٢٠٠ مواطن أمريكي في الأردن، وخطر تدخل السوفيات إذا ما شددت إسرائيل هجومها. وأكد بيرنز حقيقة كون أن الوقت قصير جدا، وأن على الرئيس أن يكلم إشكول مباشرة.

وعندما بلغ الأمر إلى حد إجراء الاتصال، تردد البيت الأبيض، فإن ابتكار الكذبة الكبرى جعلت الإدارة الأمريكية حذرة من اقتراح أي تحرك عسكري على إسرائيل كيلا تبدو متواطئة فعلاً. فكان راسك راغباً على الأغلب في إيصال عرض الحسين بوقف إطلاق النار إلى تل أبيب وينصح حكومتها «بالاهتمام بمصالحها في العالم العربي». مذكراً إياها أن للحسين دائماً نفوذاً معتدلاً في المنطقة، والإطاحة به تولد مخاطر عديدة. (٣)

وصلت برقية راسك إلى القدس الساعة السابعة صباحاً، بعد ساعتين من النشاط المكثف، سياسياً وعسكرياً، بدأ عندما أخبر دايان رئيس الوزارة إشكول أن الجيش الأردني لم يعد يتراجع بل عاد إلى مواقعه السابقة. كان جنود الفيلق العربي يحاولون التمسك بمواقعهم والثبات إلى أن يدخل وقف القتال حيز التنفيذ. فأكد دايان: ألا بد من اقتحام المدينة بسرعة. رغم أن جيش الدفاع الإسرائيلي لم يحاصرها بعد. فوافق إشكول، وعَيَّن دايان بعد أن زوده رابين بخطة الهجوم، حاييم بارليف مشرفاً على العملية. كانت أوامره موجزة: «عليك أن تصل الأماكن اليهودية المقدسة بأسرع ما يمكن ولا تستخدم أسلحة ثقيلة».

اتصل بارليف على الفور بناركيس يقول: «هنالك خطر اتخاذ مجلس الأمن قراراً بوقف إطلاق النار فعليك اقتحام المدينة القديمة ودخولها على الفور. ولكن تقدم بحذر - استخدم عقلك». فاتصل ناركيس بدوره لاسلكياً بغور في متحف روكفللر وأمره بالاستيلاء على هضبة أوغستا فيكتوريا في الحال وتحريك رجاله من بوابة هيرولد إلى بوابة ليونز (بوابة الأسود) التي شفرها جيش الدفاع الإسرائيلي باسم «فيتنام» بوصفها أقرب بوابة إلى الجدار الغربي. كان رئيس القيادة الوسطى تواقاً للبدء بالمعركة. اعترف لهيئة ضباطه بعد الحرب، قائلاً: «تركت في تجربتي القتالية في القدس في العام ١٩٤٨ جرحاً عميقاً، ففي القدس، حسب معرفتي، لن تستطيع أن تنجز غداً مالم تستطع إنجازه اليوم».

كان مناحم بيغن يشارك ناركيس مخاوفه. ولدى سماع بيغن بوقف قتال وشيك في نشرة أخبار ال BBC الساعة الرابعة، هتف إلى دايان، مؤكداً: «أن قرار مجلس الأمن يغير الوضع كله، فيجب ألا ننتظر ثانية أخرى». فأجاب دايان متذمراً: «لست بحاجة إلى مزيد من النصائح... لقد أصدرت أوامري بدخول المدينة حتى ولو لم تكن قد حوصرت».

ثم نصح بيغن بالتشاور مع إشكول. شرع بيغن الاتصال بمكتب رئيس الوزارة وبعد الاعتذار عن إزعاجه، حاول إقناع إشكول بعقد اجتماع طارئ لمجلس الوزارة في الساعة السابعة على أبعد حد. وفي الوقت نفسه أجاز دايان استخدام الدبابات والطائرات بصورة محدودة للمساعدة على اقتحام المدينة وتسهيل دخولها. صدرت الأوامر مع تحذير صارم ضد قصف قبة الصخرة، والمسجد الأقصى، والمذبح المقدس، لأن إحداث ضرر بأي منها سيشعل أزمة دولية ثانية.

فتحت المدفعية الاسرائيلية نيرانها على الحي المسلم في الساعة السادسة صباحاً. وبعد ساعتين أمطرت مدفعية جيش الدفاع الإسرائيلي المنطقة المحيطة بأوغستا فيكتوريا وابلاً كثيفاً من قذائفها تبعها إسقاط قنابل نابالم من الطائرات

الإسرائيلية. فتحولت الخنادق المحيطة بالمشفى التي بناها قيصر ويلهيم (Kaiser Wilhelm) في العام ١٩٠٩وأسماها باسم زوجته، إلى مصائد موت. وقال محمود أبو فارس قائد إحدى السرايا: «وجدت أحد أصدقائي وقد تغضن جسمه حتى أصبح بحجم الكف». هرب القلة الباقية من الأردنيين، فوجد المظليون الذين وصلوا على الفور -الكتيبة ٧١ من جبل المكبر، والكتيبة ٦٦ من وادي الجوز- الهضبة التي كانت تقاوم بشراسة مهجورة تماماً. أما الإصابات الإسرائيلية فمعظمها كان بإصابات ذاتية: قتل تسعة وجرح أحد عشر بقذائف مدفعية طائشة.

تابع المظليون تقدمهم جنوباً، واستولوا على الفندق الدولي المشاد على جبل الزيتون وأقدم مقبرة يهودية في العالم، ومن ثم استولوا على «أبو ديس» منجزين بذلك الإحاطة بالمدينة. ومن هناك نزلوا إلى حديقة غيثسيمان (Gethsemane) حيث اعتقل السيد المسيح، ومسرح المعركة الرهيبة التي جرت ليلة أمس مع الأردنيين. كانت أمامهم المدينة القديمة وبوابتها التي أشادها السلطان المملوكي بيبرس في العام ١٣٢٠ ومازالت مزيّنة بدرعه الشبيه بالأسد. أرسل غور مستبقاً الأحداث، رسالة إلى قادة كتائبه (انظر صورة الغلاف الورقي للكتاب): «إننا نحتل المرتفعات المطلة على المدينة القديمة. ولسوف ندخلها قريباً جداً. سنكون أول من دخل مدينة القدس القديمة التي مازلنا نحلم بها ونقاتل من أجلها منذ أجيال الأمة اليهودية بانتظار انتصاراكم. وإسرائيل تنتظر هذه الساعة التاريخية فافتخروا. حظاً سعيداً». (٤)

لم يكن هذا هو توقع الجيش وحده، على أية حال. فالشعب كله كان متلهفاً إلى تحقيق هذا التوقع. فكانت أغنية «القدس من ذهب» التي أنشدت أول مرَّة يوم الاستقلال، تصدح بها اليوم جميع أجهزة الراديو الترانزيستور. لم ينم تيدي كوليك (Teddy Kollek) منذ ستين ساعة، بيد أن ذلك لم يعقه عن الاندفاع إلى فندق الامباسادور (Ambassador Hotel) الأردني سابقاً ليقيم مقر بلدية مؤقت للمدينة التي سيعاد توحيدها قريباً. وهناك التقى كوليك المولود في فيينا، التابع المقرب من بن غوريون، صدفة بحاييم هيرتزوغ (Chaim Herzog) شقيق ياعكوف Ya'akov

المحامي الخريج من كمبردج ورئيس مخابرات جيش الدفاع الإسرائيلي مرتين. كان هيرتزوغ يتحدث بانتظام عبر الإذاعة، منذ أن نشأت الأزمة، محللاً الوضع تحليلاً مهدئاً واقعياً متزناً. أما الآن فقد كان منفعلاً جداً بحيث لم يعد يطيق البقاء في استديو الإذاعة، بل هرع نحو المدينة القديمة.

صادف هيرتزوغ في طريقه الحبر شلوموغورين (Shlomo Goren) قسيس جيش الدفاع الإسرائيلي. كان غورين العالم المظلي ذو اللحية، المثير للقلاقل قد وصل قبل قليل من سيناء حيث أصيبت نصف المجنزرة التي كانت تقله إصابة مباشرة وقتل سائقها، مسلحاً بلفافة التوراة وبقرن كبش، التقى الحبر غورين بغور في متحف روكفللر وحذره قائلاً: «لن يغفر لك التاريخ إن جلست هنا وفشلت في دخول (المدينة القديمة)». أما هيرتزوغ، فكان أكثر سماحة، إذ وعده بمكان في الآخرة إذا أقنع الحكومة بتحرير القدس. (٥)

بيد أن الحكومة مازالت بحاجة إلى إقناع، إذ تلقت قبل قليل برقية من راسك ينصح فيها إسرائيل بقبول وقف إطلاق النار.

سأل إشكول اجتماعاً مرتجلاً للوزراء القياديين والمستشارين قائلاً: «ماذا؟ إذن ماذا نقول للحسين؟» لم يكن أمامه برقية راسك فقط، بل رسالة مماثلة من هارولد ويلسون، أيضاً يطلب فيها من إسرائيل أن تراعي وقف القتال مع الأردن. ومن نيويورك، بعث إيبان بتقرير يتضمن مناشدة من غولد بيرغ يقول فيها باسم الرئيس: إن استمرار الحرب مع الأردن ربما يوقع إسرائيل «في تعقيدات دولية خطيرة». وأضاف إيبان قائلاً: «لا خيار لنا إلا قبول القرار، والأمل في أن ينتهكه العرب».

كان رأي دايان: «كل كلمة نقولها ربما تعقد الأمور. علينا أن نكون حريصين جداً». واقترح دعوة الملك إلى لقاء سري، دون إعطاء أية وعود. واقترح ياعكوف هيرتزوغ أن تكمل إسرائيل احتلالاتها على الجبهة الشرقية وبعدئذ يبدأ الحوار مع الحسين، في حين أصر أريه ليفافي (Arge Levavi) أن يطرد الحسين رياض والضباط

المصريين الآخرين أولاً كشرط مسبق لأية صفقة. فعلق إيغال ألون: «سيكون ذلك موت الملك». وتساءل إشكول عما إذا كان قبول إسرائيل لوقف إطلاق النار سيرتبط بإجراء مباحثات سلام فورية مع الملك حسين. وأردف يقول متأملاً: «ربما نسأل فقط من هو الزعيم في الأردن؟».

وفي النهاية أصبح سؤال إشكول هو جواب إسرائيل إلى راسك: «هل الحسين يسيطر فعلاً على جيشه، وإن كان كذلك، فهل يستطيع تأكيد ذلك؟ وطالما أن الإسرائيليين يدّعون أن القدس الغربية مازالت تقصف، فإنهم يصرون على معرفة اللحظة التي يتوقف فيها القصف بالضبط، وأين يمكن أن يلتقي الممثلون الأردنيون والممثلون الإسرائيليون لبحث وقف إطلاق النار و(السلام الدائم)؟».

كان الإسرائيليون يدركون أن فرص استجابة الحسين إلى هذه المطالب بصورة إيجابية، ضئيلة جداً. ومع ذلك ظل الإنذار مقامرة، مع وجود قواتهم على بعد ياردات من دخول المدينة القديمة. فإن قبل الملك شروط الإنذار، حتى ولو نظرياً، فإن فرصة استعادة الجدار الغربي والمواقع المقدسة الأخرى -وآمال اليهود منذ ألفي سنة- ربما تضيع.

كان رد الأردن ذا وجهين، مراوغاً وغير مباشر. إذ قال رئيس الأركان الأردني خمَّاش، إلى بيرنز بأن ليس للجيش أي اتصال بالقدس، وما من سبيل لمعرفة ما إذا كانت مدافعه مازالت تقصف مواقع العدو. ودعا رئيس الوزراء جمعة، السفراء الغربيين، وشكا لهم انتهاكات إسرائيل المتكررة لوقف إطلاق النار. وقال موضحاً: «لقد وصلت الأردن إلى الحدود القصوى من الصبر». ثم حذرهم من هجوم معاكس كبير. ٦ وفيما عدا ذلك، ساد الصمت للمرة الثانية منذ بدء الحرب، يتجاهل الحسين مناشدة شخصية من إشكول. إذ جرى تحدي الإنذار فعلياً.

في الساعة ٩,٤٥ صباحاً أطلقت دبابات شيرمان مدافعها مباشرة على بوابة ليونز (Lions Gate) التي ترتفع ١٢ متراً، فدمرت حافلة ركاب كانت وضعت في البوابة لإغلاقها، ثم نسفت الباب. ثم اندفع الإسرائيليون بقيادة نصف مجنزرة يقودها الكابتن يورام زاموش (Yoram Zammush)، أحد اليهود المتعصبين الذي وعده غور أن يكون أول الواصلين إلى السور الغربي.

أطلق الأردنيون نيران بنادقهم من على الأسوار وأسطح المنازل حول الساحة داخل البوابة، ولكن الهجوم كان غامراً. تقدمت الدبابات بتثاقل مقرقعة، لتجد نفسها قد حشرت في أزقة ضيقة. مرت مجنزرات، كانت إحداها تقل موتاغور (Motta Gur) وهيئته من جانب مركبة زاموش بتؤدة وحذر نحو فيادولوروسا (Via Dolorossa) بما فيها من محطات للصليب المقدس عند المسيحيين. وانتشرت وحدات أخرى نحو بوابة دمشق عبر الحي المسلم، وبوابة يافا عبر الحي المسيحي.

وفي الوقت نفسه تسلقت سرية من لواء القدس بقيادة الكابتن إلي كيدار (Eli Kedar) جبل صهيون على الزاوية الجنوبية الشرقية من المدينة القديمة، متجهة نحو بوابة صهيون حيث أجهضت محاولات إسرائيل لاختراقها في العام ١٩٤٨. وكان كيدار هذا قد أسر في تلك المعركة وكان عمره خمسة عشر عاماً، أما الآن فقد عاد يزحف عبر باب صغير في باب البوابة* ليخرج إلى حي الأرمن. تبعه خمسون رجلاً وساروا إلى الحي اليهودي السابق، الذي كان قد نهب وسكنه المسلمون فوجدوا سكانه قد اكتسوا بأعلام الاستسلام. قاد كيدار قوته إلى بوابة النفايات (Dung Gate) -إذ كانت في زمن الهيروديين قناة للتخلص من النفايات- حيث يلتقي بمظلليي اللواء ٧١ الذين اقتربوا من وادي كيدرون (Kidron) في الشرق.

ثم دخل غور ورجاله إلى الساحة المحاطة بالأشجار الغارقة في السكون، المعروفة عند المسلمين بالحرم الشريف، وعند اليهود بجبل الهيكل (هاربايت - بالعبرية). كان هذا الموقع -الحرم والهيكل- حيث قُيد إسماعيل وعرج محمد منه إلى السماء، كما يعتقد - مكاناً مقدساً بلا منازع، عند الملايين. وصف أريك أخمون (Arik Akh-mon)، ضابط المخابرات، تلك اللحظة كما يلي: «يصل المرء إلى هناك على متن نصف مجنزرة بعد يومين من القتال، ومازالت الطلقات تملأ الأجواء، ثم فجأة يدخل إلى تلك الفسحة المفتوحة الواسعة التي كان يراها الجميع في الصور، وعلى الرغم من أنني لست متديّناً، لا أظن أحداً دخلها دون أن تغمره العواطف. لقد حدث شيء

* هذا الباب الصغير الموجود في إطار الباب الكبير، يسمى في فلسطين "خُوِّيخة".

خاص». وبعد مناوشة قصيرة مع «البواردية» الأردنيين، تحدث غور(Gur) لاسلكياً مع ناركيس بكلمات ثلاث (بالعبرية) وسبع (بالإنكليزية) ستظل تُردَّد عقوداً قادمة:«هارباً باييت بيادينو «-بالعبرية؛ جبل الهيكل بأيدينا - بالعربية» The Tenpl Mount is in our hands - بالإنكليزية».

استقبل غور وفداً من أعيان المدينة عرضوا عليه استسلام المدينة، وتسليمه الأسلحة التي كانت قد جمعت في المساجد. ولدهشتهم أطلق الجنرال سراحهم وسمح لهم بالعودة إلى بيوتهم. ولكنه، ولا أي واحد من هيئته، كان يعرف كيف يصل إلى السور الشرقي، فاضطر إلى سؤال رجل عجوز ليرشده. فأرشده ذلك العجوز عبر بوابة المغاربة ليخرج من جنوب السور تماماً. كان ذلك الجدار المبني من حجارة مربعة منحوتة الذي بناه الملك هيرود، هو الجزء المتبقي من الهيكل الثاني الذي دمره الرومان في العام٧٠. لم يصل اليهود إلى هذا المزار الأكثر قدسية عندهم، منذ ١٩ عاماً.

عندما نزل غور، تجمع الرجال من لواء القدس ولواء المظليين ال ٧١ على الجدار وقد غمرتهم النشوة غير آبهين بنيران القناصة التي كانت تطلق عليه. أما الحبر غورين فقد انفلت من الجنود الثلاثة الذين عينهم غور لكبحه، وهرع راكضاً مباشرة إلى الجدار، وصلى صلاة المشيّع، ونفخ في بوقه، ثم أعلن قائلاً: «أنا، الجنرال شلوموغورين رئيس أحبار جيش الدفاع الإسرائيلي، قد جئت إلى هذا المكان كيلا أبرحه ثانية أبداً.» واندفع الجنود المحتشدون في فسحة ضيقة بين الحجارة والمساكن الآيلة للسقوط من حي المغاربة ينشدون أناشيد عفوية وصلوات، ومن فوق رؤوسهم ترفرف نجمة داوود. (٧)

لم يضع إشكول وقتاً في وضع الأماكن المقدسة تحت رعاية السلطات الدينية ذات العلاقة-أحبار، ورجال دين مسلمين، الكنيسة الكاثوليكية. وكان قصده أن يزور بنفسه المدينة القديمة، ولكنّ الجيش نصحه ألا يفعل بسبب استمرار نيران القناصة.

ومما كدَّر إشكول أنه علم بتجاهل وزير دفاعه لنصيحته. إذ قام دايان بصحبة رابين ونواركيس بزيارة إلى جبل الهيكل في موكب مشى دايان، فيه مشية المنتصر طالباً التقاط صور فوتوغرافية لذلك الموكب. وهناك اقترح على نواركيس هدم ذلك الجزء من أسوار المدينة القديمة - كممارسة قديمة ترمز إلى الفتح والاحتلال. وكان لدى الحبر غورين فكرة، وهي: إزالة جميع مساجد الهيكل بما هو متوافر لدى جيش الدفاع الإسرائيلي من متفجرات تمهيداً للعهد المسيحي الوشيك. أهمل نواركيس الاقتراحين. إذ كان اهتمامه منصباً على حفظ النظام وتحقيق الأمن اللازمين لتوطيد الحكم الإسرائيلي للمدينة. كتب قائلاً: «لقد هيمنت علي فكرة أن قدري هو أن أكون وسيلة لتحقيق تلك المهمة».

ولدى وصول دايان إلى الجدار الغربي راعى تقليد كتابة صلاة على ورقة وإدخالها بين الحجارة - وتقول الشائعة إنه كتب دعاء للسلام. وبغموضه المعهود، إذ يكون عسكرياً، وسموحاً بآن واحد، أعلن: «لقد أعدنا توحيد المدينة، عاصمة إسرائيل، كيلا تنفصل ثانية أبداً... أما جيراننا العرب فإننا نمد إليهم الآن يد السلام».

كان رابين يصغي إلى كلمات دايان ويشاهده بخوف من مشهد مئات الجنود الذين التحقوا بيهود متعصبين جداً، في حلبة رقص. وعبر عن شعوره آنذاك بقوله: «كانت تلك ذروة حياتي... إذ كان يراودني حلم خفي منذ سنين بأن لي دوراً... في استعادة الجدار الغربي للشعب اليهودي... لقد تحقق هذا الحلم الآن، وفجأة أخذت أتساءل لماذا أنا، من دون الجميع، منحت هذا الامتياز» وكانت كلماته التي كتبها على الجدار أقرب إلى كلمات نبي منها إلى كلمات جندي:

«لم تذهب تضحيات رفاقنا سدى... تقول لكم الأجيال التي لا حصر لها من قتلى اليهود وشهدائهم والذين ذبحوا من أجل القدس: فلتهنأ بالراحة والطمأنينة، يا شعبي؛ والعزاء للأمهات والآباء الذين حققت تضحياتهم خلاص الشعب». (٨)

سيطرت البهجة والنشوة على الحكومة. فأخذ بيغن يطالب بأن يعاد بناء الحي اليهودي على الفور ويستوطن بآلاف الإسرائيليين. ولدى سماع إيبان الموجود في نيويورك بنبأ الانتصار كتب يقول: «فيض من العواطف التاريخية نسف سدود الكبح

وأطلق العقول والقلوب في حركة تجاوزت حدود أرضنا». حتى أشد الناس معارضة للحرب، وزير الشؤون الدينية زوراخ وورهافتيغ (Zorach Warhaftig) قال متذكراً: «فاض قلبي سروراً» عندما اندفع ليقبل الجدار الغربي ويعانق دايان ورابين. أما إيغال يادين المستشار العسكري الخاص لرئيس الوزراء فقد أخذ يفكر على الفور بالهدف التالي- ألا وهو الخليل. فذكرَّ إشكول، الذي ظل هادئاً من دون الوزراء كلهم، قائلاً: «لنا تاريخ طويل مع الخليل يعود إلى إبراهيم». إضافة إلى إحساس إشكول بالاكتئاب بسبب موت ٩٧ مظلياً في المعركة وجرح ٤٣٠، كان حذراً من احتلال عدد كبير من الشعب الفلسطيني المعادي. فسأل: «هل فكرتم كيف يمكن أن نعيش مع هذا العدد الكبير من العرب» فجاء جواب يادين متهوراً وقحاً: «الحقيقة، يا فضيلة الرئيس، هي أنه ما إن تصل قواتنا حتى يهربوا -(الفلسطينيون) - إلى الصحراء». (٩)

كان زخم التقدم الإسرائيلي في واقع الأمر، جارفاً لا يمكن إيقافه على ما يبدو. ففي اللحظة التي تسلق فيها مظليو موتاغور الجدار الغربي، كانت دبابات بن أري قد وصلت مشارف أريحا. كانت أولى عدة معارك عنيفة نشبت غربي نابلس، في حين كان المشاة الإسرائيليون، جنوب القدس، يكتسحون الدفاعات المحيطة بدير مارالياس. وبعد ذلك تأتي بيت لحم والخليل. كان الجنود الأردنيون في فوضى كاملة تاركين مركباتهم مندفعين نحو الضفة الشرقية طلباً للسلامة. وجد المهاجمون، وسط حطام كتلة عصيون (Etzion Bloc) وهي كتلة مستوطنات خارج القدس دُمرت في العام ١٩٤٨، عشرين دبابة باتون في حالة جيدة. وكان عدد مماثل أيضاً قد غرّز في أوحال أريحا. فتقلصت قوة الأردنيين بمقدار ٨٠٪ كما قال رئيس الوزراء جمعة إلى بيرنز، وادعى أن الإسرائيليين مصممون على تدمير الباقي. جرى الإجلاء بخطوات أبطأ؛ لأن الطرق قد غصت باللاجئين.

ظهر الحسين أمام هيئة أركانه العامة في مطلع مساء ذلك اليوم. وتحدث عن الحاجة إلى لم شعث ما تبقى من القوات للدفاع عن الضفة الشرقية، وعن أمله المستمر في التعزيزات. إن الحاكم العربي الوحيد وثيق الصلة بالحرب الفعلية الذي

بدا لواحد ممن رأوه: «مصعوقاً، مكتئباً، ذليلاً» فقد خسر نصف مملكته بكل ما فيه من موارد وعوائد - سياحية وزراعية. وجيشه تحطم. ولم تستطع البرقية الأخيرة التي وصلته من القاهرة تعزيته، والتي مفادها أن عبد الناصر معجب بقرار الحسين إخلاء الضفة الغربية، ونظراً للحاجة إلى الضغط الدولي لإنقاذ القدس، فقد استثني الحسين من قطع العلاقات مع الغرب. (١٠)

ويسدل «الستار»:

إن رغبة الحسين بقبول وقف إطلاق النار - وإن لم يكن راغباً في طرد المصريين- نبه القادة الإسرائيليين إلى أن نهاية الحرب قد أصبحت وشيكة. إذ أخذ الرمل في الساعة الرملية ينفد كما قال رابين؛ وفي ضوء تلك الحقيقة أمر البدء فوراً بتنفيذ عملية الأضواء (Operation Lights) لاحتلال شرم الشيخ، المقررة أصلاً في تلك الليلة.

بدأت العملية كما هو مخطط لها بسبر بحري للدفاعات المصرية. وكان المفروض أن تتضمن هذه العملية كتيبتي مشاة ووحدات مدفعية، ومضادات للطيران، وغواصة. أظهرت طلعات الاستطلاع الجوي في الساعة الرابعة صباحاً أن المنطقة كانت مهجورة عملياً. ومع ذلك رفض رابين الاطمئنان، إلى ذلك فأرسل بعد نصف ساعة تشكيلة من ثلاثة زوارق صواريخ إسرائيلية وفتحت النار على بطاريات العدو الساحلية. وفي الوقت نفسه استعد المظليون والفدائيون لركوب طائرات نورأتلاس (Nortatlas) ومروحيات للهجوم على الطور (Al-Tur)، وعلى خليج السويس، وللهجوم البري على تيران .

بيد أن الإسرائيليين لم يكونوا يدركون أن الـ ١٦٠٠ جندي مصري الذين كانوا في المضائق مازالوا في مواقعهم. وبناء على أوامر عامر، لم يكن لحامية شرم الشيخ أي اتصال بقيادة الجيش في سيناء، وكانت تتلقى أوامرها المشفرة مباشرة من القاهرة. قال الجنرال عبد المنعم خليل، القائد المحلي، متذكراً: «لم نكن نعرف شيئاً عن الحرب إلا ما نسمعه من الراديو. ولكن في السادس من يونيو تلقيت تعليمات من

عامر بالتراجع. نفذت الأوامر». رُوّع ضباط الجنرال خليل. قال أحدهم، هو محمود عبد الحافظ، «لقد صدمنا. إذ استمر الراديو ببث أغاني النصر والبيانات عن تدمير سلاح الجو الإسرائيلي وأن قواتنا على أبواب تل أبيب» وبسبب الافتقار إلى الوقود الكافي لقطع مسافة ١٨٠ ميلاً على طول خليج السويس، قطع عبد الحافظ ورجاله معظم المسافة مشياً على الأقدام: «لا أستطيع أن أصف لكم مشاعرنا ونحن نتراجع عن شرم الشيخ. كدنا ننفجر بكاء؛ لأننا لم نستطع تصديق ما كان يحدث. فنحن لم نر جندياً إسرائيلياً قط».

وصلت أنباء سقوط شرم الشيخ فعلياً إلى مرتجى بُعيد منتصف الليل. فأصدر تعليماته، مضطرباً، إلى عناصر المدرعة الرابعة لتعزيز المواقع على الفور. ولكن الفرقة الرابعة كانت أول فرقة عبرت قناة السويس من سيناء. إذ كان الميجر جنرال صدقي الغول قد تلقى أوامره من عامر شخصياً، وادعى فيما بعد جهله بأوامر مرتجى.

لقد ثبت لرابين بموجب التقارير الواردة من سلاح الجو ومن الأسطول أخيراً، أن معظم المصريين قد هربوا. وبدلاً من أن ينزل المظليون في الطور، وجهوا للنزول مباشرة في شرم الشيخ حيث قتلوا في معركة ضارية التحم فيه المقاتلون عشرين مصرياً وأسروا ثمانين آخرين. وفي الساعة ١٢,١٥ بعد الظهر أعلن دايان أن المضائق ممر مائي دولي مفتوح لجميع السفن دون أية قيود. أبحرت ناقلة النفط الإسرائيلية دولفين التي كانت راسية في ماساوا (Masawa) إلى إيلات، في حين أبحرت باخرتان من إيلات إلى إفريقيا.

أصبح البحر الأحمر مفتوحاً كذلك للملاحة الإسرائيلية، ولكن ليس إلى قناة السويس. لم يهتم دايان بذلك. وعندما علم أن دورية الاستكشاف من جيش الدفاع الإسرائيلي قد انطلقت إلى الممر المائي، أمرها على الفور بالانسحاب. وظل وزير الدفاع الذي ما زالت صدمة العام ١٩٥٦ ماثلة في ذهنه يعارض أي عمل يمكن أن يسفر عن إغلاق القناة، وإغضاب مستخدميها من الدول البحرية، ثانية. (١١)

ووفقا لذلك أصدر تعليماته للقوات الإسرائيلية ألا يتجاوزوا ممري المتلا والجدي اللذين يهيمنان على الطرق المؤدية إلى سيناء ويشكلان خط دفاع مثالي ضد أي هجوم مضاد. بيد أن زخم الحرب في الجنوب كان أسرع وأقوى مما كان يتوقعه دايان نفسه.

وبموجب الخطة التي وضعت مع الجنرال غافيش في جبل لبني الليلة الماضية، كانت الفرق الثلاثة تتحرك. تابعت القوات بقيادة الجنرال تل تقدمها في اتجاهين - جنوباً إلى بيت لهفان مع اللواء السابع المدرع بقيادة غونين، وعلى طول الساحل بوحدة غرانيت (Granit) المؤلّه. انطلق غونين من معقل جبل لبني ليضرب مؤخرة الفرقة المصرية الثالثة المحصنة تحصيناً قوياً، في بير حَمَّه (Bir Hamma)، ومن ثم ليتجه أربعين ميلاً غرباً إلى بير غفغفة (Gafgafa). كان هدفه قطع طريق النجاة الرئيسي على الفرقة الرابعة، الذي يمر عبر جسر فردان (Firdan) فوق قناة السويس.

وكانت فرقة يوفي (Yoffe) تشق صفوف الفرقة الثالثة نحو الجنوب عبر بير حسنه (Bir Hasana) وبير الثمادا (Bir al-Thamada). لم تكن فردان هدفاً يومياً، على أية حال، بل هدفه دخول الممرين والفرقة الثانية المتراجعة. وأسرع شارون في أقصى الجنوب إلى قطع الصحراء إلى نخل (Nakhl) أملاً في أن يحصر قوة الشاذلي ويصطادها قبل أن تصل إلى الممرين.

أسرع الإسرائيليون ولكنهم أعيقوا بالمصريين المتراجعين. إذ كانت الطرق غاصة بالمركبات الهاربة والحطام المحترق، الأمر الذي جعل التقدم بطيئاً، بل مستحيلاً في بعض الأحيان. لم يعد الإسرائيليون يأخذون أسرى فيما عدا الضباط وصف الضباط، ولكنهم كانوا يشجعون المجنَّدين على الهرب نحو القناة، أو حفاةً إلى الصحراء. وكان على الدبابات الإسرائيلية، وهي في طريقها إلى بير غفغفة وبير الثمادا أن تحرف طريقها عبر الأرتال المصرية لتقطيعها وتدميرها. يتذكر أحد شهود الكارثة، اسمه محمود السوارقة (Mahmud ald - Suwarga) سائق في الفرقة السادسة:

«كنا ننتظر تنفيذ أوامرنا والتقدم نحو إيلات عندما اختفى فجأة في ٧ يونيو، قادة الكتائب والسرايا معاً، وعلمت فيما بعد أنهم هربوا عبر القناة، تركت سيارتي الجيب والتحقت برتل متراجع إلى نخل حيث تعرضنا لهجوم جوي. ثم التقينا، عند ممر متلا، بالإسرائيليين الذين كانوا قادمين من السويس، على ما يبدو. فأطلقوا علينا قذائف وصليات من رشاشاتهم، وبعد ذلك لم أشعر بشيء، عدت إلى وعيي في مركبة إسرائيلية مبللاً بدمي».

ظلت بعض الوحدات المصرية المبعثرة، تبدي مبادرات ومرونة وندرة على التكيف مع الواقع، فدبابات T-٥٥ المتخندقة حول المنشآت العسكرية المنتشرة هنا وهناك في بير غفغفة ثبتت في مواقعها في وجه دبابات تل المتقدمة. فُقدت حوالي ١٢ دبابة T-٥٥، وخمسين ناقلة جنود مدرعة، ولكن المصريين أوقفوا الإسرائيليين فترة كافية لنجاة معظم الفرقة الرابعة عبر القناة. كما أمطرت فرقة شارون التي غرقت في ضفاف نهر موحلة بنيران صواريخ أجبرتها على تغيير اتجاهها مباشرة إلى قلب «نيران صديقة» تتبارز مع دبابات فرقة يوفي، مَكَّنت هذه الإعاقة قوة الشاذلي من الإفلات من المصيدة التي كان يخطط لها شارون، كما نجح المدافعون عن حصن القُسيمة بالهرب كذلك. وفي هذه الأثناء، تابع الطيران المصري، رغم قلته، القيام بغارات، مستفيداً من قرب قواعده من الجبهة. قال ضابط إسرائيلي طبيب ورد اسمه في السجلات: أشر Asher: «ثلاث مرحات لسلاحنا الجوي» ظاناً أن طائرات الميغ هي طائرات ميراج إسرائيلية:

«اقتربت الطائرات، وبدت كأنها تنقض علينا. كنا، لسبب ما واثقين جداً بأنفسنا، ومتأكدين، في ذلك اليوم الثالث من الحرب، أنه لا يمكن أن تكون هناك طائرة مصرية سليمة. على أية حال أطلقت هذه الطائرة النار، وصرخ أحد الضباط قائلاً: «طائرات ميغ، انتشروا بسرعة» فركضنا كالمجانين بين الكثبان الرملية. كانت الطائرة تحوم فوقنا وتطلق نيرانها. وكانت تشبه ما يجري في الأفلام - إذ يسمع

المرء صوت بب، بب، بب (pap، pap،pap)». فننظر إلى الأعلى فنشاهد مزيداً من طائراتهم. وتشكل سرب من ثلاث طائرات ميغ واستعد لضربنا. فألقينا بأنفسنا على الرمل على بعد ستين متراً عن الطريق، ثم انضمت الطائرة التي أطلقت علينا النار إلى الثلاثة الأخريات اللاتي كن بانتظارها، وشرعت الطائرات الأربع بقصفنا».

ضربت قاذفات اليوشن ٢٨ قوة غرانيت إلى الغرب من روماني: (Romani) وأصيب رفائيل إيتان، قائد المظليين، بجرح خطير، ومع ذلك لم تكن تلك الغارات ذات أثر كبير، إذ خسر المصريون أربع عشرة طائرة أخرى فيما يسمى بهجمات انتحارية ضد قوات غامرة. (١٢)

لم تعد عمليات حماية المؤخرة بقادرة على إيقاف مدّ التراجع المصري، بل وأقل قدرة على عكسه. قال ضابط الأمن عَزَّام شيراحي: (Azzam Shirahi) وكانت القوات المصرية في حال من الفوضى المطبقة: «وعندما اقترب الإسرائيليون صدرت تعليمات للشراحي بأن ينسف المنشآت المتبقية في بير غفغفة. قال متذكراً ما حدث: «لقد دمّرت ببساطة قاعدتي. الشيء الوحيد الذي لم أستطع نسفه وهدمه هو الجامع». أما الدكتور عبد الفتاح الطريقي (Abd al-Fattah al- Tariki) طالب العلوم الإنسانية، ضابط احتياط في اللواء المدرع الثاني، فقد قال: «فقد الجميع رؤوسهم، قيل لنا انسحبوا إلى بير التمادا، وعندما وصلناها وجدنا ألسنة اللهب تلتهم جميع المواقع، وكان الجيش على الطرقات في حالة انهيار تام. كانت مذبحة، كارثة، ما كانت إسرائيل لتحرز ربع نصرها لولا هذه الفوضى، وهذا التشويش». (١٣)

انهار كذلك خط الدفاع المصري الثاني - الستار «الأكثر تحصيناً، كما هو معلن، وعلى الرغم من محاولة بعض الجنرالات مثل صلاح محسن قائد اللواء المدرع الرابع عشر، لتنظيم الانسحاب، فإن غالبية الضباط الكبار قد هربوا قبل رجالهم. قال ضابط عمليات اللواء الشربيني سعيد حمادة متذكراً: «رغم أنهم (الإسرائيليين) قد أحاطوا بنا، فقد كان عليهم أن يخترقوا خطوطنا. ولكن جاءنا الأمر بالتراجع - لماذا؟ لا ندري - فتحول الوضع إلى هرج ومرج وفوضى كأنه مشفى مجانين».

كان مرتجى، نفسه، أحد آخر القيادات التي تغادر الجبهة. إذ بقي قائد القوات البرية المصرية في الجبهة بعد أن نقل مقر قيادته غرباً لتلافي ضربات العدو الجوية، ومع ذلك حدد الميجر الجنرال سعد عبد الكريم رئيس الشرطة العسكرية، موقع مرتجى في الساعة ٢,٣٠، ونصحه بالجلاء فوراً وإلا تعرض للأسر. علق أحد المؤرخين العرب فيما بعد على هذه الحادثة بقوله: «من الأمور الأكثر إثارة للسخرية أن الجبهة الشرقية أصبحت تتلقى أوامر القيادة العليا من ضباط أدنى مرتبة»(١٤). سواء كان ذلك مثيراً للسخرية أم لا، فقد نفذ مرتجى تعليمات رئيس الشرطة العسكرية. إن الجيش المصري الذي كان ذات يوم من أعلى الجيوش بنية وأدقها، ترك الآن بلا بنية إطلاقاً.

ولكن حدث بعدئذ مساء ذلك اليوم تطور أريد به تغيير الوضع جذرياً وإنقاذ مصر من انهيار، وتهديد إسرائيل بالهزيمة. إذ إن الحلف العربي الرئيسي الذي كان صاخباً عالي الصوت قبل الحرب ولكنه صمت منذ اندلاعها، قد ذهب الآن فجأة واستجمع قواه للدفاع عن قضية العرب.

سأل السفير السوفياتي في وزارة الخارجية الإسرائيلية صباح يوم الخامس من يونيو: «أين الحرب؟» وبما أن الاتحاد السوفياتي قد أخذ على حين غرة بنشوب المعارك، فقد بذل قصارى جهده خلال الأربع والعشرين ساعة التالية ليراقبها.

ولم يتلق فيديرينكو ضوءاً أخضر للسعي إلى وقف القتال إلا بعد أن انجلى الموقف وظهر أن مجرى المعارك يسير لصالح إسرائيل.. ولكن حصل عندئذ اضطراب في العلاقات العربية السوفياتية، ففي حين كان السوفيات يرغبون في وضع نهاية سريعة للقتال، كان المصريون والسوريون، اعتمادا على المساعدة السوفياتية، يرغبون في استمراره.

والواقع أن الأجهزة السوفياتية أعلنت عن مساعدات كبيرة للعرب. فصحيفة البرافدا، مثلاً، صرحت أن الحكومة السوفياتية، ما زالت وفية لوعودها بمساعدة ضحايا العدوان.. وتحتفظ بحقها في اتخاذ كل الإجراءات التي يتطلبها الوضع.

«واستخدم فيديرينكو الصيغة نفسها في تعليل صوته في مجلس الأمن يوم السادس من يونيو. ولكن العرب لم تعجبهم أن (كل الإجراءات) تتمخض عن قبول ما لا يريدونه وهو وقف القتال الذي أتاح لإسرائيل بالاحتفاظ بالأراضي العربية المحتلة. واستخلص أحد تقارير الـ (CIA) أن هذا العمل نفسه كلف الاتحاد السوفياتي شيئاً ما في العالم العربي، فالتخلي الجزئي للسوفيات عن العرب في الأمم المتحدة قد بدا في نظر الكثيرين وكأنه خيانة جزئية».

إن تجنب السوفيات ذلك التصور، أو على الأقل التخفيف منه وتلطيفه، أصبح أكثر صعوبة عندما توضح مدى الهزيمة العربية تماماً. كان ناصر يتوقع جسراً جوياً طارئاً فورياً من الأسلحة والذخيرة السوفياتية، هذا إذا لم يتدخل السوفيات بعمل عسكري ضد إسرائيل. بيد أن الكرملين كان عازفاً عن اتخاذ أي من الإجراءين، فقد شكا أحد المسؤولين السوفيات إلى دبلوماسي أمريكي في موسكو، قائلاً: «لقد أظهرت الحرب أن العرب غير قادرين على الوحدة حتى عندما تتعرض مصالحهم إلى الخطر والدمار». ولدى ارتباك السوفيات بسبب الأداء الضعيف لأسلحتهم، وأن الأسطول السادس قد بزّها، أرادوا وضع حد للحرب قبل أن تلطخ سمعتهم بحيث لا يعود بالإمكان تحسينها، وقبل أن تقع سورية ضحية سلاحهم، أيضاً.

وهكذا، في حين اتهمت الدعاية السوفياتية الأسطول السادس بتصويب أسلحته إلى الدول العربية، فإنها كانت تفتقر إلى الدليل على أن هذه الأسلحة قد أطلقت نيرانها، بل بالعكس: استدعى كوسيغن، سفير مصر، مراد غالب وأخبره بجلافة أنه لا يوجد دليل لتعزيز التهمة بوجود تواطؤ أنكلو - أمريكي. فالرئيس جونسون قد تعهد شخصياً ضد مثل هذا التدخل، كما أن الزوارق السوفياتية التي تراقب حاملات الطائرات الأمريكية في شرق البحر المتوسط لم تذكر أي نشاط لها غير عادي، وافق السوفيات أن يشحنوا طائرات جديدة، ولكن إلى الجزائر. فالعراق بعيدة جداً، كما أوضحوا، وليبيا قريبة جداً من قاعدة ويلوس (Wheelus)، وهناك في الجزائر يعاد تجميعها وإرسالها إلى مصر، احتج غالب على هذا الإجراء بوصفه سوف يستغرق أسابيع، ولكن احتجاجه لم يترك أي تعاطف لدى السوفيات.

ارتدت الكذبة الكبرى على صاحبها، فبدلاً من أن تحفز هذه الكذبة السوفيات على مساعدة العرب، اضطرتهم لمتابعة تحقيق وقف لإطلاق النار. والعرب، بدورهم سخطوا، إذ لم يعد ناصر يتحدث في اليوم الثالث من الحرب عن تواطؤ غربي مع إسرائيل، بل عن تفاهم سوفياتي أمريكي على عدم التصادم في الشرق الأوسط. ولم يكن أمام السوفيات وسيلة للخروج من هذه الدائرة المفرغة سوى تجاهل البُعد العربي في ذلك الوقت، وتركيز اهتمامهم على إسرائيل. (١٥)

تذكر رئيس الوزراء السوفياتي كيف أن سلفه بولغانين قد هدد بإمطار تل أبيب بالصواريخ. إن ذلك التحذير بالإضافة إلى رغبة أمريكا في فرض عقوبات على إسرائيل، قد وضعا حداً لحرب العام ١٩٥٦ وأجبر إسرائيل على الخروج من سيناء. أما أن يواجه السوفيات بأمريكا منحازة إلى إسرائيل، بدلاً من أن تكون في نزاع معها، فهذا أمر جعل كوسيغن يحجم عن توجيه إنذارات مسبقة محددة باستخدام العنف. وكان قد حذر إشكول بعد اليوم الأول من القتال، قائلاً: «ما لم تتبع حكومة إسرائيل صوت العقل وتوقف حمام الدم، فإنها ستتحمل مسؤولية نشوب الحرب وما يمكن أن يترتب عليها من نتائج». ولكن ضبابية الرسالة نسفت فاعليتها، فتجاهلها الإسرائيليون، ولكي يكون التحذير صادقاً وواقعياً لا بد من أن تكون لغته أقوى وأقل التباساً.

وهكذا قام شوفاخين (Chovakhin)، وقد بدا عليه التعب والشحوب، بزيارة أرييه ليفافي (Arye Levavi) في وزارة الخارجية في الساعة السابعة من بعد ظهر يوم السابع من يونيو. كان في جعبة السفير رسالة إلى إشكول، مفادها:

«كان الاتحاد السوفياتي قد حذر الحكومة الإسرائيلية ولكن الزعماء الإسرائيليين رفضوا الإصغاء إلى العقل، فإذا لم توافق إسرائيل على الفور على قرار مجلس الأمن فإن الاتحاد السوفياتي، سوف يعيد النظر في علاقاته مع إسرائيل، وسوف يختار خطوات أخرى تنشأ عن السياسة الإسرائيلية العدوانية ويطبقها». وسلمت تحذيرات مماثلة إلى القيادات الأوروبية، مع التفاهم على إضافة وزنهم للضغط على إسرائيل. (١٦)

كان لانبعاث إمكانية دخول موسكو حلبة القتال أثر مباشر على الحرب، وإن لم يكن هذا الأثر على الجانب الإسرائيلي من الحرب. قال عامر لفوزي عندما التقاه ذلك المساء في مقر القيادة العليا: «احذر القوات المسلحة». يبدو أن مزاج المشير كان عالياً جداً، يثرثر بكلام غير مترابط، تغمره النشوة لتلقيه ما فهمه على أنه بداية تدخل سوفياتي. فكرر لفوزي مبتهجاً: «اسمعني، يا فوزي، احذر القوات المسلحة». ثم تحول أسلوبه، فغدا رصيناً بصورة مفاجئة فأصدر تعليماته إلى هيئة أركانه لتوجيه أمر إلى الفرقة الرابعة لتستدير وتعبر القناة ثانية إلى سيناء لوقف العدو عند الممرات: إنه قرار سياسي. صدر الأمر عن الرئيس ويجب تنفيذه.

رغم أن فوزي لم يكن متأكداً فيما إذا كان وعد السوفيات قد استحوذ على قائده أم أن قائده كان غير متوازن، ليس إلاّ، فقد طار على الفور إلى الإسماعيلية على الشاطئ الغربي للقناة. وجد هناك مرتجى، ومحسن، وغيرهما من الضباط ذوي الرتب الرفيعة، وأطلعهم على تغيُّر الأوامر، فاحتج مرتجى قائلاً: إنها مهمة انتحارية لا يمكنني إعادة القوات بلا غطاء جوي، فضلاً عن كون الطرقات كلها مزدحمة بالجنود وبحطام المركبات. وسجل الضباط الآخرون اعتراضات مماثلة، ولكن الأمر أرسل في الساعة الرابعة صباحاً إلى الفرقة الرابعة: «ابقوا في الممرات إلى أن تصدر إليكم تعليمات بالانسحاب». ربما يظل خط الدفاع الثالث والأخير صامداً رغم أن الستار ربما يكون قد أسدل بصورة دائمة. (١٧)

عوالم باسلة جديدة:

تماماً كما أسفرت الجهود المصرية لحث السوفيات على التدخل عن دفعهم إلى الترويج لوقف القتال بصورة فعَّالة، كذلك أدت محاولات السوفيات لردع الإسرائيليين إلى دفعهم نحو تصعيد هجومهم وتسريعه.

هرع فيديرينكو، متابعاً مسعى حكومته، إلى مجلس الأمن وطلب منه تطبيق قرار وقف القتال الذي اتخذ بالأمس. قبل أبا إيبان هذا التحرك ثانية، في حين رفضه القوني. أخبر دايان، لدى ملاحظته هذه التطورات من القدس، لجنة الدفاع الوزارية

قائلاً: أنا لا أتجاهل التحذير السوفياتي، ولكنه لا يخيفني، فإسرائيل ليست بعيدة عن تحقيق الأهداف التي أعدت نفسها لتحقيقها؛ لذلك يمكننا قبول قرار وقف القتال، في حين ننجز أهدافنا كلها. «وفي ضوء الضغوط المتصاعدة من أجل إنهاء القتال، أصدر وزير الدفاع تعليماته لجيش الدفاع الإسرائيلي ليبذل كل جهد للوصول إلى الممرات بحلول الليل، فعلق الكولونيل ليور بصورة عفوية قائلاً: «يمكننا الذهاب لاحتلال موسكو».

إضافة إلى أن تحذير كوسيغن قد سرّع الجدول الزمني العسكري لإسرائيل، فقد كان له أثر آخر هو أن أياً من الروس أو العرب لم يسع إلى السلم ولم يثر قضية السلام. قال إيغال آلون مخاطباً مجموعة أخرى من الوزراء والمستشارين الدبلوماسيين: «هذه فرصة تاريخية، يمكننا التوصل إلى سلام شامل أو معاهدات منفصلة، فأولاً نتحدث عن سلام مع الأردن، ولبنان، والمغرب، وإذا لم يكن بمقدور الحسين توقيع معاهدة، فبإمكانه الهرب مع أسرته إلى انكلترا». فسأل أمير أميت: «علينا أن نقرر مصير الضفة الغربية، هل سنضمها؟ أم أن لدينا خططاً أخرى؟» اقترح إشكول فصل الضفة الغربية عن الشرقية، وإقامة حكم ذاتي محلي في الضفة الغربية، «فإذا ما بقي جنرال مصري واحد هناك، فبإمكانه الإصرار على القتال حتى آخر شخص». ليس لدى رئيس الوزراء حل لغزة -«فهي عظمة في حلوقنا»- ولم يكن متأكداً من الطريقة التي يتعامل بها مع مصر: اقترح جوزيف تكوا (Joseph Tekoah)، رئيس مكتب وزارة الخارجية في الأمم المتحدة: أعتقد أننا وصلنا نقطة نستطيع فيها الإحاطة بالنظام المصري برمته، وعقد سلام مع النظام الجديد، وعلينا إقناع الأمريكيين بالتفكير في شروط السلام. (١٨)

ومع ذلك كان الأمريكيون قد بدؤوا بالتفكير في السلام بصورة منهجية أكثر من التفكير الإسرائيلي. وبما أن مجلس الأمن كان مشلولاً. وكان السوفيات قد تم احتواؤهم مؤقتاً، فقد كان جونسون ومستشاروه أحراراً لكي يقضوا معظم اليوم السابع من يونيو في التفكير بتسوية مستقبلية للشرق الأوسط. وكما قيل إلى مجلس

الأمن القومي، كان هدف الرئيس «إظهار أقل ما يمكن من الأبطال، وأقل ما يمكن من المهزومين» للحفاظ على مقاربة منصفة في الوساطة، ويجب التوصل إلى حل يضمن حرية المرور في المضائق، والسيطرة على التسلح، وحل مشكلة اللاجئين. ومع ذلك، كان جونسون مدركاً للتعقيدات والمطبات المتوقعة - «عندما نجتاز كل المشاكل المتقرحة، سنجد أنفسنا نقول ليتها لم تنشب حرب أبداً - ثم التمس أفكار مستشاريه بشأن الحلول الممكنة».

أجاب وولت روستو: «كانت القضية هي هل ستكون تسوية هذه الحرب على أساس اتفاقات الهدنة التي تبقي العرب في حالة عداء مع إسرائيل، وتبقي القضية الإسرائيلية حية في حياتهم السياسية كقوة موحّدة لهم، وتجعل للسوفيات يداً عليا في العالم العربي؛ أم أنها تسوية تؤدي إلى قبول إسرائيل كدولة شرق أوسطية؟» اقترح روستو أن تتحرك الإدارة الأمريكية بأسرع ما يمكن لصياغة خطة سلام شامل تتوسط الولايات المتحدة لتنفيذها مع دور رخو للأمم المتحدة.

انطلق ماك جورج بندي (Mc George Bundy) من مجموعة السيطرة على الشرق الأوسط - من المنطق نفسه - إذ قدّم رئيس مجلس الأمن القومي سابقاً، ومدير مؤسسة فورد نصيحة، وهو يشعر بالبهجة والنشاط، إلى الرئيس: «ليكن واضحاً أن لدينا الآن حدثاً تاريخياً سيغير حتماً شكل الأرض، ولتكن صورة أملنا إيجابية في أن تكون إسرائيل دولة قوية آمنة في شرق أوسط مزدهر. ولتكن وجهة نظر أمريكا واضحة في وجوب التوصل هذه المرَّة إلى سلام وليس إلى اتفاقات هدنة متشظية، ولنكن في صالح هجوم حقيقي على مشكلة اللاجئين.. هذه عقيدة LBJ الجيدة، وعقيدة إسرائيل الجيدة».

إن البحث عن برنامج سلام قاد البيت الأبيض إلى خارج نطاق هيئته، إلى أستاذين من أساتذة جامعة هارفارد لهما خبرة في الشؤون الدولية وشؤون الشرق الأوسط، هما نداف صافران (Nadav Safran) وستانلي هوفمان (Stanley Hoff-man). وصف كلاهما الحرب بأنها فرصة حقيقية للسلام منذ اتفاقات الهدنة،

خصوصاً وأن الاتحاد السوفياتي قد أُذل، وأن القوة المصرية قد بُترت، وقالا إنه من الضروري البدء بمحادثات على أساس كل دولة على حدة، مؤكدين المبدأ التالي: «يجب تلافي وضع الأجراس كلها، أي كل الدول العربية معاً في جانب من مائدة المفاوضات وإسرائيل في الجانب الآخر». (١٩)

كان المفترض، بناء على هذه التوصيات، أن تكون المواقف الأمريكية والإسرائيلية متوافقة تماماً حول مسألة السلام. وكان من المتوقع أن تتخلى إسرائيل عن كل ما احتلته، ما عدا بعض التعديلات التجميلية لقاء إجراء مفاوضات مباشرة تتمخض عن معاهدات سلام، لقد تعزز هذا الانطباع ببيانات أولية لإشكول وإيبان ينفيان فيها وجود أية مطامع إقليمية لإسرائيل من الحرب، كما عُزز بتقارير متفائلة صادرة عن تل أبيب:

«من الواضح تماماً أن نجاح الجهد العسكري الإسرائيلي الحالي كان له أثر ثابت وجوهري في إقناع الإسرائيليين من كل مشارب الحياة أن هذه هي فرصتهم للانتقال من وضعية شبه القبول المؤقت بإسرائيل الذي مَيَّز التسع عشرة سنة الماضية من وجود إسرائيل إلى حالة القومية الكاملة المتمتعة بخصائص كل الدول المستقلة.. سوف يصرون على الانتقال من جهة وقف القتال إلى جهة التوصل إلى معاهدات سلام مع جيرانهم».

كتب السفير باربر مبتهجاً عن النجاح العسكري الصاعق «لجيش الدفاع الإسرائيلي» و«العالم الجديد الشجاع» قائلاً إنهما فتحا آفاقاً للولايات المتحدة وإسرائيل معاً.

ومع ذلك ظهر أول شرخ في ما يفترض أنه إجماع إسرائيلي - أمريكي بحلول مساء يوم السابع من يونيو. لم يعد المسؤولون الإسرائيليون يتحاشون طرح مطالبهم كلها في الاحتفاظ بجميع مكاسبهم الجديدة، بل صاروا يوصون بضرورة وجود دائم لجيش الدفاع الإسرائيلي في غزة وشرم الشيخ، وفي توسيع خاصرة إسرائيل الضيقة مقابل الأردن، وكان دايان قد أخذ ينشر فكرة دولة فلسطينية ذات استقلال

ذاتي في الضفة الغربية مرتبطة فيدرالياً بإسرائيل. وبدا أن الحكام الإسرائيليين قد أجمعوا على قضية من أكثر القضايا إثارة للنزاع، وهي الإعلان عن «تحرير» القدس تحريراً لا رجعة فيه. فقد أعلن سفير إسرائيل إلى روما إيهود أفرييل (Ehud Av-riel) إلى كاردينال البحر المقدس ديلاكافا (Dellacava)، قائلاً: بوصفي يهودياً ومواطنا لإسرائيل، يبدو لي بوضوح تام أن القدس تنتمي كلياً إلى إسرائيل. فتلك حقيقة مقررة قبل ألف سنة من ظهور المسيحية وقبل ألفي سنة من ظهور الإسلام، ومن الأفضل للفاتيكان أن يجد سبيلاً لتوطيد نفسه على هذه الحقيقة».

وتحرك بنك إسرائيل لرصد ٥٠ مليون دولار أمريكي لتطوير الضفة الغربية وتنميتها، وأثار فكرة شراء شبه جزيرة سيناء تماماً كما اشترت الولايات المتحدة ألاسكا ولويزيان. (٢٠)

وصلت تلميحات ثابتة عن هذه التحولات إلى البيت الأبيض حيث أثارت اهتمام دين راسك وقلقه. فقد قال في اجتماع لمجلس الأمن القومي: إذا لم ننصّب أنفسنا محامين عن إسرائيل، فإننا لن نستطيع تعويض خسائرنا في العالم العربي «كان راغباً، بالتحديد، في تمثيل مطالب إسرائيل لعقد معاهدات سلام كامل مع الدول العربية، إضافة إلى رغبته في تطبيق الأفكار الأمريكية بشأن السيطرة على التسلح وإيجاد حل لمشكلة اللاجئين. ولكن مقابل مثل هذا الدفاع، أصر وزير الخارجية الأمريكي على ضرورة موافقة إسرائيل على الانسحاب من جميع الأراضي العربية التي احتلتها. وأخبر سفراءه بأننا نرغب في إيصال قناعتنا بأن السلامة الإقليمية والاستقلال السياسي للدول العربية لا يقلان أهمية عندنا عن أهمية أمن إسرائيل».

ما زال احتمال حدوث احتكاك بين الولايات المتحدة وإسرائيل بعيداً عن بؤرة اهتمام الرئيس إذ كانت الحاجة لمواجهة الكذبة الكبرى أكثر إلحاحاً. كما كانت مسألة نشر تقارير عن استخدام مصر للغازات السامة في اليمن تعد من المسائل الجديرة بالاهتمام والدراسة - إضافة إلى أخذ الاحتياطات اللازمة، والحذر ضد أية مقاطعة نفطية عربية. كما كان جونسون تواقاً لاستثمار دعمه لأهداف إسرائيل

الحربية لإقناع اليهود الأمريكيين (المعروفين بحمائم الحرب كما أسماهم أحد مساعديه) بدعم أهدافه هو في فيتنام. فكانت الحاجة الأكثر إلحاحاً، إذن، هي مراقبة ردود فعل السوفيات، وألاّ يدخلوا في دائرة التأثر السلبي. قال رئيس هيئة الأركان إلى مجلس الأمن القومي: «لا أصدق أن الاتحاد السوفياتي يبتعد عن هذا. ولست متأكداً أننا قد تخلصنا من مشكلاتنا». (٢١)

في حين كان صنّاع السياسة الأمريكيون يخططون لعالم جديد من السلام في الشرق الأوسط، كان العالم القديم قد أنهى يومه الثالث من الحرب. إذ دخلت القوات الإسرائيلية، عند الغسق، مدينة بيت لحم من غير أن تطلق رصاصة واحدة. فقد قوبلوا، في ساحة المذود (Manger Square) بالتحية والترحاب، واندفع أصحاب الدكاكين ليبيعوهم (تذكارات). قال رافي بنفينيستي (Rafi Benvenisti) ضابط لواء القدس، مستغرقاً في ذكرياته: «اقتحمنا مركز الشركة وتهيأنا لنأخذ غفوة. وإذا برجل عجوز يدخل علي فجأة، ليقول لي إن كبار المدينة وأعيانها ينتظرون استقبال فاتح بيت لحم». فأخذ بنفينيستي إلى كنيسة المهد - وهي من المباني القليلة التي أصيبت بأضرار إذ سقطت أربع قذائف على سقفها - ثم إلى حجرة مضاءة بالشموع حيث كان رجال الكنيسة ورؤساء الأسر بانتظاره. «فأكدت لهم ألا يخشوا شيئاً، وأننا جئنا بسلام، فصدموا، وأنا كذلك صدمت. ثم انصرف كل منهم ببساطة إلى بيته».

أما يوري رام (Uri Ram) ورجاله، فقد كان استقبالهم أقل وفادة في مدينة نابلس التي يبلغ تعداد سكانها ٨٠٠٠٠ نسمة، التي تعد عاصمة السامرة كما تقول التوراة، يذكر رام كيف «كان آلاف الناس واقفين يصفقون ويلوحون بمناديلهم، أما نحن فبكل براءة رددنا عليهم بابتساماتنا. كان النظام مهيمناً تماماً في المدينة، و لا توجد أية علائم على الخوف أو الهلع أبداً». كان ذلك إلى أن حاول أحد الجنود الإسرائيليين أن يجرد حارساً وطنياً محلياً من سلاحه. عندئذ أدرك المشاهدون أن هؤلاء الجنود ليسوا عراقيين كما كانوا يعتقدون، بل هم إسرائيليون. «وعلى الفور. خلت الشوارع من الناس وبدأ القنص».

استدارت قوات فرقة بيلن، من منطقة نابلس شرقاً ثم جنوباً لتلتقي عناصر لواء هاريل (Harel)، المتجهة شمالاً. وما إن حل منتصف الليل حتى كانت الجسور الأربعة على نهر الأردن قد احتلت. أمر ديان بنسفها كلها كإشارة إلى فصل الضفة الغربية عن الشرقية مادياً. (٢٢)

كانت المعارك في الضفة الغربية تشير إلى نهايتها في حين كانت المعارك في سيناء تشير نحو ذروتها. تقدمت الحملة العسكرية بقيادة إسرائيل غرانيت دون مقاومة فعلية من العريش حتى وصلت روماني (Romani) أقرب قرية مصرية إلى القناة. أما عناصر لواء تل فكانت تسارع الخطى نحو الممرات التي كان المصريون، -خلافاً لتخليهم عن الطريق الساحلي - مصممين على الدفاع عنها بعودة الفرقة الرابعة وقبيل منتصف الليل اصطدمت عناصر متقدمة من الفرقة الرابعة- ستون دبابة T-٥٥ مع ثلاثين دبابة AMX تابعة للواء تل غربي بير جفجافة (غفغفة). فاشتعلت ثلاثة من دبابات AMX الخفيفة على الفور بالإضافة إلى ثماني أنصاف مجنزرات إحداهما محملة بالذخيرة. قُتِل عشرون إسرائيلياً، بمن فيهم قائد السرية الميجر جنرال شاماي قبلان (Shamai Kaplan) قبل أن يتراجع ما تبقى من الرتل.

ومع ذلك، كانت دبابات يوفي تقترب من مدخل ممر متلا، عندما أبدى المصريون صموداً جريئاً ضد لواء تل. وصلت مفرزة من تسع دبابات سنتوريون وقودها على وشك النفاذ، أربعة منها قطرن بغيرها، وطواقمها منهكة، إلى مدخل الممر قبل شروق الشمس. رتبوا حطام المركبات المصرية بطريقة تجعل الدبابات المتراجعة تسير مباشرة نحو مدافع الدبابات الإسرائيلية (٢٣). وعلى الرغم من التفوق العددي الكبير لدبابات المصريين، استطاعت هذه القوة الضئيلة، أن تسيطر على طريق النجاة الوحيد الذي ستتعثر فيه قريباً الفرق المصرية التي تضم ٣٠٠ دبابة وأكثر من ٣٠٠٠٠ رجل.

الطائرات المصرية مدمّرة على مدارجها.

(المكتب الصحفي لحكومة إسرائيل).

غرفة المكتب (قاعة الاجتماعات) في البيت الأبيض. من اليسار إلى اليمين: ماكنمارا، كاتزينباخ (Katzenbach) السفير تومسون (يدخن)، وولت روستو، همفري، راسك (جالس)، جونسون، بندي (Bundy).

مكتبة LBJ، تصوير يوخي أوكاموتو (Yoichi Okamoto).

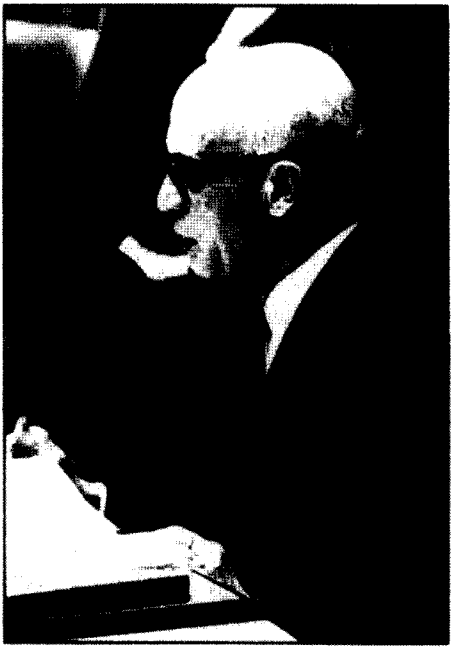

سفراء العرب إلى الأمم المتحدة: محمود الفرا (إلى اليمين) وجورج طعمة (إلى اليسار).

سفراء العرب إلى الأمم المتحدة: محمد القوني «إلى اليمين (بموافقة محمد الفرا)».

السفير أثر غولد بيرغ (بإذن من محمد الفرا).

قوات جيش الدفاع الإسرائيلي المؤللة تتقدم في الضفة الغربية (شاحام، أرشيف IDF).

فلسطينيون يهربون عبر نهر الأردن (أسوشيتدبريس).

عطا علي يتحدث مع المؤلف خارج عمان ١٩٩٩ .

رابي غورين (ومعه قرن كبش) مع جنود إسرائيليين عند الجدار الغربي.

(المكتب الصحفي لحكومة إسرائيل).

(من اليسار) ناركيس، (في الوسط) دايان، (وفي اليمين) رابين، يدخلون بوابة ليونز (بوابة الأسود).

(إيلان بيرنر،المكتب الصحفي لحكومة إسرائيل).

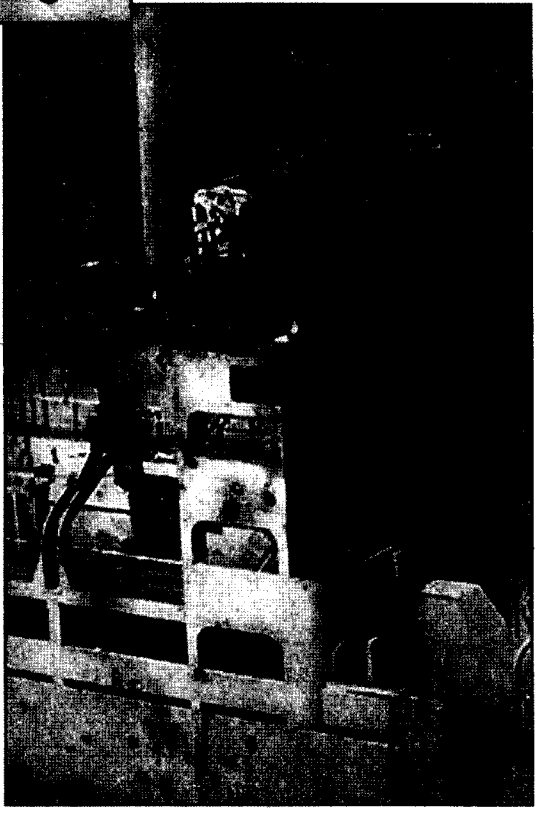

سفينة ليبرتي الأمريكية: أحصي حوالي ٨٠٠ ثقب في الهيكل (صفحة ليرني الأمريكية في الإنترنت).

أسرى حرب مصريون في سيناء.

(تل شاتباي، المكتب الصحفي لحكومة إسرائيل).

غارة جوية انتحارية: طائرة ميغ مصرية تهاجم قوات إسرائيلية في سيناء.

(هان ميخا، المكتب الصحفي لحكومة إسرائيل.

حطام مصري في ممر متلا، ٨ يونيو، قتل (١٠،٠٠٠) عشرة آلاف رجل في ذلك اليوم وحده.

(هان ميخا، المكتب الصحفي لحكومة إسرائيل).

٩ يونيو، اليغازر (يشير بيده)، إشكول، بارليف إلى اليمين يمسك بخريطة، والكولونيل ليور (خلف دايان، يرتدي نظارات وقبعة) (أستوشيتيد بريس).

مدفعية إسرائيلية تقصف مواقع سورية في التوافيق،١٠ يونيو (كيدرون، أرشيف IDF).

دايان والجنرال أودبول، رئيس مراقبي الأمم المتحدة، (أسوشيتيد بريس).

حافظ الأسد سوريا: «آن الآوان لتدمير الوجود الصهيوني في الوطن العربي» (بإذن من البروفسور إتمار إبينوفيتش).

جونسون مع كوسيغن في غلاسبورو: «آمل أن تكرس جهودنا في الأيام القادمة لتحقيق سلام دائم».

مكتبة LBJ، تصوير يوشي أوكاموتو).

(الحرب: اليوم الرابع ٨ يونيو)

ضربة إسرائيلية حاسمة (رصاصة الرحمة)

حادث مميت

ناصر يذعن والسوريون ينتظرون

بدأ اليوم الرابع من الحرب العربية - الإسرائيلية الثالثة بسلسلة من الانفجارات في وادي الأردن. واختتمها الإسرائيليون بنسف الجسور المقامة على نهر الأردن بما استولوا عليه من قذائف هاون أردنية. قامت عناصر من لواء هاريل بالعبور إلى الضفة الشرقية لتأمين تغطية لفريق المهندسين التابعين لجيش الدفاع الإسرائيلي، الأمر الذي دبَّ الهلع في عمان، فتوسل الملك حسين لدى فندلي بيرنز (Findley Burnz) قائلاً: أوقفهم، من أجل الله (مدعياً أن ثلاثين دبابة إسرائيلية كانت تخترق الجزء الشمالي من البلاد، وأنهم يقصفون الرمَثة).

وقُدّم التماس مماثل إلى البريطانيين، ولكنهم بسبب اشمئزازهم من استمرار الحسين بدعم الكذبة الكبرى، لم يكونوا، هم ولا الأمريكيون تواقين للاندفاع إلى مساعدته. فما كان أمام الملك إلا أن يلجأ إلى مصادره الخاصة على ضآلتها. إذ لم يبق لديه من الألوية الإحدى عشرة التي خاضت المعركة في بداية الحرب، لواء قادر على التحرك والعمل سوى أربعة ألوية. التحقت بقايا الجيش الأردني - عناصر من لواء اليرموك، ولواء الحسيني، والحرس الملكي، والدبابات الخمس الباقية من اللواء الستين - بالوحدات العراقية لحماية المشارف الشرقية لعمان، ومنحدرات الجولان الجنوبية. لم تكن هناك فرصة في النجاح أو حتى في البقاء على قيد الحياة. إذا ما استمرت القوة الإسرائيلية الماحقة بالتقدم. (١)

بيد أنه لم يكن هناك هجوم إسرائيلي، أو اندفاع للمدرعات، حتى ولو كان خادعاً، في اتجاه عمان، بل بالعكس، انتشرت قوات جيش الدفاع الإسرائيلي على طول نهر الأردن في مواقع دفاعية احتراساً من هجوم أردني معاكس. وهكذا استنتج عوزي ناركيس (Narkiss Uzi) في إيجاز لما بعد الحرب، في نهاية أربعة أيام من القتال قائلاً: «أنجزت القيادة المركزية تطلعاتها الطبيعية ورسَّخت حدود إسرائيل على نهر الأردن». إن مقتل مئتي إسرائيلي منهم ١٤٤ مظلياً، خفف من نشوة الإحساس بالإنجاز. وإذا لم يتأثر الإسرائيليون بعجز القيادات الأردنية على التكيُّف مع الظروف المتغيرة، فإنهم احتفظوا على الأقل باحترامهم لعناصر الفيلق العربي. فقد ورد في تقرير داخلي لجيش الدفاع الإسرائيلي، أن العدو «أبدى شجاعة وتصميماً، خصوصاً في القدس حيث قاتل حتى آخر لحظة في تحصينات معزولة» والعبارات التي كتبتها إسرائيل على شواهد قبور أولئك الأردنيين الذين قتلوا في تلة الذخيرة أشادت بشجاعتهم الفريدة.

إن تعزيز موقع إسرائيل في الضفة الغربية -بدلاً من توسعها في الضفة الشرقية- أصبح واضحاً، على الفور، لدى الأردنيين، كذلك. وفي حين ظلت عمان سالمة لم تصب بأذى، فإن القوات الإسرائيلية حاصرت الخليل، موقع كهف البطاركة التواراتي، فسارع سكانها إلى رفع الملاءات البيضاء من نوافذهم وإلى تسليم أسلحتهم طوعاً، خشية الانتقام منهم للمذبحة التي ارتكبوها ضد يهود المدينة في العام ١٩٢٩، انتهت الحرب في الضفة الغربية. كتب المؤرخ سمير مطاوع، واصفاً تلك اللحظة من وجهة نظر أردنية: «بحلول منتصف ليل الثامن من يونيو، عادت الأردن إلى (شرق الأردن) التي كانت في عهد الملك عبد الله، في حين أكملت إسرائيل احتلال فلسطين التاريخية». (٢)

لم تهيمن في الجبهة الجنوبية مسألةُ: متى تتوقف الحرب فحسب، بل أين تتوقف أيضاً؟ لقد بلغ القتال ذروته مع الفجر عندما اندفع آلاف المصريين نحو ممري متلا والجدي أملاً في الوصول إلى قناة السويس. كتب الميجر جنرال الغول، قائد الفرقة

الرابعة إلى عامر يقول: «ست وثلاثون طائرة معادية تتابع قصفنا، فاحترقت دباباتنا ومدفعيتنا ومدافعنا المضادة للطيران وقطعت اتصالاتنا مع القيادة الخلفية، ومع اللواء المدرع، أيضاً، ونحن نتعرض للهجوم الآن!!. كما اتصل مرتجى يقول: «أعتقد أنه يجب تدمير الممرين حالما تعبر قواتنا قناة السويس. وسأل عامر كلاً من فوزي، وقائد القوات البرية الليفتينانت جنرال محسن: أين ينبغي وضع خط الدفاع النهائي، شرق القناة أو غربها؟ فوافق الاثنان على اقتراح مرتجى. فأصدر عامر الأمر، وكان آخر أمر يصدره في الحرب: «على جميع القوات أن تدافع عن القناة من الغرب، ويجب إزالة الممرات المؤدية إلى القناة، وليس القناة نفسها، بانتظار تعليمات أخرى. وعلى سلاحنا الجوي أن يغطي تراجع قواتنا خلال ليلة ٨/٩ يونيو».

ليس من السهل القيام بأيّ من المهمتين: تدمير الممرات أو خوض القناة. إذا تابعت بعض الدبابات الإسرائيلية إغلاق المداخل إلى الوديان الضيقة محوّلة إياها إلى أزقة مسدودة، وذلك بفضل دعم سلاح الجو الإسرائيلي. كتب محمود رياض يقول: أبيدت جميع الدبابات والشاحنات والمدافع وكل التجهيزات الموجودة شرق الممرات، وفقد (١٠٠٠٠) عشر آلاف حياتهم في ذلك اليوم وحده، ومات آخرون كثر جوعاً وعطشاً». عمل مستطلعو الأهداف المعادية الإسرائيليون في المقدمة بنشاط محموم للتمييز بين القوات المعادية والقوات الصديقة التي اختلط بعضها ببعض. واستمرت المذبحة حتى منتصف النهار عندما أمر الطيارون الإسرائيليون بالكف عن تدمير المركبات المصرية حتى يمكن أسرها سالمة.

دمر حوالي مئة دبابة مصرية عند الممرات، وستون دبابة أخرى شرقي نخل، إضافة إلى ٤٠٠ مئة مدفع، وأعداد من المركبات لا تحصى، وتم الاستيلاء على بطارية كاملة من صواريخ سام - ٢ سليمة. ولما لم يعد الإسرائيليون قادرين على إطعام أسرى الحرب، أخذوا يوجهون المستسلمين المصريين نحو القناة. شهد الكولونيل جاكي إيفين (Jackie Evan) قائد إحدى الدبابات، فيما بعد، قائلاً: «كانت هناك جموع من المصريين بأسلحتهم يركضون هنا وهناك كالمجانين، فقلت لنفسي،

توقف، ستحدث مذبحة هنا، طالما أن الطرفين يطلقان النار لذلك أمرت الجميع: لا تقتلوا الجنود. حاولوا الإمساك بهم، ثم أطلقوا سراحهم ليقولوا إن الإسرائيليين لا يريدون قتلهم، فقط أعيدوهم إلى وطنهم» ولم يؤسر سوى الضباط لتجري مبادلتهم بالطيارين الإسرائيليين الذين أسقطوا خلف خطوط العدو.

ومن الذين أسروا من ذوي المراتب العالية، كان الميجر جنرال صلاح ياقوت رئيس المدفعية المصرية، الذي استسلم إلى دبابة معطلة.

تكررت مثل هذه المشاهد إلى الشرق في البوادي الواقعة بين نخل والثماد حيث دفع رتل الكولونيل مندلر عناصر قوة الشاذلي والفرقة المصرية السادسة إلى كمين نصبه لهم أريك شارون.

كتب أهارون ياريف، رئيس مخابرات جيش الدفاع الإسرائيلي إلى هاري ماك فيرسون يقول: «كنا في أعقابهم» ثم أضاف يقول: إن مصر: قد فقدت حوالي ٧٠٪ من قوتها المدرعة. أما وقد تأكد الآن، بما لا يدع مجالاً للشك، أن الجيش المصري قد دمر، فقد نشأت مسألة: إلى أي مدى سيظل جيش الدفاع الإسرائيلي يلاحق فلوله؟ أخبر رابين مجلس الوزراء بأنه ليس لدى جيش الدفاع الإسرائيلي أيَّةُ مشكلة للوصول إلى القناة، وأن الأمر لا يتطلب سوى موافقة وزير الدفاع. ولكن في حين كان وزير الدفاع تواقاً إلى إسقاط عبد الناصر نهائياً -إذ اقترح قصف مطار القاهرة كوسيلة لتسريع ذلك- فقد كان تواقاً كذلك للبقاء بعيداً عن قناة السويس. فهدد جيشه «بتقديم أي قائد إسرائيلي يمس القناة إلى محاكمة عسكرية». ومع ذلك فإن تسارع المعركة سيتجاوز حتى أولئك الذين يبدون أنهم مسيطرون عليها، بمن فيهم موشي دايان. (٣)

تقوم الآن دبابات يوفي التي أغلقت الممرات تماماً، بمطاردة القوات المصرية التي استطاعت أن تفلت من الحصار. ففي الشمال احتوى الكولونيل غونين واللواء السابع حامية الغول المتقدمة من دبابات T-٥٥ فدمر منها أربعين دبابة. ولدى فقدان

خمسين بالمئة من تجهيزات الفرقة المصرية الرابعة، اضطرت للتراجع ثانية باتجاه جسر فردان، وفي أعقابهم يلاحقهم غونين. وكان رتل الكولونيل غرانيت أيضاً يسارع الخطى نحو الجسر بعد أن حول سيره من الساحل إلى الداخل على الطريق المؤدي إلى القنطرة.

كانت القوات الإسرائيلية تطبق على القناة على الرغم من الأوامر القائمة بضرورة البقاء على بعد ١٢ ميلاً من القناة على الأقل. وكانت الذريعة الظاهرة هي ملاحقة المصريين -والحاجة إلى استكمال تدمير الجيش المصري ومنعه من إعادة تجميع نفسه- في حين أنه كان هناك دافع عميق خفي آخر. ومع روعة مشاهد المعارك في سيناء فقد خيمت عليها الذكرى الألفية لتحرير القدس. قال الجنرال غافيش لضباطه حزيناً: «جبل الهيكل بأيدينا. لقد فقدنا ذلك المجد». ولكننا سوف نستعيد بعضاً منه، على أية حال، على ضفاف قناة السويس.

لقد تحددت الهجمات الإسرائيلية، سواء في الضفة الغربية أو سيناء بالوسيلة أكثر مما تحددت بالتصميم. إذ طبق المثل العسكري القديم القائل: «عندما تكون في الميدان، فعليك أن ترتجل» تطبيقاً صارماً مغرياً قوات جيش الدفاع الإسرائيلي إلى تجاوز ما كان يراه المخططون العسكريون أو المسؤولون السياسيون. يقول ريهافان زئيفي، نائب رئيس العمليات: «لم تضع الحكومة الإسرائيلية أهدافاً للحرب، قط. إذ كانت الأهداف تنشأ من القاعدة إلى القمة، من النسق العسكري إلى النسق السياسي. ولا تضع الحكومة دوائر حول إنجازاتنا وتعلق أن هذه هي أهدافها الأصلية إلا بعد انتهاء الحرب (٤). تنطبق ملاحظة زئيفي على القتال في الجبهتين الجنوبية والشرقية، ولكن الحكومة كانت قد عقدت العزم على ضبط الأمور والسيطرة عليها في مسرح آخر. إذ كان القرار بشأن مهاجمة سوريا، ومتى؟ إن تقرر ذلك، بيد مجلس الوزراء، وليس بيد الجيش.

الجولان يلوح للعيان:

«مازال القصف السوري للكليبوتزات والمستوطنات مستمراً بلا انقطاع، وقد مسحت بعض الكيبوتزات تماماً وسويت بالأرض». هكذا أبرق باربر إلى مجلس الأمن القومي صبيحة الثامن من يونيو. وأكد استعدادات سورية المستمرة للحرب قائلاً: «لم يجيبوا -كرر لم- على أية دعوة لوقف القتال» وتنبأ بأن جيش الدفاع الإسرائيلي سيقوم ثانية بعمل وقائي استباقي باختراق سوريا إلى عمق ١٢ ميلاً. وقال: في هذه الظروف، لن -كرر لن- أفاجأ إذا ما وقع الهجوم الإسرائيلي المذكور، قريباً، أو أنه قد حصل فعلاً».

كان تقييم باربر صحيحاً جزئياً فقط، على أية حال. إذ ما زالت المدافع السورية تتابع قصفها لمزارع الجليل -أصيب منها ٤٨ مزرعة- وتابع راديو دمشق الادعاء بانتصارات بعيدة المنال في الشمال بما في ذلك تحرير عكا والناصرة. وأدان السوريون استسلام الضفة الغربية، وألقوا باللوم على «الرجعيين الأردنيين» وكانوا يضغطون على الرئيس اللبناني شارل الحلو ورئيس وزرائه رشيد كرامي لدخول الحرب بصورة فاعلة. ولكن في حين استطاع الجنرالات اللبنانيون مقاومة هذا الضغط، كان الجيش السوري ما زال قابعاً في تحصيناته في قواعده. ينص تقريره الرسمي على أن «قيادة القوات البرية لم تستطع اتخاذ قرار بشأن القيام بهجوم محلي أو عام بسبب الوضع المعقد على الجبهة، وبسبب عدم رغبة الألوية الاحتياطية في القتال؛ لذلك قررت أن تبقى على الأرض، وتركز قصفها المدفعي وتستخدم مضادات الطيران أقصى استخدام وتراقب تحركات العدو». ولدى تعرض سويداني وضباط آخرين من ذوي الرتب الرفعية إلى القصف، ودخول الرعب إلى قلوبهم بسبب إشاعة حول قيام إسرائيل بغزو سوريا، تراجعوا إلى دمشق. وجد ياسر عرفات الذي يقود مجموعة فدائيين إلى جبهة الجولان، الطريق خالية أمامه، واستخلص فيما بعد أن سوريا قد عقدت معاهدة مع إسرائيل. (٥)

لم يكن لدى سوريا نية في الغزو، ولا إسرائيل رسمياً، وعلى الرغم من أن الرأي العام الإسرائيلي كان يدعم القيام بهجوم على الجولان -كما قالت صحيفة هاآرتس (aretz Ha) اليومية: «لقد آن الأوان لتصفية الحسابات مع الذين بدؤوا ذلك القصف كله، وإنجاز المهمة»- فإن حكومة إسرائيل ما زالت تقاوم ذلك التوجه. ويبدو أن الانتصارات الحاسمة على الجبهتين الأردنية والمصرية قد زادت المعارضة صلابة عندما التأمت لجنة الدفاع الوزارية ثانية لدراسة مسألة إسرائيل الشمالية.

قال زالمان أران مؤكداً: «إن (الهجوم على سوريا) سيثير العالم كله علينا. فأنا ضد قبول وقف القتال لنخرقه فيما بعد» وأيده في ذلك ممثلو التيار الديني القومي، حاييم موشي شابيرا، وزوراخ وورهافتيغ، في حين عارضه كالمعتاد إيغال ألون. وعلل معارضته بأن احتلال المرتفعات هو السبيل الوحيد لإزالة التهديد السوري، واقترح ألون قائلاً بأن إسرائيلي ليست بحاجة إلى احتلال المنطقة، بل يمكن إعطاءها للدروز المحليين ليقيموا فيها دولة مستقلة لهم. مال الجيش إلى رأي ألون، كما شهد بذلك بارليف فيما بعد، قائلاً: «إذا خرجت سوريا من الحرب سالمة، فإنها سوف تتابع سياستها ولن ترتدع بانتصاراتنا في الجنوب والشرق».

خطا رئيس الوزراء خطة وسطاً بين المؤيدين والمعارضين للهجوم على سوريا، وعلى الرغم من أن إشكول لم يكن أقل توقاً لضم بانياس وإخراس المدفعية السورية، فإنه كان مدركاً لمخاطر الهجوم على سوريا. فقال: «إنني آسف أن سوريا لم تستوعب الكثير، ولكني أعلم أن هذه القضية ربما تورطنا مع السوفيات» وهكذا وقع اتخاذ القرار على كاهل دايان.

لم يبد وزير الدفاع شيئاً من ازدواجية إشكول، وتابع معارضته شن حرب مع سوريا، وقد عزز نقاشه المعتاد بـ تهديد التدخل السوفياتي، وصعوبة احتلال المرتفعات قبل دخول وقف القتال حيز التنفيذ - مضيفاً إلى أن إسرائيل قد احتلت من الأراضي العربية ما يكفي، وأنها ليست بحاجة إلى المزيد.

قررت اللجنة، بتوجيه من دايان، «تأجيل اتخاذ قرار بشأن عمليات في الجولان السورية ليوم أو يومين، والطلب إلى هيئة الأركان بتقديم خطة عمليات إلى لجنة الدفاع كي تصادق عليها». وأضافت الحكومة قائلة: إنه ينبغي (ألاّ) تستفز سوريا علناً بأي عمل خلال هذين اليومين. (٦)

كان هذا النبأ صدمة مريرة على قائد الشمال، ديفيد إلعازار، فبعد أن أرجأ دادو هجومه المخطط في اليوم السابق بسبب رداءة الطقس، يعلم الآن أن العملية كلها قد ألغيت، وعلق على ذلك بقوله: «كانت تلك الساعات من أسوأ الأوقات التي خبرتها بحياتي، إذ يرى المرء أن فرصة تاريخية قد ضاعت بسبب فرط حساسيتي فقط». لقد خولت قواته احتلال تل العزيزيات، فوق الحدود، على الأكثر، فهتف إلى رابين ساخطاً: «لقد هزم جيش الدفاع الإسرائيلي أعداءنا وأنقذ إسرائيل من الكابوس في الجنوب والشرق، في حين بقينا علفاً وطعماً لمدفعية مرتفعات الجولان؟ «فأجابه رابين»: «هل تريد الهجوم أم لا؟».

فأجاب إلعازار صارخاً: «لا أريد. إن الهجوم على تل العزيزات يعني تقديم ثمن باهظ دون الحصول على أي شيء مقابله. إنه الثمن نفسه الذي ندفعه إذا ما اخترقنا الجولان كله، وما الذي أحصل عليه لقاء ذلك؟» ألقى بسماعة الهاتف غاضباً وألغى كل الاستعدادات للقتال، آمراً جنده: «ليعد كل منكم إلى منطقة التجمع. وأحضروا لي طائرة هيليكوبتر. فأنا مغادر إلى تل أبيب!!؟».

وافق رابين على تقييم إلعازار: لماذا نتسلق جرف الجولان، ونخاطر بمئات الأرواح، فقط للاستيلاء على معقل واحد فقط؟ استقبل رئيس قيادته في الشمال في غرفة العمليات، ورافقه إلى اجتماع مع ألون وإشكول.

طرح رئيس الوزراء سؤالاً على العازار: «ماذا تستطيع أن تفعل؟» أخرج العازار خريطة وفردها، ثم أشار إلى زعورا مبيناً أن الطريق من هناك إلى دمشق مفتوحة. وقال: «لست بحاجة إلى مزيد من القوات. لا أحتاج، أستطيع الوصول إلى هناك اليوم، وأحتل مواقع وأتقدم. سنتكبد بعض الإصابات بالطبع، ولكنها لن تكون مذبحة. بإمكاننا فعل ذلك».

قال ألون مجادلاً: «يجب أن توافق الحكومة على احتلال الجولان».

جاء اتصال هاتفي بعد ذلك إلى إشكول من ناطق باسم المستوطنين هو حاييم بير (Haim Ber) يقول صارخاً بأعلى صوته: «ما زلنا نقصف بلا انقطاع. إننا نطالب تحريرنا من هذا الكابوس!!».

ارتبك رئيس الوزراء ارتباكاً شديداً، فسأل إلعازار مستغرباً: «لماذا، إذن، يعارض وزير الدفاع؟» فهز الجنرال كتفيه قائلاً: «لست أدري ما هي أسبابه، ولكنها لن تكون عملياتية ولا تكتيكية».

ولدى خروج إلعازار من المكتب، التقى بزوجة إشكول، مريام، فقالت له: «عيد ميلادي قادم، وأريد بانياس «فوعدها الجنرال قائلاً: سأبذل كل ما بوسعي لأحصل لك عليها. ولكن عليك أنت، أيضاً، أن تقومي بدورك». (٧)

كان إلعازار يناقش قضيته في تل أبيب، في حين كان الجيش في الشمال مستمراً في استعداداته لتنفيذ «عملية المطرقة». وما إن دُمر آخر لواء أردني حتى انعطف لواء إيلاد بيليد (Elad Peled) من الضفة الغربية متجهاً إلى الشمال. كما نقل لواء ألبرت مندلر الثامن المدرع ولواء المظليين الثمانون بقيادة داني مات (Dani Matt) من سيناء. فكانت شوارع إسرائيل في المدن الرئيسية غاصة بالشاحنات والدبابات والجنود، وكانت الطرق العامة مزدحمة ازدحاماً شديداً. وعلى هضبة الجولان نفسها كان سلاح الجو الإسرائيلي، يقوم بقصف مكثف - دون أن يدري أن عملية المطرقة قد ألغيت - للتحصينات السورية ومرابض الدبابات، تلك الحملة التي وصفها الأمريكيون بأنها «مقدمة لاحتلال المرتفعات المطلة على الكيبوتزات».

وعلى الصعيد الدبلوماسي، بدا الإسرائيليون وكأنهم يرسون أساس العمل للقيام بهجوم. وأسرَّ ياريف إلى ماك فيرسون قائلاً: «بقيت مشكلة سوريا، وربما كان من الضروري توجيه ضربة إلى سوريا كذلك». وعلى الرغم من أنه لم يحدث شيء بعد في الجولان - «لسوء الحظ» كما قال ياريف - فإن إسرائيل كانت على وشك القيام

بعمل ما هناك «ليكون لديها مجال أوسع للحركة والعمل». صرح ماك جورج بندي في حديث له مع إيبان أنه من الغريب أن تخرج سوريا، التي بدأت الحرب وسببت معاناة عربية كبيرة، من الحرب دون عقاب لتبدأ من جديد «المسلسل المميت ثانية» وعلى الرغم من أن راسك قد حذر باربر من أية مبادرة إسرائيلية أخرى -«إذ إنّ مثل هذا التطور، في أعقاب قبول إسرائيل لقرار وقف إطلاق النار، سوف يلقي بظلاله على نوايا إسرائيل ويخلق لممثلي الولايات المتحدة في البلاد العربية أخطر المشاكل»- فقد استخلص إيبان أن البيت الأبيض سوف يرحب بهزيمة سوريا. (٨)

تشريح حادثة:

قضت واشنطن صبيحة يوم الثامن من يونيو، كما قضت في اليوم السابق، تراقب الحرب من مسافة آمنة. وفرضت رقابة شديدة على مصير سفارات الولايات المتحدة وقنصلياتها المحاصرة في المنطقة، وعلى إخلاء المواطنين الأمريكيين المعرضين للخطر. أولت مجموعة مراقبة الشرق الأوسط في البيت الأبيض اهتماماً إلى طلب إسرائيل ٤٨ طائرة من طراز A-٤ مع ملاحظة إعادة تزويد الاتحاد السوفياتي لمصر بالأسلحة عبر الجزائر. ولكن الإدارة واجهت مسألة ما إذا كان ينبغي الاستجابة إلى طلب إسرائيل وتجاهل طلبات ربما ترد من العربية السعودية والأردن. فأوصى بندي قائلاً: «إذا لم نعلق إرسال المساعدات إلى جميع الأطراف، فإننا نقحم أنفسنا في ماك كلوسكي (Mc Closkey) أخرى» معيداً للأذهان مبدأ وزارة الخارجية «الحياد فكراً وقولاً وعملاً». ومع ذلك ظل أكثر الاهتمام منصباً على الكذبة الكبرى والجهود الأمريكية لدحضها. وللتأكد من أن القوات الأمريكية لا تشارك في الحرب، دعي مسؤولون ليبيون لزيارة قاعدة ويلوس (Wheelus). وأرسل راسك إلى الملك فيصل «تأكيداته الصادقة» بأن ادعاءات ناصر ليست صحيحة، ووعد كذلك بأن «يدير مساراً منصفاً» في معارضة الجهود الهادفة إلى تغيير الحدود، أو حل المشاكل بقوة السلاح». (٩)

والواقع أن جونسون استبعد من دائرة اهتماماته احتمال تورط أمريكي مباشر في القتال. كانت الاتصالات مع الكرملين صريحة وبناءة، بينما رفض فيديرنيكو التعاون مع غولد بيرغ في الأمم المتحدة. وعلى الرغم من أن الحرب قد اتخذت اتجاهات غير متوقعة، لم يكن هناك داع لوصول الخوف إلى سفن الأسطول السادس الراسية على بعد ٢٤٠ ميلاً من السواحل.

بيد أن سفينة واحدة كانت قريبة بصورة ملحوظة. إذ وصلت سفينة «ليبرتي» (Liberty) التابعة للأسطول الأمريكي إلى مسافة تبعد ١٣ ميلاً بحرياً عن ساحل سيناء، خارج المياه الإقليمية لمصر بقليل. أخذت هذه السفينة تذرع البحر جيئة وذهاباً بين العريش وبور سعيد في خط لم تسلكه حركة الملاحة التجارية إلا قليلاً، والذي أعلن أنه خارج حدود الملاحة المصرية المحايدة. كانت علائم الحرب وآثاره بادية للعيان بوضوح على الشاطئ. فطلب ربان السفينة، القائد ماك غوناغل (Mc Gonagle) من الأسطول السادس مدمرة لدعمه، إحساساً منه بالخوف مما يجري بالقرب منه. ولكن طلبه رفض وكتب له نائب الأدميرال وليام مارتن: «ليبرتي سفينة أمريكية واضحة العلامات المميزة لها، تقف في عرض البحر في المياه الدولية، ولا تعد هدفاً معقولاً لأي هجوم من قبل أية دولة».

ولكن لم يتلق أياً من مارتن أو ماك غوناغل، تلقى البرقيات الخمس التي أرسلتها إليهما هيئة الأركان المشتركة الليلة السابقة بوجوب انسحاب ليبرتي إلى مكان يبعد ١٠٠ ميل عن الجبهة؛ لأن نظام الاتصالات المتبع في الأسطول، شديد التعقيد والمثقل بالمراسلات، يرسل الأوامر هذه عن طريق الفيليبين في أقصى الشرق قبل ترحيلها إلى ليبرتي (١٠). وبهذا تصل البرقيات في اليوم التالي حين لا يعود لها أية أهمية.

في الساعة ٥,٥٥ من صبيحة ذلك اليوم كان مراقب الأسطول الإسرائيلي الميجر يوري ميريتز (Uri Meretz) يحلق بجولة استطلاعية على بعد سبعين ميلاً من ساحل غزة، غرباً، عندما شاهد تحته ما اعتقد أنه سفينة تموين أمريكية، تحمل

علامة «GRT-٥» المميزة. حدد ضباط هيئة أركان الأسطول الإسرائيلي في حيفا موقع السفينة بالمؤشر الأحمر الذي أشار إلى أن السفينة «مجهولة الهوية» أما البحث في سفن جين المقاتلة (Jane'SFighting Ships) فقد أكد هوية السفينة «بأنها سفينة مراقبة كهرطيسية للولايات المتحدة هي «ليبرتي» فتغير المؤشر إلى الأخضر دلالة على الحيادية. وقامت طائرة إسرائيلية مقاتلة بمشاهدة السفينة الساعة التاسعة صباحاً على بعد عشرين ميلاً من ساحل العريش «رمادية، ضخمة، مع منصة الربان في وسطها» لم يأت أي من هذه التقارير على ذكر العلم الأمريكي الذي يبلغ حجمه ٥×٨ أقدام المرفرف فوق السفينة من على ساريته. وادعى البحارة أن الطيران الإسرائيلي استمر في التحليق فوق السفينة، الأمر الذي منحهم فرصة واسعة للتأكد من هويتها. ولكن الطيارين الإسرائيليين لم يكونوا يبحثون عن ليبرتي، بل عن غواصات مصرية، تمت مشاهدتها بعيداً عن الساحل. (١١)

كان ذلك الساحل الذي يؤوي ٩٠٪ من سكان إسرائيل وصناعتها معرضاً للخطر المروّع. فالأسطول المصري يفوق الأسطول الإسرائيلي بنسبة ٤:١ في السفن الحربية بما في ذلك سفينتي الصواريخ الموجهة أوسا (Osa) وكومار (Komar)، ويستطيع الاعتماد على دعم سبعين سفينة سوفياتية موجودة في المنطقة، أما سلاح البحرية الإسرائيلية، فكان أداؤه متقطعاً عابراً وبصورة غير منهجية خلافاً لسلاحي الجو والبر. إذ فشلت هجمات قام بها سلاح البحرية والفدائيون معاً ضد الموانئ السورية والمصرية في إحداث أضرار جسيمة -بل أسر ستة من رجال البحرية الإسرائيلية في الإسكندرية- في حين كادت طائرات سلاح الجو الإسرائيلي تقصف زوارق طوربيد إسرائيلية قبالة شاطئ تل أبيب. وعلى الرغم من بقاء الأسطول السادس الأمريكي في شرق البحر المتوسط كثقل موازن للبحرية السوفياتية في المنطقة، لم يكن لدى الإسرائيليين أية وسيلة للاتصال به مباشرة. إذ ذهبت محاولاتهم المتكررة لإقامة علاقة ارتباط بحرية مع الأمريكيين أدراج الرياح.

ولدى انزعاج رابين من هذه العوامل، استدعى الكومندار إيرنست كارل كاسل (Comdr. Ernest Carl Castle) الملحق العسكري البحري الأمريكي في تل أبيب، وأخبره بأن إسرائيل ستدافع عن ساحلها بكل ما لديها من وسائل، ونصحه رابين بضرورة اعتراف الولايات المتحدة بسفنها في المنطقة أو تسحبها. وأن أية سفينة أو زورق يبحر بسرعة تزيد على عشرين عقدة -وهي سرعة لا تدركها إلا السفن المزوّدة بمدافع- سوف يتم إغراقها. (١٢)

أنجز الكابتن أفراهام لونز (Avraham Lunz) مناوبته في مقر قيادة أسطول جيش الدفاع الإسرائيلي، في الساعة ١١ صباحاً، بينما كانت السفن الحربية تبحث عن الغواصات المصرية لاصطيادها. ووفقاً للإجراءات المتبعة أزال إشارة «حيادي» الخضراء من لوحة المراقبة على أساس أنه مضى على وجودها خمس ساعات، لذلك لم تعد هذه المعلومة دقيقة. وبقدر ما يتعلق الأمر بالأسطول الإسرائيلي، فإن سفينة ليبرتي (Liberty) الأمريكية قد أبحرت بعيداً.

بعد أربع وعشرين دقيقة هز انفجار مروّع شواطئ العريش. وعلى الرغم من أن الانفجار نجم عن اشتعال مستودع ذخيرة، فقد لاحظ المراقبون الإسرائيليون سفينتين في عرض البحر فاستخلصوا أن المصريين كانوا يقصفونهم من البحر. فقد حصل مثل هذا القصف في اليوم السابق وفق التقارير المصرية والإسرائيلية معاً. (١٣)

بعد الانفجار في العريش بوقت قصير، وصلت ليبرتي حدود دوريتها الشرقية واستدارت مقدار ٢٣٨ درجة خلفاً في اتجاه بورسعيد. وفي غرفة العمليات، أقلقت أخبار القصف المزعوم رابين الذي كان قد حذر من قيام المصريين بعملية إنزال برمائية قرب غزة، فأكد الأمر الذي ما زال قائماً بإغراق أي هدف مجهول الهوية يدخل منطقة الحرب، ومع ذلك نصح بالحذر: لأن السفن السوفياتية ما زالت تعمل في مناطق قريبة. وبما أنه لم يكن في الجو طائرات مقاتلة طلب من الأسطول

الإسرائيلي أن يعترض، مع افتراض تأمين غطاء جوي فيما بعد. مضى من الزمن أكثر من نصف ساعة دون أي جواب من قيادة الأسطول في حيفا فوجهت الأركان العامة أخيراً توبيخاً: يقصف الساحل وأنتم -الأسطول- لا تحركون ساكناً».

لم يكن الكابتن إزي راهاف (Rahav Izzy) الذي حل محل لونز (Lunz) في غرفة العمليات بحاجة إلى مزيد من الحث. فأرسل ثلاثة زوارق طوربيد من الكتيبة ٩١٤ ذات الاسم الرمزي «باغودا (Pagoda)» لإيجاد السفينة المسؤولة عن القصف وتدميرها. كان الوقت الساعة ١٢,٥ بعد الظهر.

في الساعة ١,٤١ بعد الظهر أخبر ضابط المعلومات القتالية، إنساين أهارون يفراه (Ensign Aharon Yifrah) على متن السفينة الرئيسة من سفن الطوربيد هذه ، T-٢٠٤، ربانها الكوماندرا موشي أورين (Comdr Moshe Oren) أن سفينة مجهولة الهوية، قد شوهدت على بعد ٢٢ ميلاً إلى الشمال الشرقي من العريش. قاس يفراه سرعة السفينة وقدرها بثلاثين عقدة. إن هذه المعلومة بالإضافة إلى واقعة أن السفينة كانت متجهة نحو مصر، جعلت أورين يستنتج أنها سفينة معادية هاربة إلى مينائها في مصر بعد أن قصفت مواقع إسرائيلية.

شرعت زوارق الطوربيد بمطاردة السفينة، ولكنها لم تتوقع اللحاق بها حتى إذا أبحرت بأقصى سرعتها وهي ٣٦ عقدة، قبل أن تصل السفينة إلى مصر؛ لذلك أنذر راهاف سلاح الجو، فتحولت طائرتا ميراج عن مسار دوريتها الروتينية فوق سيناء، وأنذر قائد السرب الكابتن يفتاه سبكتر (Yifrah Spector) بوجود زوارق طوربيد إسرائيلية في المنطقة، وأعطى تعليمات بضرورة التأكد فيما إذا كانت السفينة المشتبه بها إسرائيلية فإن لم تكن كذلك فلتهاجم.

عند هذه النقطة - ١,٥٤- صدر عن أحد مراقبي سلاح الجو الإسرائيلي، لازار كارني (Lazar Karni) الذي كانت مهمته التنصت على الاتصالات بين الأرض والطيران، ويقدم اقتراحات من حين إلى حين، صيحة استغراب عفوية: «ما هذا ؟

أمريكيون؟». قال للمحققين الإسرائيليين فيما بعد أن هذا السؤال صدر عن شعور صادق، إذ إن المصريين، حسب إحساسه، لا يمكن أن يرسلوا سفينة واحدة لقصف العريش؟ ومع ذلك قال مراقب آخر على الخط: «أمريكيون: إلى أين؟» لم يجبه كارين، وقال في شهادته: «إن هجوماً كان يشنُّ على سفينة معادية، ولا أظن أنني في موقع يؤهلني أن أؤكد ما كان مجرد حدس».

في هذه الأثناء حدد سبكتر (Spector) موقع السفينة وأصدر رسالة تعريف من على ارتفاع ٣٠٠٠ قدم. إذ رأى «سفينة حربية رمادية اللون ذات أربعة أبراج مدافع، مقدمتها باتجاه بور سعيد... (و) سارية واحدة ومدخنة». ليس على السفينة أية علامة مميّزة سوى بعض الحروف السوداء «على هيكلها. ولم يُلوَّن ظهرها بصليب أبيض وأزرق الذي يميّز السفن الإسرائيلية. استنتج الطيار أن هذه العلامة هي «Z» أو مدمرة من نوع الطرادات، وبما أن طائراته كانت مزوَّدة بمدافع فقط، فقد طلب طائرات نفاثة إضافية محملة بقنابل حديدية.

نفى ملاحو ليبرتي فيما بعد أن الإسرائيليين قاموا بجولات استطلاعية أولاً، بل انقضوا عليها فوراً. كما رفض الأمريكيون ادعاء إسرائيل بأن استفسارات عن وجهة ليبرني قد أرسلت إلى الكومندار كاسل (Comdr. Castle) رغم أن كاسل، في واقع الأمر، لم يكن يعلم شيئاً عن السفينة. على أية حال، تداخلت الروايتان عند نقطة واحدة هي أن طائرتين من طراز ميراج، قد بدأتا هجومهما في الساعة ١,٥٧ بعد الظهر. (١٤)

أصابت الصليات الأولى طاقم ليبرتي وهم في حالة راحة واسترخاء بلا خوذ ولا أحزمة نجاة. وكان ماك - غوناغل وعدد من الضباط يشمسون أنفسهم على ظهر السفينة. وفجأة درزت قذائف مدافع من عيار ٣٠ مم السفينة من مقدمتها إلى مؤخرتها، مدمرة الأنتينات ومشعلة براميل النفط. قتل تسعة على الفور وجُرح أضعاف أضعاف هذا العدد، من بينهم ماك غوناغل الذي أصيب إصابة خطيرة في ساقيه، ومع ذلك رفض إخلاءَهُ - وكافأه الكونغرس فيما بعد بمدالية

الشرف - بل أمر السفينة أن تستدير إلى اليمين تماماً إلى عرض البحر وأبرق على الفور إلى الأسطول السادس «نتعرض إلى هجوم من طائرات مجهولة الهوية، أرسلوا مساعدة فورية».

قامت طائرات الميراج بغارات ثلاث مشطت ليبرتي من المؤخرة إلى المقدمة محدثة في بدنها أكثر من ٨٠٠ ثقب. قال سبكتر: «لقد قصفناها كثيراً كنت أظن أنها تصدر دخاناً عمداً، وأن الدخان يخرج من المدخنة». سأل رئيس مراقبي سلاح الجو الإسرائيلي، شموئيل كيسليف (Shmuel Kislev) مرتين عما إذا كانت السفينة ترد بمضادات للطيران، ولكن الطيارين كانوا مشغولين جداً بحيث لم يردوا عليه. بعد هجمات دامت ثلاث دقائق ونصف، ونفاد الذخيرة، عادت طائرات الميراج إلى قواعدها، وحل محلها سرب من طائرات الميستير. كانت هذه الطائرات قد عادت قبل قليل من قصف المشاة المصريين، وكانت مزوَّدة من أجل هذه المهمة بقنابل النابالم. في حين أن هذه القنابل لا تناسب حرباً بحرية، فقد تمكنت طائرات الميستير أن تحلق على ارتفاع منخفض وتلقي بحمولتها من قنابل النابالم. وما هي إلاّ ثوان حتى كانت الأبراج وظهر السفينة قد اشتعلت لهباً، ولف الدخان السفينة بأكملها.

كانت طائرات الميستير على وشك توجيه ضربة ثانية عندما أنذر الأسطول بأن السفينة المستهدفة لا ترد على نيران الطائرات، فحذرهم كيسليف بأن الهدف ربما يكون إسرائيلياً حقاً. قال كيسليف للطيارين: إذا كان هناك شك (فيما يتعلق بهوية الهدف) فلا تهاجموه» فاتصل الأسطول بسرعة بسفنه في المنطقة - لم تكن أي منها تتعرض للنيران - وأشارت إلى سلاح الجو بالاستمرار. فقال كيسليف: «يمكنك متابعة الهجوم وإغراق السفينة».

ومع ذلك، ظل كيسليف مضطرباً بسبب عدم رد السفينة على الهجمات الجوية «هذا أيسر من إسقاط طائرات الميغ» كما علق أحد المراقبين - ولكنه كان يخشى من أن يكون الأسطول قد ارتكب فعل القتل. فقال الكابتن يوسي زوك (Yossi Zuk)،

قائد سرب الميستير: «إن كان لديك تشكيل من طائرتين محملتين بقنابل (وزنها ٥٠٠ باوند).. فذلك بركة.. وإلاّ سيكون الأسطول هنا في عشر دقائق». ثم طلب كيسليف، في خضم هذه الضغوط المتكافئة، القيام بمحاولة أخيرة لتحديد هوية السفينة، قائلاً: «ابحثوا عن علم إن كان الطيارون يستطيعون رؤية علم. وانظروا فيما إذا كانوا قادرين على تمييز السفينة بعلم».

أجاب زوك، وما زال يحلق على ارتفاع منخفض، ويقصف، قائلاً: «ليس على السفينة علم»، ولكنه لاحظ ما يعتقد أنه حرف «P» ثم صحح نفسه قائلاً: «انتبه، علائم السفينة المميّزة هي «Charlie - Tango - Romeo - Five». فصاح فيه كيسليف: «اتركها!!» اعلم أن السفن المصرية تميّز نفسها عادة بالحروف العربية، وليس بالحروف اللاتينية، وكان ظنه أن السفينة التي تتعرض للهجوم هي سفينة أمريكية.

أرعبت الأخبار الضباط الإسرائيليين الموجودين في غرفة العمليات. إذ خشي رابين أن تكون السفينة سوفياتية وليست أمريكية، وأن تكون إسرائيل قد أعطت ذريعة للتدخل السوفياتي. ولدى غياب دايان في زيارة له إلى الخليل، وموتي هود في طريق عودته من تلقي بعض المعلومات والأوامر، قام رئيس الأركان بأخذ زمام الموقف بنفسه. فأرسل طائرتي هيليكوبتر من سلاح الجو الإسرائيلي للبحث عن الناجين الذين رآهم الطيارون يقفزون من السفينة إلى البحر. وأمر رابين زوارق الطوربيد التي ما زالت تلاحق السفينة، أن تظل على مسافة آمنة بعيداً عنها.

كان مشهد ليبرتي في هذه الأثناء جهنمياً. الرجال مصابون بحروق النابالم المروّعة، مزّقت أجسادهم بالشظايا، وحشروا في غرفة الضباط الصغيرة التي تحولت إلى مشفى طوارئ. وأرسل العاملون في اللاسلكي في غرفة الاتصالات إشارات أسى غير مشفرة. أما الجنود الآخرون الذين ما زال في أجسامهم شيء من المقدرة قاموا بإحراق أوراق سرية، ورفعوا علم أمريكيا كبيراً يرفع عادة في العطل يحل محل العلم البحري الأصلي الذي نُسف بالقصف. ولم يكن لديهم أي دليل يبين إلى من ينتمي المهاجمون بالضبط. وظن أغلبهم أنها طائرات ميغ مصرية.

الدخان نفسه الذي حجب الطائرات الإسرائيلية عن ليبرتي، هو ذاته الآن يحجب ليبرتي عن الكابتن أورين. وصلت عمارة باغودا من زوارق الطوربيد إلى موقع الأحداث في الساعة ٢,٤٤ بعد أربع وعشرين دقيقة من إصدار رابين الأمر لها بالتوقف. وفي حين ظهر هذا الأمر في سجل T-٢٠٤، (ادعى أورين فيما بعد أنه لم يستلمه أبداً. ومع ذلك توقف على بعد ٦٠٠٠ متر عن السفينة وتفحصها. وعلى الرغم من الدخان، استطاع أن يرى أن السفينة لم تكن المدمرة، التي قصفت العريش، حسب ظنهم، بل على الأغلب ناقلة كانت تخدم تلك المدمرة أو أنها خلت جنود الأعداء من الشاطئ. فعاد إلى سجل المخابرات فوجد أن الصورة الظلية (المُسلوَثة) للسفينة تشبه سفينة التموين المصرية القصير (El Quseir)؛ كما توصل ربانا الزورقين الطوربيديين الآخرين كل على انفراد إلى النتيجة ذاتها. فضلاً عن أنه عندما أرسل إشارة إلى السفينة مستفسراً عن هويتها، لم يتلق جواباً واضحاً. فأمر أورين عمارة زوارق الطوربيد باتخاذ تشكيل مثالي.

وعندما اقتربت باغودا من سفينة ليبرتي، كانت إشارة الأسى والألم التي أرسلتها قد وصلت نهائياً إلى USS America. وجاء الجواب «المساعدة في الطريق» كانت حاملة الطائرات في منتصف تمارين استراتيجية؛ وكانت الطائرات على متنها مسلحة بصواريخ ذات رؤوس نووية، ولم يكن لديها وقت كافٍ للاستعاضة عنها بأسلحة تقليدية. أقلع سرب من ثماني طائرات F-٤ في اتجاه سيناء، وما هي إلا دقائق حتى استدعاه نائب الأدميرال مارتن (Martin) وأمره بالعودة. إذا كان رابين يخشى أن تكون السفينة روسية، فإن مارتن كان يشك بأن مهاجميها كانوا روساً، وأنهم لم يجازفوا ببدء حرب نووية دون تخويل من أعلى مستويات السلطة.

لم تصل المساعدة من حاملة الطائرات (USS America)، بيد أن الإسرائيليين أصبحوا ضمن المدى. أمر ماك غوناغل، الذي جرب العودة إلى نظام إرسال الإشارات بمصباح ألدس (Aldis lamp) اليدوي -لأن جميع الأنوار الكشافة قد دمرت- رجاله ألا يطلقوا النار على زوارق الطوربيد المقتربة. ومع ذلك، فتح جندي

لم يسمع الأمر النار من أحد الرشاشات الأربعة الموجودة في السفينة. كما فُتحت النار من رشاش آخر ضغط زناده بسبب انفجار ذخيرة. أصبح أورين الآن يتعرض لإطلاق نار من سفينة افترض أنها مصرية. فاتصل لاسلكياً بإزي راهاف في مقر قيادة الأسطول طالباً الإذن باستئناف إطلاق النار. وبعد تردد أعطى راهاف الإذن.

من بين زوارن الطوربيد الخمسة التي أطلقت النار على ليبرتي، لم يصب هدفه بدقة سوى زورق واحد إذ أصاب ميمنة السفينة، وقتل خمسة وعشرين رجلاً، معظمهم من قطاع المخابرات. قال عنصر الارتباط من سلاح الجو الإسرائيلي الموجود مع الأسطول إلى كيسليف: «كيسليف، إنها سفينة تموين مصرية. لا أريد أحداً بعد الآن يقول إن لدى سلاح الجو مشكلة في تحديد هوية السفينة». ولدى شعور كيسليف لفترة وجيزة بأنه بريء من الخطأ، أصدر تعليماته للمروحيات بالاستمرار بمهمة الإنقاذ ولكن بحذر.. وكان الأمر على النحو التالي: «أخبر المروحيات أنهم ليسوا أمريكيين.. بل مصريين. وقل لهم (للقوات الإسرائيلية) إن بحارة مصريين سيصلون من البحر من سفينة أغرقتها البحرية الإسرائيلية».

وكان ما زال ينبغي للأسطول أن يغرقها، على أية حال. فاقتربت زوارق الطوربيد من سفينة ليبرتي وأطلقت عليها نيران مدافعها ورشاشاتها عن كثب - وعلى روامث* النجاة حسبما ذكر بحارتها. والتقطت إحدى زوارق T-٢٠٣ أحدها وإذا بها تحمل إشارة الأسطول الأمريكي. فبدأ أورين يشك في أن السفينة ربما لا تكون مصرية. ولدى إحاطته بالسفينة سيئة الحظ، رأى علامة مميزة هي GRT-٥. ولكن محاولات أورين للاتصال بالبحارة عبر مكبر صوت باءت بالفشل فلم يتلق أي جواب، ولم تُحدّد هوية السفينة إلا بعد نصف ساعة. فمن على ارتفاع خمسة وثلاثين ألف قدم فوق المنطقة التقطت طائرة تجسس أمريكية من طراز EC121M إشارات زوارق الطوربيد. «هاي، أيها الرئيس «قال مايك بروستيناك (Mike Prostinak) عبري اللسان، محذراً قائده، ضابط الصف البحري، مارفين إي نورفيكي: (Maxnin E. Norwicki)» التقطت على تردد UHF إشارات تدل على نشاط غريب، إنها تذكر علماً أمريكيا».

وصلت كلمة تدل على جنسية السفينة الأمريكية عندما كانت هيئة أركان جيش الدفاع الإسرائيلي تدرس احتمال قيام السوفيات برد انتقامي. يذكر رابين أنه قال: «لا بد وأنه كانت لدي مشاعر مختلطة بشأن النبأ - مشاعر الأسف العميق لقيامنا بالهجوم على أصدقائنا، وشعور هائل بالانفراج (لأن السفينة لم تكن سوفياتية)». فأرسل على الفور اعتذاراً إلى كاسل (Castle) الذي أخبر بدوره الأسطول السادس. وكان جناح آخر من النفاثات، المسلحة بقنابل تقليدية، قد أقلع من على حاملة الطائرات ساراتوغا (Saratoga). وعلى الرغم من أن الطيارين قد حُذروا من الاقتراب كثيراً من الساحل أو من ملاحقة طائرة مهاجمة، فقد خولوا «باستخدام القوة اللازمة لحماية سفينة ليبرتي الأمريكية».

ولكن مارتن أمر الطائرات بالعودة، ولم يصل ليبرتي سوى طائرتين مروحيتين إسرائيليتين من طراز سوبر فريلون (Super Frelon). ولدى تحقُّق ماك غوناغل من هوية الطائرتين المهاجمتين أخيراً، أشاح لهما بيده كي ترجعا. ولم تستطع مروحية إسرائيلية أخرى كانت تقل كاسل (Castle) الذي ألقى ببطاقة عمله على ظهر السفينة - من الهبوط بسبب الظلام. وبحلول الساعة ٥,٥٠ مساءً كان الإسرائيليون قد قطعوا الاتصالات، وكانت ليبرتي قد أبحرت إلى عرض البحر مترنحة تحمل أربعة وثلاثين قتيلاً ومئة وواحداً وسبعين جريحاً». (١٥)

وبعد ساعتين تقريباً، تلقى جونسون نبأ مفاده أن ليبرتي التي كانت «على بعد ٦٠-١٠٠ ميل شمال مصر» قد هوجمت من قبل زورق طوربيد مجهول. فافترض الرئيس على الفور أن السوفيات قد انخرطوا في الحرب. ولكي يحبط أي تصعيد آخر اتصل بالكرملين عبر الخط الساخن محيطاً إياه علماً بالهجوم وإرسال طائرات من الحاملة ساراتوغا. أكد كوسيغن تلقي هذه المعلومات، ووعد بتمريرها إلى ناصر(١٦) وما زال السؤال «من الذي حاول إغراق ليبرتي؟» قائماً.

مضت ساعتان قبل أن تؤكد السفارة الإسرائيلية في واشنطن ما وصفته «بالعمل الخاطئ» وتبع ذلك التأكيد على الفور رسالة اعتذار من هارمان (Harman). وكان رد فعل جونسون الأولي، مثله كمثل رابين، هو الشعور بالارتياح لأن السوفيات لم يتورطوا. وفي حين أبلغ هارمان «بمشاعر الرعب القوية»، أبلغته الإدارة الأمريكية أيضاً بشكرها على صراحة بيان إسرائيل وصدقه. إذ سارع إشكول إلى إرسال برقية تقول: «يرجى قبول أعمق تعازينا وأصدق عواطفنا لكل العائلات المنكوبة» وتبعه إيبان ببرقية تقول: «إنني أشعر بالخزي العميق والحزن الشديد بسبب الحادث المأساوي الذي مسَّ سلامة الأمريكيين وأزهق أرواحهم». وكتب إيفرون رسالة شخصية إلى الرئيس قال فيها: «إنني حزين معكم على الأرواح التي أزهقت، وأشارك آباء وأمهات، وأزواج وأطفال الذين قتلوا في هذه اللحظة القاسية من انحراف القدر» وفي غضون ٤٨ ساعة عرضت الحكومة الإسرائيلية تعويضاً للمصابين؛ ودفعت في النهاية ١٢ مليون دولار.

يبدو أن إبداء الأسَف ومحاولات إعادة الأمور إلى نصابها قد أرضت الإدارة الأمريكية التواقة إلى التخفيف من أثر هذا الأمر. قال باربر محذراً في تل أبيب: «إن اقتراب ليبرتي من مشهد الصراع يغذي شكوك العرب بالتواطؤ الإسرائيلي الأمريكي» ومن القاهرة، حث نولتي (Nolte) الإدارة الأمريكية قائلاً: «خير لنا أن ننشر خبر الهجوم على ليبرتي بالطوربيدات بأسرع ما يمكن، بوصفه حدثاً جيداً» وربما يخشى أن يلفت الحادث الانتباه إلى وجود غواصات أمريكية - اسمها الرمزي (المشفر) فرونتليت ٦١٥ (Frontlet) - تعمل في المياه المصرية. فأصدرت وزارة الدفاع بياناً رسمياً تعترف فيه بأن «سفينة أبحاث أمريكية تابعة للأسطول الأمريكي «مخصصة» لتقديم معلومات تتعلق بإخلاء الموطنين الأمريكيين من الشرق الأوسط «قد هوجمت في المياه الدولية» على بعد ١٥ ميلاً شمال شبه جزيرة سيناء». وقال البيان إن إسرائيل قد اعترفت بمسؤوليتها عن الهجوم واعتذرت عنه. وفيما عدا ذلك أسدل ستار كثيف من التعتيم الإعلامي على الحادث. (١٧)

ومع ذلك بدأ المسؤولون الأمريكيون، حالياً، بالاهتمام بالطريقة التي عومل بموجبها الحادث، وأكثر من ذلك بالأسباب التي أدت إليه. فبرزت أسئلة كبرى عديدة: لماذا هاجم الإسرائيليون سفينة محايدة في أعالي البحار، دون أي استفزاز؟ وكيف لم يروا علم ليبرتي أو العلامات المميزة المدهونة على هيكلها حديثاً؟ وكيف يخطئون ليبرتي فيدعون أنها القصير (El-Quseir) المصرية، الأبطأ من ليبرتي كثيراً، والأصغر منها، تسجل بأنها تسير بسرعة ثلاثين عقدة، علماً بأن سرعتها القصوى هي ثماني عشرة عقدة فقط؟

قال راسك مزبداً غضباً: «لا يعقل، لا يمكن قبول مثل هذا الوضع» كما أن كلارك كليفورد، أحد مستشاري ترومان وكينيدي المؤيدين بقوة لإسرائيل، والذي يشغل الآن في إدارة جونسون منصب رئيس المجلس الاستشاري للمخابرات الأجنبية وصف الهجوم بأنه «لا مسوّغ له.. وإهمال فاضح يجب أن تتحمل حكومة إسرائيل مسؤولية كاملة عنه». وقال: إن الحادث قد عومل وكأن العرب أو الاتحاد السوفياتي قد قام به» في حين لم يستطع أي من المسؤولين تفسير دوافع إسرائيل للهجوم على سفينة أمريكية ولا التدقيق في الوقائع واختبارها. وإما أن الإسرائيليين قد أظهروا عجزاً مطبقاً - في خضم انتصارهم الخالي من الأخطاء - أو أنهم ضربوا ليبرتي عن عمد. والواقع أن كثيرين في الإدارة الأمريكية قد استخلصوا أن الهجوم كان مقصوداً أو أن تعليلات إسرائيل خادعة (١٨). وسرعان ما أخذ الاتهام بالقتل عن سابق إصرار وتصميم يحل تدريجياً بدل الاتهام بالإهمال الجنائي.

تحرك الإسرائيليون لنفي هذه الاتهامات بتقارير داخلية ثلاثة، آخرها إجراء تحقيق كامل برئاسة القاضي العسكري، الكولونيل يتشاياهو بيروشالمي (Yeshayahu Yerushalmi). أقرت التقارير الثلاثة بأن اللوم يقع على إسرائيل في إعطائها تقارير خاطئة عن القصف على العريش، وفي حساب سرعة ليبرتي خطأ وفي اختلاط الأمر في تحديد هوية ليبرتي على أنها سفينة القصر (El-Quseir) المصرية. كما بينوا الاتصالات الخاطئة بين فروع الجيش المختلفة، وإنهاك الطيارين

بعد أربعة أيام من القتال المتواصل، ورغبة الأسطول الجامحة في التعويض عن إخفاقاته السابقة في الحرب. ومع ذلك، خلصت الدراسات الثلاث أن الهجوم كان «خطأ بريئاً» لم ينجم عن حقد أو إهمال متعمد فادح. كتب ييروشالمي (Yerushalmi) يقول: «إنه لمن دواعي أسفي الشديد أن تتورط قواتنا في حادث مع سفينة لدولة صديقة. «إنني لم أكتشف أي انحراف على السلوك القياسي المعقول يستدعي إجراء محاكمة عسكرية». (١٩)

قال يوجين روستو متذمراً لدى إطلاعه على هذه النتائج الثلاث: «اللعنة عليها، لا معنى لها البتة. وكتب راسك حول هذا الهجوم يقول: «لم يكن مفهوماً أبداً.. إنه إهمال عسكري يظهر استهتاراً بحياة البشر» إن اقتراحاً إسرائيلياً مفاده أن وجود ليبرتي في مكان لا عمل لها فيه أدى إلى عدم إحاطة إسرائيل علماً بوجودها وأنها أخفقت في التعريف بنفسها بوساطة «السيمافور، والأنوار، والأعلام» قد أثار الاستياء. كما ثبت أن تأكيد إيفرون أن ضباط جيش الدفاع الإسرائيلي «سيعاقبون عقاباً شديداً» لا أساس له من الصحة. أخذ البيت الأبيض الآن يطالب ليس فقط بوجوب دفع إسرائيل تعويضات، بل أيضاً الاعتراف بالخطأ ومحاكمة المسؤولين عن الهجوم «وفقاً للقانون الدولي».

لم يعكس هذا الطلب، على أية حال، أية رغبة لدى الولايات المتحدة للتحقيق في الحادث بصورة دقيقة، افترضت محكمة بحرية انعقدت في مالطا للتحقيق في الحادث برئاسة العميد البحري إسحاق س.كيد (Isaac C.Kidd) الصغير، بعد الهجوم بوقت قصير، أن علم ليبرتي لم يظهر جلياً للطيارين الإسرائيليين بسبب عدم وجود ريح كافية، وأن الهجوم كان، على ما يبدو «نتيجة لخطأ تحديد الهوية» أجريت مراجعات أخرى من قبل المخابرات المركزية الأمريكية (CIA)، وهيئة الأركان المشتركة، ولجنة شؤون المجلس التشريعي، ووكالة الأمن القومي (٢٠). ولكنه لم يجر البحث في أي وقت عن إجابات عن الأسئلة المتعلقة بمن أرسل ليبرتي ذات التسليم الخفيف متسترة إلى قلب منطقة حرب يخوضها الآخرون، ولأي غرض؟ إن أحداً لم يقل ولم يتهم مهمة ليبرتي بأنها غلطة فظيعة.

أتاح غياب أجوبة كهذه الفرصة لنشوء مزيج من نظريات المؤامرة تدعي تفسير الحادثة. فقيل: إن إسرائيل قد شنت هذه الهجوم لتمنع ليبرتي من إرسال تقارير عن مكاسب إسرائيل في سيناء، أو عن ما زعم عن إعدامها للأسرى المصريين، أو اعتراضها للرسائل بين القاهرة والملك حسين. وأكثر الاتهامات انتشاراً هي أن إسرائيل - وخصوصاً دايان - أرادت تدمير ليبرتي لإخفاء استعدادات إسرائيل للهجوم القادم على سوريا واختراق أراضيها.

لم تصمد أي من هذه النظريات أمام التمحيص التاريخي، أو حتى لم يكن لها معنى مقبولاً، على أية حال، لم تبذل إسرائيل جهداً يذكر لإخفاء تقدمها في سيناء أو نواياها تجاه الجولان عن الأمريكيين. كان الأردن في الثامن من مايو (أيار) قد أصبح عاجزاً عن مواصلة القتال. ولم يظهر أي دليل على أن إسرائيل قد قامت بإعدام جماعي لأسرى الحرب، أو أنها سعت لإخفاء ذلك السلوك عن طريق قتل الأمريكيين. والواقع، أن الإسرائيليين الذين يهيمن عليهم القلق بشأن رأي الولايات المتحدة فيهم، والخوف المتأصل فيهم من السوفيات، كانوا كارهين تماماً لخلق عداء. ناهيك عن خوض حرب، ضد القوة العظمى الوحيدة التي تحميهم. وبينما كان بإمكان جيش الدفاع الإسرائيلي إغراق ليبرتي إلا أن الحقيقة ظلت أنه لم يغرقها. بل أوقف النيران حالما أدرك الخطأ، وعرض تقديم المساعدة للسفينة. استخدم المعلقون العرب والسوفيات منطق هذا الحوار - بصورة ساخرة - وأكدوا أن ليبرتي كانت تتجسس لصالح إسرائيل في أثناء الحرب وأن إسرائيل هاجمتها خطأ. (٢١)

أهي حرب أيام أربعة؟

إن حادثة ليبرتي بما صاحبها من تحديد خاطئ للهويات والمناوشات التي كادت تحدث بين القوات الأمريكية والسوفياتية، قد ألقت الضوء على سهولة اشتباك القوى العظمى في حرب عن غير عمد في الشرق الأوسط. نصح غولد بيرغ، إيبان، قائلاً: «على إسرائيل أن تحرص على عدم دفع منفعتها أبعد مما ينبغي» لافتاً النظر

إلى أن هزيمة العرب الشاملة قد زادت من خطر تدخل السوفيات. كما أن الـ CIA استشهدت في تقرير لها بمصدر سوفياتي سري، يحذر من تعاظم احتمال انخراط السوفيات مباشرة في الحرب - إذ أوضح ذلك المصدر قائلاً: «ليس أمامنا خيار آخر». كما هدد كوسيغن - على ما يبدو - بدور سوفياتي أكثر عدوانية، فقد كتب رئيس الوزراء السوفياتي في رسالته الساخنة التالية إلى واشنطن قائلاً: «لقد وضعت أعمال إسرائيل الدول العربية في وضع لا يسعهم فيه إلا أن يخوضوا حرباً دفاعية ضد المعتدي. وما لم يتم انسحاب القوات الإسرائيلية الكامل.. لا يمكن إقامة سلم في الشرق الأدنى وتوطيده».

كان أفضل أمل للحيلولة دون صدام القوى العظمى يكمن في مجلس الأمن الذي انعقد ثانية في الساعة الثانية بعد الظهر، بعد انقطاع دام حوالي ٢٤ ساعة. إذ لم يطرأ على الجو السياسي تحسن إلا قليلاً. فبالإضافة إلى الفجوة الواسعة القائمة بين موقفي الاتحاد السوفياتي، والولايات المتحدة، فقد نشأت الآن خلافات بين موقفي إسرائيل والولايات المتحدة. فقد عارض إيبان أي ربط بين وقف القتال وعودة القوات الإسرائيلية إلى خطوط الرابع من يونيو (حزيران)، بل أراد ألا يأتي مجلس الأمن على ذكر اتفاقات الهدنة أبداً، ولا حتى على ذكر كلمة «انسحاب» في حين، ذكر غولد بيرغ بدوره بياناً بمتطلبات الرأي العام، قائلاً: «من الضروري ألا تبرز إسرائيل من الوضع الحالي قوة عازمة على انتهاك السلامة الإقليمية للبلدان الأخرى» ودعاه، متفضلاً، للتشاور مع ماك جورج بندي (Mc George Bundy) حول «أفضل السبل للتوصل إلى سلام، والتغلب على مشاعر الضغينة والإذلال التي يحس بها العرب».

ومع أن الاختلافات الأمريكية - الإسرائيلية حادة، لكنها ضئيلة جداً بالمقارنة مع الاختلافات السوفياتية - الإسرائيلية. فقد قال فيديرنيكو معنفاً بقسوة: «إن الحشود العسكرية الإسرائيلية تتبع خطوات الجلادين الهتلريين الدامية» ورد عليه جدعون رفائيل بالطريقة ذاتها: «لم تعقد إسرائيل ولا الشعب اليهودي حلفاً مع

ألمانيا الهتلرية، يشجع ألمانيا النازية على إطلاق العنان لعدوانها على العالم». تابع السوفيات اقتراحهم بإصدار قرار يدين إسرائيل ويطالبها بانسحاب كامل من الأراضي العربية. وواجهتهم الولايات المتحدة بمسودة مشروع غير بارع صاغته هي بنفسها يدعو إلى «إجراء مباحثات.. بين الأطراف المعنية» وإلى فصل القوات المتحاربة، وإدانة استخدام القوة، والحفاظ على الحقوق الدولية، وإقامة «سلام مستقر ودائم في الشرق الأوسط». لم يحظ أي من النصين بفرصة موافقة مجلس الأمن؛ ولم يناقش أي من النصين بجدية.

هل تنسحب إسرائيل أو لا تنسحب ظلت مسألة فيها نظر، طالما أن مصر مازالت ترفض وقف إطلاق النار. وكانت هناك ضغوط موازية تمارس على القوني، فقط كان السوفيات يحثونه على إبداء مرونة، بينما كان أعضاء الكتلة الآسيوية - الإفريقية - نيجيرنا، وباكستان وقبرص، وإندونيسيا -تحثه على الوقوف بحزم. وانتشرت إشاعات في قاعة مجلس الأمن مفادها أن القاذفات السوفياتية في طريقها إلى الجبهة، وأن الجيش المصري سيعيد في أقرب وقت تجميع نفسه ويشن هجوماً معاكساً ضخماً. وقالت الإشاعة، إنه رغم التزام القوني بوقف القتال فإن القاهرة ربما تتنكر له. وتعمقت الفوضى عندما ذكرت وكالة الأنباء الفرنسية أن ناصراً قد رحب علناً بإنهاء حالة الحرب. فاندفع السفير المصري ليؤكد هذا الادعاء، فتبين له أن النبأ كاذب. فجلس بعد ذلك في رواق المراقبين، منسحباً من قاعة المجلس، بانتظار توجيهات من ناصر. (٢٢)

ولكنَّ أحداً لم يسمع من عبد الناصر أو شاهده خلال ثلاثة أيام متوالية. إذ كان قد حصر نفسه في بيته، بزعم أنه محزون بسبب هزيمة جيشه، وحجب نفسه عن العالم الخارجي وامتنع عن الاتصال بالقادة العسكريين بوجه خاص. فقد سعى السادات مراراً وتكراراً إلى التحدث معه أو المثول أمامه، طالباً منه بإلحاح أن يطرد عامر ويتسلم قيادة الجيش بنفسه، ولكن عبثاً. لم يشأ ناصر أن يخرج على الملأ. ثم ظهر زعيم مصر فجأة في منتصف يوم الثامن من يونيو (حزيران). إذ دخل مقر القيادة العليا وعلى شفتيه ابتسامة عريضة، وأعلن أنه قد انتهى منذ قليل من حديث

له مع القادة السوفيات والجزائريين، وأن ٢٠٠ (مئتي) طائرة ميغ جديدة في طريقها إلى مصر؛ وأن القوات المصرية ستعيد تجميع نفسها، وتتمسك بالممرات أولاً، ثم تشن هجوماً ضخماً. وعندما سأله أحد رفاقه القدامى، عبد اللطيف البغدادي، لماذا لم تنسق مصر سياساتها مع موسكو وتقبل وقف إطلاق النار، رد عليه بعصبية: «لا يهم إن قبلناه أم لم نقبله. فاليهود سيستمرون بالقتال حتى يحققوا أهدافهم».

ثم استدعى ناصر، محمود رياض وأطلعه على برقية تلقاها من موسكو تحثه على الموافقة على وقف إطلاق النار. فكان جواب رياض، أنه طالما دفعت المخابرات السوفياتية بالجيش المصري إلى دخول سيناء، فلا يجوز للاتحاد السوفياتي أن ينضم إلى واشنطن في مطالبة مصر بالتوقف عن الدفاع عن نفسها. وقال رياض: إن على مصر أن تصمم على القتال حتى يطرد الإسرائيليون من أراضيها - وهو قتال يتوقع من السوفيات دعمه.

كان رياض، أيضاً، متفائلاً، فرحاً بالتقارير التي تفيد بأن مضادات الطيران المصرية قد صدت الطائرات الإسرائيلية، وأن المظليين الأعداء قد كبدوا خسائر فادحة في ممر المتلا، وأن رتلاً مدرعاً قد أوقف في روماني (Romani). وبالإضافة إلى رفض طلب موسكو، هتف بنفسه إلى كل من الممثلين الدائمين في مجلس الأمن يذكرهم بأنه لن يكون هناك وقف لإطلاق النار دون انسحاب إسرائيل فوراً. وأخذ راديو القاهرة يطمئن المستمعين ثانية بأن مقاومة عنيفة يدور رحاها على كل جبهات سيناء. وأن ليس لدى الحكومة أية نية في الموافقة على وقف إطلاق النار.

بدا وكأن فرص التوصل إلى قرار في مجلس الأمن قد أخذت تخبو وتتضاءل بفضل وهم المصريين بإحراز نصر محتمل وبسبب خوفهم من العار العام. نفى صلاح نصر (Salah Naser) رئيس فرع الخدمات السرية ادعاءات إسرائيل بتحقيق انتصارات، وعبر عن لفتة بأن مصر سوف تعود إلى خطوط الهدنة السابقة وربما تحتفظ بالحصار. أما مصر فلن توافق على وقف إطلاق النار معللاً ذلك بقوله: «ماذا سنقول للشعب». (٢٣)

لم تستطع تلك الأوهام - على أية حال - إخفاء صورة الدمار الشامل المنتشر على طول قناة السويس. إذ عبر القناة حوالي ١١٠٠٠ جندي، في حين تاه حوالي ٢٠٠٠٠ جندي في سيناء وهم بأمس الحاجة إلى الماء. ولدى مشاهدة الجنرال فوزي الطريق القادم من الإسماعيلية، رأى سرايا كاملة من الدبابات يتخلون عن مركباتهم وأسلحتهم الشخصية ويسبحون عبر القناة. وأصدر عامر أمره إلى الجنرال عبد المنعم خليل بنسف الجسور المقامة على القناة، غير آبه بهؤلاء الجنود ولا بحقوقهم. وشهد خليل قائلاً: «كانت تلك آخر كلمات سمعتها منه، آخر أمر مشين».

وقال محمد أحمد خميس، ضابط اتصالات الفرقة السادسة الذي عاد إلى سيناء وسط إشاعات بوجود غطاء جوي جزائري: «لقد كان مشهداً مروعاً كانت القطع المحطمة متناثرة فوق الرمال.. دبابات محترقة تماماً.. مركبات محطمة، وأجساد متفحمة تبدو وكأنها تماثيل.. فجأة رأيت ضباطاً كباراً في سيارة جيب عسكرية وطلبوا إليّ أن أعود ثانية.. وقالوا لي لم يعد في سيناء قوات مصرية، وأن الأمر كله قد انتهى». كما أن ضابط الاستطلاع، يحيى سعد باشا (Yahya Saشad Basha) قد نجا من الممرات ليقع في المصيدة ثانية. قال واصفاً حالته: «وصلت ضفاف القناة فرأيت أن الجسور قد نسفت، فتمدّدت على الأرض، ونمت نوماً عميقاً منهكاً حزيناً.. تعصرني مرارة الهزيمة التي لم نفهمها».

وفي ممر الجدي، وجد الجنرال الغول نفسه وحيداً وهيئة أركان فرقته، ليس لديهم مدفعية، ولم يبق لديهم سوى دبابة واحدة. قال فيما بعد: «لقد شوشت اتصالاتنا تماماً بفضل سفينة ليبرني الأمريكية» وخوفاً من أن يقعوا في الأسر، أصدر أمره الثاني والأخير بالتراجع.

ممن شاهدوا ذلك الهروب المراسل الحربي البريطاني ديفيد برايس - جونز (David Pryce- Jones). وبعد أن أنجز تقريره عن سقوط «أبو عجيلة» قفل راجعاً مع القوات المصرية إلى القنيطرة حيث كانت «العبّارات/المعدّيات» تنقل الجنود المصريين من سيناء على دفعات تتألف كل منها من خمسين جندياً:

«كان طبيب مشرف يجبر الجنود العابرين على التوقيع على سجل، وكان كل منهم يضغط إبهامه، الواحد تلو الآخر، على لبادة حبر قرمزي ثم على صفحات دفتر مرنة. كان هؤلاء من المجندين الإلزاميين، وأميين. وعلى الضفة الأخرى من القناة، كانت الأمهات تنتظرن تحت الشمس في صفوف محددة ساكنة، اجتمعن من مختلف أنحاء البلاد ليعرفن مصير أبنائهن. وخلف الأمهات المصطفات بتسلسل كان يمتد سياج من الأسلاك الشائكة يحيط بهنغارات الضباط، وكان أربعة أو خمسة منهم يسترخون في كراسي مركب مخططة يشاهدون الجماهير من خلال مناظيرهم الميدانية».

لقد نجح بعض المبعوثين الأجانب، وبعض الإشاعات من الجبهة في الإفلات من الرقابة والرقباء. فغرقت القاهرة في صمت وقلق الآن، بعد أن كانت مبتهجة بما أشيع عن هزيمة إسرائيل، وحذر نولتي (Nolte) من خطر نشوب شغب متزايد ومظاهرات صاخبة ماثل للعيان واضح «في المدينة تؤدي إلى «انهيار خطير للنظام العام». (٢٤)

وبحلول آخر النهار، كان ناصر قد اجتمع بكبار الضباط الذين أخبروه بوضع سيناء الذي لا رجعة فيه ولا يمكن تغييره. آخر من التقاهم كان عامر. الذي فوجئ أثناء اجتماعه بالبغدادي وبكمال حسن بدخول رئيسهم. نهض الضباط الأحرار السابقين يبكون، وخرجوا من الغرفة تاركين الزعيمين وحدهما. نشأ جدال حاد بينهما، ولم يستطع محمود الجيار (Mahmud al-Jiyyar) أحد زملاء ناصر القدماء الذي كان ينتظر خارج الغرفة، أن يتبين تفاصيل ما دار بينهما، وبعد فترة وجيزة، خرج ناصر منحني الظهر مطأطئ الرأس. وتبعه عامر على الفور قائلاً: «تصور يا جيار أن كل شيء قد انتهى وأننا موافقون على وقف النار» وأردف قائلاً: «كفى، يا جيار، إننا مستسلمون».

استدعى ناصر، رياض، وقال له بصوت مخنوق إن مصر لم تعد قادرة على متابعة القتال؛ ولا بد من إحاطة القوني علماً بذلك. خشي رياض من الاتصال بالقوني. واعترف في مذكراته بأنه «خلال الأيام القليلة المنصرمة كنت أغذيه

(القوني) بالتقارير العسكرية المبهجة التي كنت أتلقاها، والتي كان يتقبلها ويكذب ما يصله من أنباء عن انهيار الجيش من زملائه السفراء، ويعتبر ذلك نوعاً من الحقد وعدم الدقة. بقينا صامتين لحظات من الزمن. فقد انهار الوهم العظيم الذي كنا نعيشه». وصل وزير الخارجية إلى سفارة نيويورك في الساعة التاسعة مساءً.

اهتز القوني من الأعماق. وصاح قائلاً: «لا يمكن أن يكون ذلك». فقد كان السفير قد حضَّر خطاباً مختلفاً بصورة كلية يرفض فيه ثانية وقف إطلاق النار. وقد ساوره شك في أن تكون تلك خدعة إسرائيلية فهتف مباشرة إلى مكتب الرئيس ناصر وطلب أن يتحدث مع الرئيس شخصياً. فأكد له ناصر قائلاً: «لقد أحسنت باتصالك بي يا محمد، ولكن، نعم، عليك أن تقبل بوقف إطلاق النار».

نزل القوني إلى قاعة مجلس الأمن. محطماً مجهشاً بالبكاء، في الساعة ٩,٣٥ بعد الظهر، وقال: «لي الشرف أن أبلغكم، بناء على تعليمات من حكومتي، بقرار قبول الدعوة إلى وقف القتال شريطة أن يوقف الطرف الآخر القتال، كذلك» أصر العديدون من الأعضاء غير الدائمين الذين شهدوا هذه الكلمة على اعتقادهم بأن خطاب القوني كان تكتيكياً وأن ناصراً لا يمكن أن يسلّم هكذا دون ضمان انسحاب إسرائيل. بيد أن مثل هذا التصور قد تلاشى بفضل بيان صدر عن القيادة العليا في القاهرة. لقد أكد ذلك التزام مصر بوقف القتال بعد معارك «لم يسبق لها مثيل في ضراوتها وشدتها ضد القوات الإسرائيلية -الأمريكية- البريطانية المشتركة». وأنذر البيان بأن القتال، مع ذلك سوف يستمر على الجبهات الأخرى: «مئة مليون عربي مشحونون بالكراهية الانتقامية.. من عصابات شيكاغو وتكساس». (٢٥)

ترددت أصداء كلمات القوني عالية في القدس، في جدال دار حول أين ينبغي إنهاء الحرب. وترافقت مع نبأ وقف القتال في وقت قريب إشاعات بأن الولايات المتحدة سوف تضغط من أجل انسحاب متبادل بين مصر وإسرائيل ستة أميال إلى الوراء. ولما كان دايان تواقاً إلى توطيد ممري متلا والجدي كخط دفاعي إسرائيلي

جديد، فقد تراجع عن معارضته السابقة للتقدم إلى ما بعد الممرين. فقسم يوفي الآن فرقته إلى ثلاثة أرتال. اثنان يتقدمان جنوب بحيرة المرّة الكبرى (Great Bitter Lake). أما الرتل الثالث فيتوجه نحو رأس السدر (Ras al-Sudr) على ساحل خليج السويس، ليلتقي هناك بالمظليين المتجهين شمالاً من شرم الشيخ. في حين يتابع تل اندفاعه المتفرع إلى شعبتين - من بير غفغفة (جفجافة) والقنطرة - باتجاه جسر فردان. وعندما يتم وضع قرار وقف إطلاق النار موضع التنفيذ ويسري مفعوله، يكون جيش الدفاع الإسرائيلي قد سيطر على القناة سيطرة قوية.

بدا وأن الحرب قد شارفت على نهايتها، حرب أيام أربعة احتلت خلالها إسرائيل كل سيناء وكل الضفة الغربية. ومع توقع إعلان سورية قبول وقف إطلاق النار بين لحظة وأخرى أصبحت قضية قيام إسرائيل بشن هجوم على الجولان أم لا، موضع جدل. فضلاً عن أن السوفيات أصبحوا الآن أكثر تصميماً من ذي قبل على حماية حلفائهم الوحيدين في الشرق الأوسط -السوريين- الذين لم يصابوا بأذى حتى تلك اللحظة.

وهكذا، قدم السفير تشوفاخين (Chuvakhin) بوجه شاحب رسالة إلى وزارة الخارجية بعد ظهر يوم الثامن من مايو (أيار)، تدين عدم التزام إسرائيل وقف إطلاق النار وانتهاكاتها الفاضحة للقواعد والأعراف السلوكية الدولية، جاء فيها: «إذا لم تلتزم حكومة إسرائيل بقرارات مجلس الأمن، فإن الكرملين يحذر من أن الاتحاد السوفياتي سيعيد النظر في علاقاته الدبلوماسية مع إسرائيل، وسوف يدرس اتخاذ خطوات إضافية تستلزمها سياسات إسرائيل العدوانية». ولدى خروج السفير السوفياتي من الاجتماع، أخذ عنه تحذيره: «إذا ما ثمل الإسرائيليون بنجاحهم وتابعوا عدوانهم، فإن مصير هذا البلد الصغير سيكون حزيناً، حقاً».

كانت قوة ما عناه السوفيات واضحة لا لبس فيها، ومع ذلك ظلت أصوات بين القيادة الإسرائيلية مؤثرة، منها صوت إشكول، ترى ضرورة متابعة الهجوم على سوريا إلى آخر لحظة. عقد إشكول اجتماعاً للجنة الدفاع الوزارية في مكتبه في تل

أبيب الساعة ٧,١٠ تلك الليلة. كانت خطته تهدف إلى حشد الدعم لاحتلال جزء من الجولان على الأقل، قائلاً للمستوطنين باللغة اليديشية، متغلباً على معارضة دايان: «كالكلب يحطم سلسلته».

افتتح رابين الاجتماع بتقرير عن استمرار قصف الجليل الشمالي. وقال: إن لدى جيش الدفاع الإسرائيلي الآن قوات كافية لإزالة المدافع السورية، إذ اسمح الوقت قبل سريان وقف إطلاق النار. ثم تحدث بعد ذلك ممثلو لوبي المستوطنين الذين دعوا إلى الاجتماع في حركة لا سابقة لها، فقال: ياعكوف إشكولي (Ya'akov Esh-koli) من كيبوتز كفارجيلادي: (Kfar Giladi) «إذا كانت دولة إسرائيل عاجزة عن حمايتنا، فمن حقنا أن نعرف ذلك. وينبغي أن نحاط علماً بصورة مباشرة أننا لسنا جزءاً من هذه الدولة، ولا يحق لنا التمتع بحماية جيش الدفاع الإسرائيلي. ويجب أن يقال لنا غادروا بيوتكم هرباً من هذا الكابوس».

أعقبه إيغال آلون مؤيداً، بقوله: «مع الافتراض أن الاتحاد السوفياتي سوف يقطع علاقاته بإسرائيل -ولا أظن ذلك- إذا ما استولينا على هضبة الجولان؛ فإني أفضل الاحتفاظ بهضبة الجولان دون السوفيات، على أن تظل الهضبة للسوريين مع احتفاظنا بروابطنا مع السوفيات».

حمل هذا المنطق وزيراً واحداً، على الأقل، ممن كانوا يعارضون العملية، على تغيير رأيه إذ تحدث زالمان أران مؤكداً: «منذ أربعة آلاف عام ونحن نتحدث عن تضحية إسحاق. الرجال والنساء والأطفال في تلك المستوطنات مهددون بالتضحية. الوضع لا يطاق».

لم يتأثر بقية الوزراء بهذه المناقشة وظلوا يعارضون استفزاز سورية إذ صرح زوراخ وورهافتيغ قائلاً: «أنا لست جباناً، بيد أن قطع العلاقات مع السوفيات يعني قطع العلاقات مع عشر دول أخرى، وربما قطع العلاقات مع دول آسيوية وإفريقية كذلك. وربما يسفر ذلك عن طردنا من الأمم المتحدة.. نحن سكارى، ليس بالخمر..

ودون خرق واضح لوقف إطلاق النار من قبل سوريا، علينا ألا نجرَّ إلى حرب مع السوريين». وافق حاييم موشي شابيرا من الحزب الديني القومي، قائلاً: «علينا الانتظار يوماً آخر.. يجب ألا نجرهم (السوريين إلى المعركة).

وأخيراً، جاء دور دايان في الكلام، فذكر الوزراء بالنصر العظيم الذي أحرزته إسرائيل، وبالمعركة الدبلوماسية العنيفة التي عليها يخوضوها: «أود أن أكون معتدلاً - ما حصلنا عليه، حصلنا عليه، وكفى. فلماذا نريد في خضم هذا الصراع أن نتخذ حالة أخرى مع حدود عالمية مختلفة؟ فذلك كثير علينا.. فالسوريون لن يتواءموا مع ذلك، لا اليوم ولا لسنوات قادمة».

تابع دايان حديثه مؤكداً، ليس فقط على خطر التدخل السوفياتي، بل على خطر الابتعاد كلياً عن فرنسا، مزوّدة إسرائيل بالنفايات. وادعى أن سلاح الجو ليس في حالة جيدة. إذ لم نشتر طائرات جديدة منذ العام ١٩٦٢، ومعظم طائراتنا ضربت في اليوم الأول (٥ يونيو - حزيران)». وتحدث عن افتقار القيادة الشمالية إلى قوات كافية، وعن احتمال معارضة أمريكا لهذا التحرك.

ونفى أن سوريا تشكل تهديداً لإسرائيل، ولكنه استدار بعد ذلك وقال: «أخشى من هجوم جوي سوري - عراقي مشترك. وأخشى أن تتابع جميع الدول العربية، ربما ما عدا الأردن، القتال».

وأدان دايان ثانية تدخل الحكومة فيما اعتبر من اختصاصه حصراً، (أنا ضد اتخاذ القرارات على أساس الأكثرية، في الشؤون العسكرية) وبعد ذلك ألقى مفاجأته المذهلة: «أفضل أن تنقل المستوطنات ما بين عشرة أميال إلى عشرين ميلاً بعيداً عن المدفعية السورية بدلاً من أن نتورط في جبهة ثالثة تقودنا إلى صدام مع السوفيات. فآلاف العرب قد غيروا مواقع إقامتهم نتيجة هذه الحرب، ونحن كذلك غيرنا مواقع عشرات الإسرائيليين».

أثار اقتراح اقتلاع المستوطنات بدلاً من اقتلاع المدفعية السورية ردود فعل غاضبة من عدة وزراء. فصاح آلون: «ينبغي ألا نفكر أبداً بنقل المزارع. فذلك أشبه بالتنازل عن أجزاء من إسرائيل». وأكد إشكول قائلاً: «لن يكون هناك نصر للسوريين أعظم من هذا».

ومع ذلك عندما وصل الأمر إلى اتخاذ قرار، كان إشكول أقل حسماً وتصميماً. إذ اقترح فقط أنه ودايان ورابين سيوافقون على عملية الجولان إذا ما رأوا ذلك مناسباً. وأضاف قائلاً: «من المحزن أن يخرج السوريون أحراراً». واقترح أن تستخدم الجولان ورقة مساومة في مفاوضات على الحدود مقبلة: «طبعاً، لا نريد سنتميتراً واحداً من الأراضي السورية». (٢٦)

وقبيل منتصف الليل اتصل دايان بالجنرال إلعازار (Elazar) وأحاطه علماً بآخر قرار لمجلس الوزراء. وقال له موضحاً: إن مصر لم تطبق بعد قرار وقف إطلاق النار، وإسرائيل التي عانت من إصابات وخسائر بما فيه الكفاية لا تستطيع فتح جبهة أخرى. كما أن اتجاه السوفيات ما زال غير مؤكد. وحاول دادو (Dado) طمأنة دايان بأن خسائر إسرائيل لدى تسلقها هضبة الجولان لن تكون رادعة لإسرائيل عن تنفيذ عملية الجولان - لن تكون الخسائر فادحة» - وأن الاتحاد السوفياتي يعوي أكثر مما يعض. وقال رئيس القيادة الشمالية بصوت عال: «إذا لم نفعل شيئاً على هذه الحدود الآن، فلسوف تحل علينا اللعنة لأجيال قادمة». تعاطف معه دايان، ولكنه ما زال صارماً: «أنا أعرفك، وأعرف ما تريد، ولكني أعرف كذلك أنك منضبط ولن تفعل شيئاً مخالفاً لما قررناه».

حول دايان الهاتف إلى رابين الذي أصغى إلى رئيس القيادة الشمالية وهو يعبر عن إحباطه قائلاً: «ماذا جرى لهذا البلد؟ كيف نقدر على مواجهة أنفسنا، والشعب، والمستوطنات؟ وفوق ذلك كله الإزعاج الذي يسببه لنا السوريون، فهل بعد القصف والإزعاج سيترك أبناء الزنا أولئك على قمم التلال يركبون ظهورنا؟» وعبر إلعازار

عن أسفه لتأجيل العملية بسبب الطقس، قائلاً: «لو كنت أعلم أن تأجيل الأمس سيغدو إلغاء اليوم، لهاجمت حتى دون غطاء جوي. ربما تكلفنا غالياً، ولكن لا بد من احتلال المرتفعات».

طلب إلعازار الذي عارض سابقاً طلب المستوطنين إجلاء غير المقاتلين عن الحدود، من رابين الآن أن يفعل ذلك، وأن يسمح لقواته بالاسترخاء. وافق رابين فقط على إجلاء الأطفال، وأصر على القيادة الشمالية أن تظل في تشكيل قتالي. وطلب من إلعازار ألاّ يفقد الأمل، وقال له: «إن شيئاً ما ربما يحدث» وبدا للحظة وكأنه يخالف دايان. ولكن وزير الدفاع عاد واتفق معه بصورة مفاجئة، إذ ألمح لدادو قائلاً: «رغم أنه اتخذ قرار بعدم الهجوم في الوقت الحاضر، فما زال احتمال تغيير القرار قائماً». (٢٧)

الحرب: اليوم الخامس ٩ يونيو

(حسم فوق الجولان)

ناصر يحاول الاستقالة

الأمم المتحدة تنشط، والسوفيات يغضبون

أزمة إسرائيل الدستورية

كان الوقت، بُعيد منتصف الليل عندما وصل دايان إلى غرفة العمليات قادماً مباشرة من اجتماع مجلس الوزراء، وعلم خلال الساعات الثلاث التالية أن المصريين قد قبلوا فعلاً قرار وقف القتال، وأن السوريين سيتبعونهم عمَّا قريب. وفجأة أبدى دايان ملاحظة حيَّرت رابين وأربكته، مفادها أنه لا معنى لاحتلال تل العزيزيات وحده فقط -إذ ربما يظن السوريون أن هجوماً إسرائيلياً محدوداً دليل على افتقار إسرائيل للإرادة- في حين أن الجولان خالية. وقال لرئيس أركانه: «إذا جلس السوريون هادئين، لن أوافق على أي عمل ضدهم، ولكن إن استمروا في القصف على الرغم من كل ما مارسناه من ضبط نفس، فلسوف أوصي مجلس الوزراء باحتلال كامل المرتفعات».

لم يبد رابين، الذي كان دائماً مع ضرورة معاقبة سورية، أي اعتراض ولم يُصدر، أيضاً، أية أوامر للقيادة الشمالية، غادر غرفة العمليات إلى البيت لأول مرَّة خلال أربعة أيام («كنت نائماً قبل أن تلمس رأسي الوسادة»)، غير متأكد فيما إذا كان وزير الدفاع الذي كان قد ناقض نفسه في مسألة احتلال القدس، ووصل إلى قناة السويس سيغير رأيه ثانية الآن. (١)

بقي دايان في غرفة العمليات يراقب الوضع، وصل بارليف وحاول إقناعه بأن مجلس الوزراء يحبذ، حقاً، الهجوم -وإشكول أيضاً- ولكنهم لم يحددوا الذريعة بعد لشن الهجوم، وكان هناك تقريرات استخباراتية إضافية، يفيد أحدها بأن السوفيات قد لطفوا لهجتهم، وأنه لم يعد هناك تهديد بالتدخل. في الساعة ٣,١٠ أعلن راديو دمشق أن سوريا ستقبل وقف إطلاق النار إن قبلته إسرائيل.

«لا يمكن أن تكون المعركة سريعة، بل ستتطلب استعدادات طويلة ومتأنية» - وفي الساعة ٤,٤٥ صباحاً، هتف غافيش من سيناء يقول: إن القوات الإسرائيلية ترسخ وجودها الآن على القناة. يبدو أن الحرب قد حطت أوزارها. فعلاً.

هكذا كان استنتاج مخابرات جيش الدفاع الإسرائيلي، على الأقل. كان الميجر إيلي حلاحمة (Eli Halahmi) المسؤول عن التدقيق في أوضاع الجيش السوري، قد وطد نفسه على ما أسماه «الفرصة الضائعة» لمعاقبة دمشق، وطلب إجازة لزيارة الجدار الغربي. ولكنه تلقى بعد ذلك بقليل، قبيل منتصف الليل صوراً جوية حديثة من الشمال. صدم لدى رؤيته ما ظهر فيها. إذ بدت المعسكرات المحيطة بالقنيطرة والتي كانت تعج بالدبابات والمدافع ووحدات الفدائيين، مهجورة تماماً. أردف حلاحمة القول بصورة غير تقليدية: «تقديرنا هو أن السلطة السورية في مرتفعات الجولان في حالة انهيار، وليس واضحاً فيما إذا كان هذا الوضع سيطرح نفسه ثانية».

قال أهاريل ياريف (Aharale Yariv) وقد هز كتفيه: «ماذا نستطيع أن نفعل؟ سيتوقف القتال».

«ألَحَّ عليه حلاحمة قائلاً: «سيدي، يجب ألا نترك السوريين دون أن يصابوا بخدش. فإن خرجوا من الحرب سالمين، فلسوف يستمرون بالبصق علينا، ويتفاخرون بأنهم هزمونا، وأنهم هم وحدهم الذين أقعدونا عن العمل ضدهم خوفاً منهم».

رفع ياريف، الذي ما زال مرتاباً في الأمر، التقرير، فوصل إلى موشي دايان عند الفجر. كما وصلته في الوقت نفسه برقية مرسلة من ناصر (القاهرة) إلى الأتاسي (دمشق) تم اعتراضها والتقاطها، تقول: «إني متأكد إن إسرائيل على وشك حشد

جميع قواتها ضد سورية للقضاء على الجيش السوري. لذلك اسمح لي أن أنصحك، إنه لمصلحتك الخاصة، ينبغي أن تقبل وقف القتال على الفور، وأن تخبر يوثانت بهذه الحقيقة. فهذه هي الطريقة الوحيدة لإنقاذ الجيش السوري الباسل. لقد خسرنا المعركة. كان الله في عوننا في المستقبل».

إذا ما كان دايان يفكر في تغيير مفاجئ للسياسة، فإن هذه البرقية حملته على اتخاذ موقف. فكتب إلى إشكول الملاحظة التالية:

١. هذه البرقية، برأيي، تجبرنا على الوصول إلى الخطوط القصوى.

٢. لم يكن لدي في الليلة الماضية أية فكرة بأن قيادة مصر، وقيادة سورية سوف تنهار بهذا الشكل وتتخلى عن المعركة. على أية حال، علينا أن نستثمر هذه الفرصة إلى أقصى حد. يوم عظيم». (٢)

كان إلعازار في هذه الأثناء يقضي ما أسماه «أسوأ ليلة في حياتي» أرسل رئيس القيادة الشمالية، في آخر محاولة لإقناع دايان بالموافقة على مهاجمة الجولان، أحد ضباطه الاحتياط، يوزي فينرمان (Finerman Uzi)، عضو حزب رافي (Rafi) وصديق شخصي لوزير الدفاع، إلى تل أبيب.

في الساعة الثانية، يئس العازار وذهب للنوم، لأنه لم يتلق خبراً من فينرمان حتى ذلك الحين، وبعد أربع ساعات رن الهاتف. «هل تستطيع الهجوم؟» هكذا بادره دايان.

فأجاب دون تردد، رغم انبهاره الشديد: «أستطيع - الآن».

فكان الجواب: «إذن هاجم».

بدأ دايان يعلل هذا التغيير المفاجئ بالتزام مصر بوقف القتال وانهيار الجيش السوري. بيد أن دادو قاطعه قائلاً: انهار أم لا - لا أعرف. ولا يهمني ذلك. نحن مهاجمون. شكراً جزيلاً. شالوم. شالوم (سلام)».

طلب دايان، بعد ذلك، من معاونه الكولونيل إسحق نيسيهو (Yitzhak Niseihu) الاتصال بالكولونيل ليور في مكتب رئيس الوزراء. فقال ليور: «لا أصدق ما تسمع أذناي. كان اليوم السابق مكرساً لمعارضة دايان لاحتلال الجولان.. وقع هذا الإعلان عليه كصاعقة في يوم صافٍ».

ولم تكن صدمة إشكول بأقل من ذلك. إذ أخذ يكرر عبارة: «حقير، خسيس... حقير، خسيس» عندما أخبره ليور بالنبأ وعلى الرغم من أن رئيس الوزراء كان يحبذ تماماً احتلال بانياس على الأقل. فإنه كان غاضباً جداً من صفاقة دايان واحتقاره لأصول الديمقراطية فقال مزمجراً: «هل ألغي الأمر الآن؟ إنه غير منطقي. فإن كان يظن أنه يستطيع فعل ما يريد، فليفعل».

ثم اتصل ليور بمقر هيئة الأركان. وعلى الرغم من أن رد رابين لم يكن قد سجل بعد، فقط أمر بطائرة مروحية لنقله إلى القيادة الشمالية. حطت طائرته في الساعة الثامنة، واندفع يبحث عن دادو. وعندما وجده قال له محذراً: «الجيش السوري ليس منهاراً أبداً. وعليك الافتراض بأنه سيقاتل بعناد وبكل ما أوتي من قوة». (٣)

بين المطرقة والكماشة:

تابع سلاح الجو الإسرائيلي العمل الآن، بمزيد من الطائرات، وقليل من الأهداف، مطلقاً صواريخ تم الحصول عليها من المخازن المصرية التي استولى عليها جيش الدفاع الإسرائيلي. ففي الساعة ٩,٤٠ صباحاً قامت الطائرات الإسرائيلية النفاثة بعشرات الغارات على المواقع السورية من جبل الحرمون إلى التوافيق ملقية مئات الأطنان من القنابل. فدُمرت بطاريات مدفعية ومخازن أسلحة، وأخرجت سرايا نقل عن مسارها في الطرق. بيد أن القنابل نادراً ما خدشت نظام التحصينات والخنادق المطلة على الأراضي الإسرائيلية، كما لم تستطع تغطية جميع الطرق في الجولان. ومع ذلك ضاعف إلعازار القصف ليوفر وقتاً لفتح ممرات عبر حقول الألغام التي يبلغ عرضها ميل، وليحطم معنويات السوريين.

لقد أصيبت معنويات سورية بشرخ خطير، إن لم تكن قد تحطمت. وبفضل اقتناع السوريين بأن الإسرائيليين قد تعبوا وأنهم جبنوا بسبب قصف مستوطناتهم، لم يكونوا مستعدين لمثل هذا القصف الجوي الإسرائيلي العنيف. ذكر الكولونيل أحمد المير قائد القطاع الأوسط أن سلاح الجو الإسرائيلي نفَّذ ١٦٤ غارة في غضون ثلاث ساعات، وأن ٥٠ جندياً من جنوده قد قتلوا، وجرح ٨٠. كان لهذه الغارات أثر نفسي كذلك، إذ غادر عدد من الضباط الكبار مواقعهم لتتبعهم قواتهم بعد ذلك. أشار الميجر جنرال عوض بهاء، رئيس العمليات، لدى تلقيه أمراً بتعزيز مواقع الخط الأمامي، إلى افتقاره للغطاء الجوي، ورفض الأمر معتبراً إياه، أمراً انتحارياً» وجاء رد مماثل من اللواء المدرع السبعين المتمركز خارج القنيطرة. إذ رفض قائده، عزت جديد، شن هجوم معاكس حتى في الليل، وبدلاً من ذلك قاد دباباته عائداً إلى دمشق. وعلى الرغم من أن راديو دمشق وصف الضربات الجوية بأنها جهد أنكلو أمريكي «لإنقاذ الإسرائيليين من الدمار» فإنه لم يكن بالإمكان إخفاء الأضرار.

ومع ذلك ظل الجزء الأكبر من القوات السورية ثابتاً في مواقعه المحصنة جاهزين للقتال. وكان أكبر حشد وتركيز قد جرى في القطاع الأوسط حيث صوبت ١٤٤ قطعة مدفعية وثلاثة ألوية فوهاتها إلى ما يعرف بطريق مركز الجمارك. الذي يعد أقصر محور إلى القنيطرة والأكثر تعرضاً للاحتلال من قبل الغزاة. فقد صدرت أوامر للجيش بإغلاق ذلك الطريق بأي ثمن، وإلى التحصُّن وحفظ ذخيرته. إذ قال سويدان، رئيس هيئة الأركان للقادة: «تجنبوا فتح النيران. فقد طلبنا تدخل الأمم المتحدة. ونحن بانتظار جواب في أية لحظة». (٤)

وخلافاً للتوقعات السورية لم تكن القوات الإسرائيلية تخطط لاحتلال طريق الجمارك، في الهجوم الأولي على الأقل. إذ كانت خطة المطرقة تدعو إلى سحق سريع لدفاعات الخط الأمامي للعدو حيث لم يكن في الحسبان قيام العدو بذلك - شمالاً قرب كفار شولد (Kfar Szold)، وجنوباً، جنوب بحر الجليل. بيد أن ازدحام الطريق بحركة المرور الكثيفة للقوات القادمة شمالاً من الضفة الغربية وسيناء قد

أخر بالتأكيد الهجوم الجنوبي. بدلاً من ذلك، جرى الخرق الإسرائيلي في القطاع الأوسط بين قلعتي الدربشية (Darbashiya) وجلبينا (Jalabina). توقع إلعازار أن يكون الهجوم الافتتاحي دمويّاً، بل ربما يكون رادعاً يحول دون إنجازه. إذ سوف تكون الموجة الأولى مكشوفة تماماً للنيران السورية، أثناء صعود القوات الإسرائيلية، منطقة صخرية وعرة يبلغ انحدارها ٢٠٠٠ قدم في وضح النهار - لذلك كان المفروض أن يُشن الهجوم الأساسي ليلاً. وكان لا بد من تسريع الهجوم حتى تصل القوات إلى طرق الدوريات التي تربط جميع التحصينات السورية بعضها ببعض ومن ثم الاستيلاء على التحصينات ذاتها التي كانت محاطة بالألغام والأسلاك الشائكة ومحفوفة بتحصينات من الإسمنت المسلح ومرابض المدفعية.

عندما أعلم أفراهام ميندلر بمهمته قال لإلعازار: «إذا كانت هذه هي الخطة، فهي خطة انتحارية» فدبابات شيرمان الموجودة في لوائه المدرع الثامن -التي تعد الدبابات الإسرائيلية الوحيدة على الجبهة- كانت منهكة من القتال الشديد في سيناء وكانت طواقمها مرهقة. والآن يطلب إليهم تحطيم أقوى الدفاعات السورية وأكثرها رهبة في وضح النهار عبر أراض مستحيلة الاجتياز. والواقع أنه ما إن تحركت سرية مندلر في الساعة ١١,٤٠ قبل الظهر وبدأت تتسلق إلى المواقع الدفاعية حتى أمطرتها الدبابات السورية المتخندقة في مرابضها بوابل من قذائف مدفعيتها.

قال ياعكوف هوريش (Ya'akov Horesh) أحد أعضاء طاقم دبابة في الكتيبة ١٢٩ من اللواء الثامن: «لم نكن خائفين في البداية، أبداً، إذ تقدمتنا الجرافات (البلدوزرات) تنظف الطريق من الأسلاك وتطهرها من الألغام. ولكن، بعد ذلك، انفتحت السماء علينا لهباً. دُمرت البلدوزرات، وطارت أنصاف المجنزرات في الهواء. وفجأة وصلنا القصف!!. ذهبت إلى فتحة برج الدبابة فرأيتها مشتعلة وأني أحترق معها. سمعت طلقات نارية، وسمعت شخصاً يطلب باللاسلكي غطاءً جوياً. فقررت أن أموت برصاصة خير من أن أموت حرقاً بالنار، فألقيت بنفسي من فتحة البرج.. التقطني الجنود الإسرائيليون ووضعوني على ظهر دبابة أخرى.. كنت ما زلت أحترق».

دمرت خمس جرافات من أصل ثمانية على الفور، وأزيحت هياكلها المحترقة جانباً من قبل مركبات أخرى ما زالت تتقدم. كما تقلصت مقدرة دبابات شيرمان على المناورة بسبب وعورة الأرض إلى أقصى حد؛ فكانت تتحرك ببطء باتجاه قرية سير الديب (Siral-Dib) مستهدفة حصن «القلعة» الكبير. ازدادت الخسائر بمن فيهم قائد الكتيبة أرييه بيرو (Arye Biro) البالغ من العمر ٣٩ عاماً. كما قتل ضابط الاستطلاع الميجر رفائيل موكادي - المحاضر الجامعي في الحياة المدنية - بعد عشر دقائق من أخذه مكان أرييه بيرو. ضل جزء من القوات المهاجمة طريقه بسبب هذا الوضع الحرج، فوجد نفسه في مواجهة معقل آخر في زعورة للكتيبة ٢٤٤ السورية من جنود الاحتياط. وشهد ميندلر فيما بعد قائلاً: «أعتقد أننا لو استطعنا احتلال زعورة لقلبنا مسار المعركة» فأصدر أمراً ارتجالياً بالهجوم على زعورة والقلعة بآن واحد.

كان القتال شديداً ومضطرباً، إذ كانت دبابات السوريين والإسرائيليين مشتبكة في قتال حول العوائق، وتطلق النار من على مسافات قريبة جداً. ويذكر ميندلر كيف «أن السوريين كانوا يقاتلون ببراعة وأراقوا دماءنا. ولم نغلبهم إلا بسحقهم تحت وطأتنا الكثيفة من المدفعية من مدى قريب جداً يتراوح بين ١٠٠ و ٥٠٠ متر». تصدى فريق بازوكا سوري لأول دبابة شيرمان حاولت دخول القلعة فأوقفها. كان وراء فريق البازوكا رتل إنقاذ من سبع دبابات T-٥٤ اندفع لصد المهاجمين ويتذكر بديل موكادي (Mokady)، الكابتن نتانيال هورووِيتز (Nataniel Horowitz) كيف تصدت لنا نيران كثيفة من البيوت، ولكننا لم نستطع الرجوع إلى الوراء لأن القوات خلفنا كانت تدفعنا إلى الأمام. كنا على ممر ضيق زرع جانباه بالألغام» ولما كان هورووِيتز يعاني من جرح في رأسه -وتعطل نظام الاتصال الداخلي المركب في خوذته وتلف خرائطه- أشار بيده إلى المركبات المتبقية كي تضغط قدماً، كما طلب توجيه ضربة جوية لدبابات العدو. رفض مندلر طلبه قائلاً إنه لا توجد طائرات. فرد الكابتن بقوله: «سيدي، إذا لم يدعمنا الطيران على الفور، فاقرأ علي السلام،

فلن تراني ثانية، على ما أعتقد». ظهر فجأة زوج من الطائرات النفّاثة، وأعطبتا دبابتين من طراز T-٥٤ فانسحبت بقية الدبابات. وتراجع من بقي حياً من المدافعين عن القلعة كذلك بعد مقتل قائدهم الميجر محمد سعيد.

بحلول الساعة السادسة مساء كانت زعورة والقلعة قد سقطتا بالإضافة إلى قلعة ثالثة هي «عين فيث». أيسر الطرق وصولاً إلى القنيطرة أصبح مفتوحاً أمام الإسرائيليين ولكن انتصارهم كان باهظ الثمن جداً. إذ قتل وجرح عشرات الإسرائيليين، ودمر ٢٦ دبابة أصلية، ولم يبق سوى دبابتين صالحتين للمعركة. (٥)

حصلت مجزرة مماثلة في القطاع الأوسط - في معارك دارت للدفاع عن قلعتي درداره وتل هلال التي خلّفت ٢١ قتيلاً من الكتيبة ١٨١ الإسرائيلية و٣٦ جريحاً. كما نشب قتال ضار على طول محور همّر (Hammer) الشمالي حيث كلفت كتيبة «برق» (Barak) من لواء جولاني (Golani) مشاة بتطهير ثلاثة عشر موقعاً بما فيها تل فخر (Tel-Fakhr) القلعة المهيبة على شكل حذوة فرس الواقعة على بعد ثلاثة أميال داخل الأراضي السورية. وقد تعرضت جميع هذه المواقع لهجمات جوية مطوّلة أملاً في إضعاف دفاعاتها أو إغراء حامياتها بالفرار.

ولكن أخطأ الإسرائيليون تقدير مقدرة المعاقل، هنا أيضاً، على الصمود ضد القصف المكثف الهائل، إضافة إلى أن أخطاء ملاحية عرضت الإسرائيليين مرة أخرى للمدافع السورية مباشرة. فقد اصطاد السوريون دبابات الكتيبة التسع وأنصاف مجنزراتها التسع عشرة الواحدة تلو الأخرى، وجرح أو قتل من فيها. وجد رويوفين دانغور (Reuven Dangor)، سائق إحدى هذه الدبابات، نفسه مستهدفاً لقطع مدفعية مضاعفة. وقال واصفاً ما حل به: «ما إن اجتزنا الجزء الجنوبي من التل حتى شعرت بصدمة رجّت المركبة، فامتلأت مقصورة السائق بالدخان، وبعد أن أفقت من الصدمة أخيراً، تلقينا انفجاراً عنيفاً آخر، أقوى من الأول وأكثر تدميراً، أصاب البرج. فهربت من فتحة الطوارئ وبحثت عن الطواقم الذين كانوا يجلسون في البرج. كان البرج خالياً».

أوقف الإسرائيليون، بيد أن القوات التي أوقفتهم قد هزمت أيضاً. إذ أشار تقرير عسكري سوري داخلي بوضوح إلى انتشار الخوف والفوضى، وإلى حالات فرار من الجيش:

«استعدت الفصيلة الموجودة في الخندق الأمامي، على بعد ٧٠٠ م عن العدو، للمعركة، تحت قصف شديد. أرسل قائد الفصيل الجندي النفر جليل عيسى إلى قائد السرية يستأذنه بتغطيته، ولكن عيسى لم يجده. فأرسل قائد الفصيل عدَّاءً آخر بصحبة الجندي النفر فجَّار حمدوكرنازي الذي أفاد باختفاء قائد السرية. وعندما أصبح العدو على بعد ٦٠٠م أطلق المساعد محمد يوسف إبراهيم النار من مدفع مضاد للدرع عيار١٠إنش ودَمّر الدبابة الأولى. ثم قتل مع قائد الزمرة. تقدم الرتل المعادي. فُقد المساعد الأول أنور بربر المسؤول عن المدفع الثاني المضاد للدرع من عيار ١٠ إنش. بحث عنه قائد الفصيل فلم يجده.. فأخذ الجندي النفر حج الدين (Hajj al-Din) المدفع وأطلقه وحده مدمراً دبابتين وأجبر الرتل على التقهقر، ولكنه قتل بعد دقائق. وعندما حاول قائد الفصيل إحاطة مقر القيادة علما بالمعلومات لا سلكياً، لم يجبه أحد».

وفي هذه الأثناء أمر قائد الكتيبة الإسرائيلية، موشي (موسى) كلين (Klein) وهو على الطريق رجاله الخمسة والعشرين المتبقين على قيد الحياة أن يترجلوا من مركباتهم وينقسموا إلى مجموعتين تهاجمان الجناحين الشمالي والجنوبي لتل فخر. كان الطريق الجنوبي محاطاً بكثافة بتحصينات وخنادق، وصفّ مزدوج من الأسلاك الشائكة، وكانت تكمن خلف هذه التحصينات سرية من الكتيبة ١٨٧ مشاة بقيادة الكابتن أحمد إبراهيم خليل ولديها ترسانة من المدافع المضادة للدرع والرشاشات الثقيلة، والهاونات من عيار ٨٢ مم، ويتذكر أحمد الخليل قائلاً: «كان ذلك الموقع من أكثر مواقعنا تحصيناً. لقد وضعهم (الإسرائيليين) مباشرة في شَعرة تعامد أجهزتنا (تحت الرمي)».

يذكر القتال الذي نشب في ذلك الموقع بالقتال الذي نشب في تل الذخيرة في القدس، إذ اشتبك الفريقان عن كثب، ومن شخص لآخر في أغلب الأحيان، مدَّ الإسرائيليون الأوائل الذين وصلوا إلى محيط هذه التحصينات أجسامهم على الشريط الشائك حتى يعبر فوقهم بقية أعضاء الزمرة. ومن هناك اندفعوا نحو الخنادق السورية.

أمر الكابتن ديكو طاقوم (Diko Takum) قائد الجناح الشمالي لتل فخر رجاله ألا يطلقوا النار حتى يصل الإسرائيليون الشريط الشائك، قائلاً: «علينا أن نحصرهم ضمن مدى الإصابة القاتلة المؤكدة» وبعد دقائق أخبر نائبه الليفتنانث (الملازم أول) حاتم حلاق أن «اليهود قد صاروا في الداخل! لقد أوقعت بهم إصابات كبيرة». طلب طاقوم تعزيزات، ولكنه، لدى عدم تلقيه أي جواب، أصدر تعليمات لجنوده بالتمسك في جميع المواقع والصمود إلى ما لا نهاية» لا يتحرك منكم أحد لا تدعوهم (الإسرائيليين) يتقدمون. سنصمد هنا أو نموت هنا».

شن الإسرائيليون هجومهم. ويشهد المجند في لواء جولاني، شلومو بن باسات (Shlomo Ben Basat) واصفاً تلك الواقعة على النحو التالي: «ركضت إلى اليسار مع صف ضابط كالمان (Kalman). ركضنا بين الخنادق، نطهر التحصينات حتى رأينا فجأة تجويفاً فيه فراش وصناديق. قال لي كالمان، سأدخل أنا، وانتظرني أنت في الخارج، ولكن ما إن دخل ذلك التجويف حتى أصابته صلية من نار أطلقها جندي سوري جريح كان في الداخل. نجح كالمان بالخروج متعثراً - ثم سقط ميتاً. ثم خرج السوري. فرآني وشرع على الفور يتوسل إلي أن أبقي على حياته. وقف هناك وما زال الدخان يتصاعد من بندقيته التي قتل بها كالمان. فانتقمت لدمه».

أصيب عشرة من الإسرائيليين الثلاثة عشر من الذين هاجموا الجناح الشمالي، في حين بقي واحد فقط من الاثني عشر جندياً ممن هاجموا الجناح الجنوبي على قيد الحياة، هو العريف يتسحاق حموي (Yitzhak Hamawi). يقول متذكراً: ركضت

وموسى كلين بين الخنادق عندما ظهرت أمامنا خوذة، لم نستطع معرفة ما إذا كانت من خوذنا أم لا. وفجأة رأينا جندياً يقف أمامنا؛ لم نستطع تحديد هويته. فصاح فيه قائد الكتيبة كلمة السر.

ولما لم يجب، أطلق النار عليه ولكنه أخطأه. قفزنا خارج الخندق وركضنا حوالي خمسة أمتار، ثم سقط موسى على وجهه قتيلاً على يد الجندي السوري الذي أخطأه قبل قليل. انتظر عامل اللاسلكي من جنودنا، الجندي السوري حتى قفز ثانية فأطلق النار عليه وأرداه قتيلاً».

إن الذي قتل كلين يعرف في السجلات السورية باسم «علي عيسى حافظ». وقتل بعده مباشرة المساعد جميل موسى قائد آخر خندق صمد فيه في تل فخر. بقي ثمانية من المدافعين عنه فقط بقيادة مصطفى سليمان، وتراجع هؤلاء عندما اخترقت مفرزة كشافة من لواء جولاني عن طريق ممر خلفي غير ملحوظ. استسلم ضابط سوري واحد هو الملازم ثاني أحمد علي وجنديين نفرين، كذلك. خسر الإسرائيليون في هذا القتال الذي دام سبع ساعات ٣١ قتيلاً و٨٢ جريحاً. وقتل من السوريين ٦٢ وأسر سبعون.

سقط تل فخر كما سقط تل العزيزيات بيد الكتيبة ٥١ من لواء جولاني، وسقطت الدربشية أيضاً. وعلى الرغم من أن القوات الإسرائيلية قد حققت معظم أهدافها وكانت سابقة لبرنامجها، فإنها لم تتوغل في الأراضي السورية أكثر من ثمانية أميال. أقيم رأس جسر عرضه خمسة أميال بين زعورا والقلعة، وخمس نقاط تفتيش ومراقبة مسلحة على الجبهة السورية. كانت هذه هي الأهداف الدنيا لخطة (المطرقة) بيد أن إلعازار وهيئة الأركان العامة طمحت إلى أكثر من ذلك. فقد تمثل طموحهم في (عملية الكماشة) واحتلال كامل الجولان. ويستغرق إنجاز ذلك، حسب تقديرات رابين، يومين من القتال على الأقل. (٦)

ظلت الدفاعات السورية الواقعة خلف الخط الأول المدمّر، سليمة إلى حد كبير. وبقي جبل حرمون وبانياس في الشمال والقطاع الجنوبي بأكمله بين التوافيق وطريق الجمارك بأيدي السوريين. قرر القادة السوريون، في اجتماع عقد لهم في مطلع تلك الليلة، أن يعززوا تلك المواقع بأسرع ما يمكن، والاستمرار بقصف المستوطنات الإسرائيلية، وباختصار استدعيت الكتيبة السابعة عشر المؤللة التي تقدمت باتجاه شمال الأردن بناء على طلب الجنرال رياض لتعود كي تدافع عن دمشق. وفي حديث إذاعي قومي أقسم الأسد على متابعة المعركة ضد العدوان الامبريالي الصهيوني بغض النظر عن تكاليفها؛ وقال في الحديث نفسه: «إن هدف العدو هو تحطيم معنويات الشعب، وإجباره على التقهقر والتراجع عن موقفه البطولي في المعركة ضد أعداء الأمة العربية». استدعي السفراء العرب إلى وزارة الخارجيّة، وسئلوا عما تستطيع حكوماتهم مساعدة سوريا عسكرياً. ووجِّهت مناشدة خاصة إلى مصر، حليفة سوريا بموجب معاهدة. (٧)

(دعاء الستارة)

لم يستطع المصريون تقديم أية مساعدة، بل كانوا هم أنفسهم بحاجة إلى عون فوري. تجاهلت مصر تقريباً تطورات المعركة في الشمال، وانصب اهتمامها فقط على سيناء والضربة الإسرائيلية القاضية لمصر، سواء كان هذا التجاهل نتيجة عدم نجدة سورية لمصر في المراحل الأولى من الحرب أو الحاجة إلى الاحجام عن الوقوع في فخ السياسات العربية - العربية المميت.

كان الإسرائيليون قد أتموا احتلال شبه جزيرة سيناء بحلول ظهر يوم التاسع من يونيو (حزيران). إذ التقى رتلان من فرقة يوفي -أحدهما متجه جنوباً من السويس والآخر غرباً من متلا- مع المظليين الذين هبطوا في راس السدر (Ras al-Sudr). فأصبحت الضفة الشرقية لخليج السويس بأكملها بأيديهم. أما في شمال سيناء،

فقد وصل لواء غونين المدرع السابع إلى شواطئ بحيرة المرَّة الكبيرة، مع اتخاذ قوة غرانيت (Granit) موقعاً مقابل الإسماعيلية وفردان بعد أن تجاوزت القنطرة وعلى الرغم من استمرار مناوشات مبعثرة -وخسارة المصريين فيها خمسين دبابة أخرى- يعد القتال قد توقف. أغرق المصريون سفناً لسد القناة، ولكن الإسرائيليين فشلوا في احتلال النهاية الشمالية لقناة السويس إما بسبب إحساسهم المفرط بالثقة بالنفس، أو بسبب الإنهاك. فأصبح بور فؤاد هو المنفذ الرئيسي لإعادة التسليح السوفياتي الضخم لمصر.

كانت الدفعات الأولى من الأسلحة السوفياتية قد أنزلت حديثاً قرب القاهرة، وبلغ وزنها حوالي ٥٠٠٠٠ طن بحلول نهاية الشهر. ومع ذلك، لم يستطع حتى هذا الجهد المؤثر إخفاء مشاهد الآلاف من الجنود المصريين المنهكين العائدين إلى العاصمة. وإحساساً بالعار، نزع الكثيرون منهم أزياءهم العسكرية كيلا يوصموا بعار الهزيمة. قال عبد الناصر فيما بعد للزعيم السوداني محمد محجوب: «كان هناك فقط أربع مئة جندي بين الإسماعيلية وبيني. وكان بإمكان الإسرائيليين دخول القاهرة لو شاؤوا». وقالت مصادر استخبارية بريطانية: «إن الدفاعات الظاهرة على طول الطرق المؤدية إلى القاهرة مؤلفة من حواجز رملية عديدة وخنادق لا تشكل أية مشكلة خطيرة أمام جيش متقدم إلا إذا كان جيشاً مصرياً منشقاً.» وانتشرت شائعات بأن ثورة وشيكة سيقوم بها ضباط ساخطون أو عملاء مؤيدون للسوفيات بقيادة علي صبري. وذهب رئيس المخابرات صلاح نصر إلى حد المجازفة بلقاء سري مع نولتي (Nolte) محذراً إياه من انقلاب شيوعي ما لم تتبنى الولايات المتحدة سياسات «مؤيدة للعرب».

اختفت المظاهرات الجماهيرية التي خرجت لتمجيد الانتصارات العربية والاحتفال بزوال إسرائيل. كما تدهور الاقتصاد المصري. إذ بلغ عجز الجمهورية العربية المتحدة لدى وضع ترتيبات وقف القتال موضع التنفيذ ٤٤٨,٥ مليون سنوياً عما كان عليه قبل الحرب، «وذلك بموجب إحصائية أجراها دبلوماسي بريطاني

تتعلق بالخسائر في مجال السياحة، ونفط سيناء، وعائدات السويس. أما أنور السادات الذي أصيب باكتئاب عميق قبع في فيلّته قرب الأهرام ورفض الخروج منها. قال: «لقد غمرتني هزيمتنا كلياً. لقد تخللت صميم ضميري، فعايشتني ليل نهار... أحاول بكل ما أوتيت من جَلَد تلطيف الحملة العنيفة التي شنها الصديق والعدو، على حد سواء، لتشويه سمعة قواتنا المسلحة». ذكر إريك روليو(Eric Rou-leau) من صحيفة لاموند (Lemond) كيف «أن موجة من الحزن اجتاحت القاهرة» وكيف أن مواطنيها كانوا يطلقون سراً على عبد الناصر لقب «وحش» ولم ينحصر التحرر من السحر في القاهرة، بل تجاوزها إلى البلاد العربية. إذ كان المشاغبون والمتظاهرون في الجزائر ينشدون «ناصر خائن!» وهاجموا السفارة المصرية؛ وفي تونس أحرقوا المركز الثقافي المصري. أصيب العالم العربي بالخجل واشتاط غضباً، وكان بحاجة ماسة إلى كبش فداء. (٨)

يبدو أن عبد الناصر كان راغباً في لعب دور كبش الفداء. كان الزعيم الذي لا يلين ولا يهزم، يعاني من اكتئاب حاد، ويشكو من ألم في ساقيه، وينام واضعاً بندقية تحت وسادته. وكان يهتف باستمرار إلى الجنرال فوزي يسأله عن حالة قواته. قال لمدكور أبو العز، محافظ أسوان، الذي كان ناصر سيكلفه بإعادة بناء سلاح الجو، «إنني أجلس هنا بانتظار الجيش ليأخذني»، كان الرئيس يجلس في الظلام -إذ كان التعتيم ما زال ساري المفعول- تضيء وجهه شمعة واحدة فقط». حارسي الشخصي موجود في الجبهة على القناة. ولكني لا أريد سوى مسدس. وهو هنا في جيبي، جاهز». ومضمون كلامه يشير إلى أن ناصر كان يفضل الانتحار على الوقوع ضحية انقلاب عسكري. ومع ذلك، عندما وصلته بعد منتصف الليل بقليل، تقارير عن محاولة عامر الانتحار، هرع إلى مقر القيادة العليا.

وجد هناك المشير مخموراً جداً، يشكو من المؤامرات، ويطلب جرعات كبيرة من حبوب المنوّم. أفلح ناصر بتهدئته، ومن ثم في استعادة بعض الوضوح إلى تفكيره هو. فقال الرئيس لأفضل أصدقائه وأعنف مناقشيه سياسياً: «إن نظاماً لا يستطيع

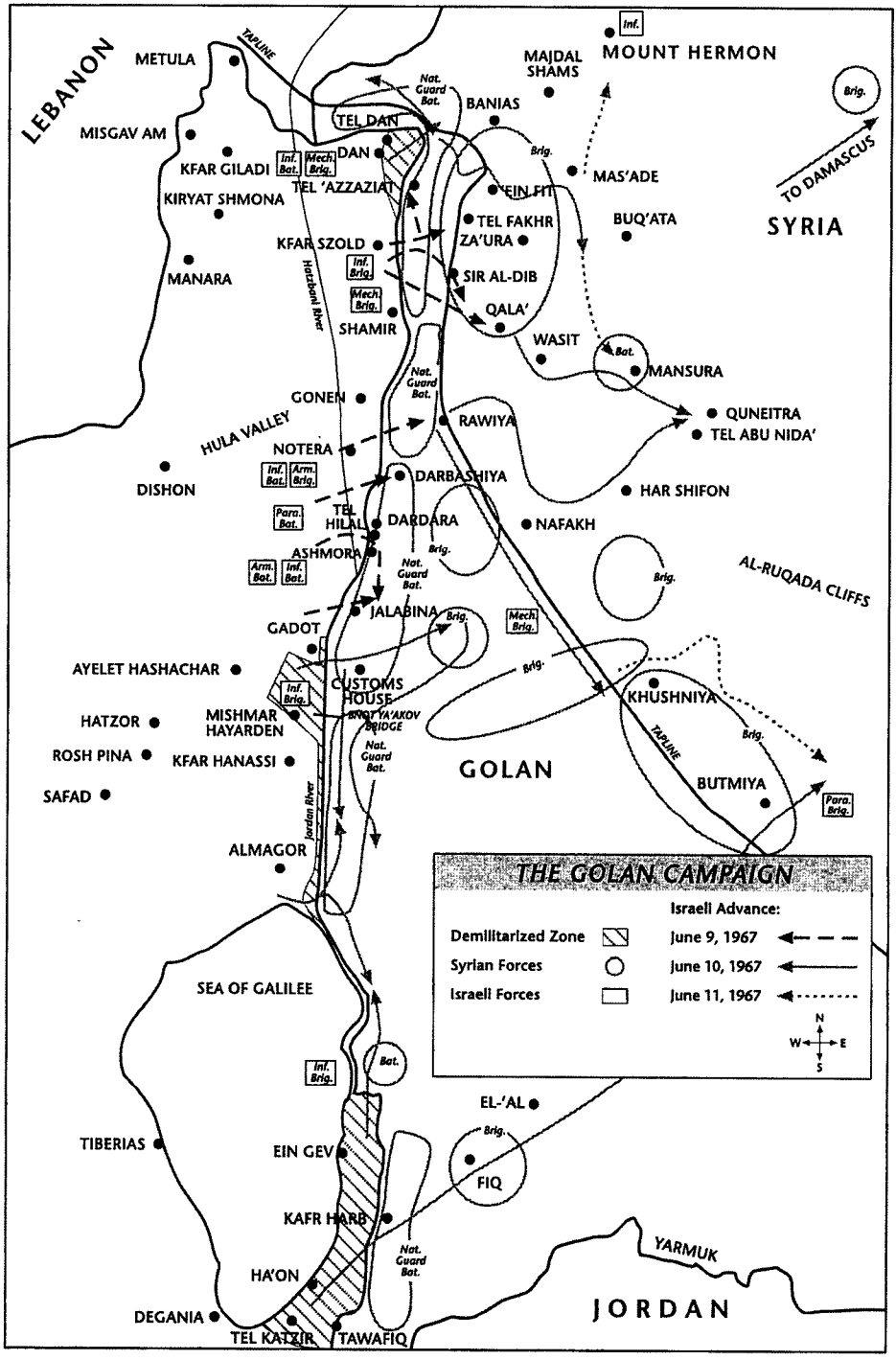

LEBANON
METULA
MISGAV AM
KFAR GILADI
KIRYAT SHMONA
MANARA
TAPLINE
TEL DAN
DAN
TEL 'AZZAZIAT
KFAR SZOLD
SHAMIR
Hatzbani River
MAJDAL SHAMS
MOUNT HERMON
BANIAS
MAS'ADE
EIN FIT
TEL FAKHR
ZA'URA
SIR AL-DIB
QALA'
WASIT
BUQ'ATA
MANSURA
QUNEITRA
TEL ABU NIDA'
TO DAMASCUS
SYRIA
GONEN
HULA VALLEY
NOTERA
DISHON
RAWIYA
DARBASHIYA
HAR SHIFON
TEL HILAL
DARDARA
NAFAKH
ASHMORA
AL-RUQADA CLIFFS
JALABINA
GADOT
AYELET HASHACHAR
CUSTOMS HOUSE
KHUSHNIYA
HATZOR
MISHMAR HAYARDEN
BNOT YA'AKOV BRIDGE
ROSH PINA
KFAR HANASSI
SAFAD
GOLAN
BUTMIYA
Jordan River
ALMAGOR
THE GOLAN CAMPAIGN
Israeli Advance:
Demilitarized Zone
June 9, 1967
Syrian Forces
June 10, 1967
Israeli Forces
June 11, 1967
N
W
E
S
SEA OF GALILEE
EL-'AL
TIBERIAS
EIN GEV
FIQ
KAFR HARB
YARMUK
HA'ON
DEGANIA
TEL KATZIR
TAWAFIQ
JORDAN
Inf.
Brig.
Bat.
Mech.
Arm.
Para.
Nat. Guard Bat.

الدفاع عن حدود وطنه لا بد وأن يفقد شرعيته. ومهما كنا حزينين الآن، فعلينا أن ندرك أن حكمنا قد انتهى نهاية مأساوية». لم يناقش عامر، بل عرض تسليم مقاليد الحكومة إلى شمس بدران، وزير الدفاع الذي انتقاه هو بنفسه. أما عبد الناصر ففضل زكريا محيي الدين.

في الساعة السابعة صبيحة ذلك اليوم استقبل ناصر عميله محمد حسنين هيكل. صدم محرر الأهرام إذ رأى الرئيس وقد كبر عشر سنين في بضعة أيام. قال ناصر بأنه يتقبل المسؤولية كاملة عن الهزيمة، وأنه سيواجه فرقة إعدام رمياً بالرصاص إذا ما قرر الشعب ذلك. لا يستطيع - على أية حال - الاستمرار في السلطة، لسبب واحد، إن لم يكن لغيره، وهو أن زعيم مصر الآن سيضطر للعمل مع الولايات المتحدة، وهو أمر يشعر بحرارة مؤلمة تجاهه؛ لذلك فهو يفضل إعلان استقالته ذلك المساء؛ وسوف يتخلى القادة العسكريون عن مناصبهم كذلك. قال عبد الناصر ذلك ونهض لينصرف، ولكن قبل أن يغادر، رن جرس الهاتف. كان عامر في الطرف الآخر من الخط يصرخ بصورة هيستيرية ويقول: إن الإسرائيليين قد عبروا القناة وهم الآن يسارعون الخطى نحو القاهرة. فتنهد ناصر، معيداً سماعة الهاتف إلى مكانها، وقال: «لقد فقد أعصابه تماماً وهكذا أضاع جيشه». (٩)

أذيع بيان ناصر، في بث مباشر، الساعة ٦,٣٠ ذلك المساء بعد وقت قصير من إعلان راديو القاهرة لمستمعيه أن «الهدوء الآن يسود الجبهة، وأن جميع العمليات قد توقفت وفقاً لقرار وقف إطلاق النار».

كانت نغمة الرئيس خفيضة، صوته ضعيفاً على غير عادته. ذكر أن إسرائيل تنوي غزو سوريا، ودافع عن قراراته بإعادة عسكرة سيناء، وطرد قوات الطوارئ الدولية، وإغلاق مضائق تيران، وأكد على الضغط الذي مارسته الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي على مصر كيلا تطلق النار أولاً. الأمر الذي أتاح لإسرائيل أن تشن هجومها المفاجئ» - توقعنا أن يأتي العدو من الشرق والشمال، وإذا به يأتي من

الغرب» - ولكنه عزا نجاح العدو إلى المساعدة المفتوحة التي قدمتها طائرات الولايات المتحدة وبريطانيا. ولكي نعكس النكبة، كما سماها ناصر، على العرب أن يتحدوا ضد إسرائيل ويؤمنوا بالنصر في النهاية. ثم أعلن ناصر، كما كان متوقعاً، كامل مسؤوليته عن أعماله؛ ثم قدم استقالته وأعلن محيي الدين خليفة له. ويبدو أن كلماته الختامية قد استحضرت ناصر الأول، مؤلف «فلسفة الثورة»:

«تتصور القوى الامبريالية أن عبد الناصر عدو لهم. أريد أن يكون الأمر واضحاً لهم بأن عدوهم هو الأمة العربية بأسرها وليس جمال عبد الناصر وحده... لأن أمل الوحدة قد نشأ قبل جمال عبد الناصر وسيظل بعد جمال عبد الناصر. الأمة هي الباقية. ومهما كانت الإسهامات التي قام بها ناصر لقضايا وطنه، فهي ليست سوى تعبير عن إرادة الشعب، وليس هو الذي أوجد هذه الإرادة».

لم يكد عبد الناصر أن ينطق هذه الكلمات حتى سمع هدير طائرات في سماء القاهرة، وبدأت المدفعية المضادة تطلق نيرانها. وفجأة غصت شوارع القاهرة بالناس، وكأنهم انطلقوا بإشارة من أحد. مئات آلاف الناس -أطفالاً ونساء وطلاب جامعات- غمرت شارع منشية البكري. وكان المتظاهرون يمعطون شعرهم ويمزقون ثيابهم ويضربون صدورهم ويصيحون: «لا تتركنا يا ناصر». وصف إريك روليو ما سمعه «كهدير البحر» وما رآه «ككتلة سوداء عظيمة» تزحف نحو مركز المدينة؛ وقال محمود رياض: «وجدت نفسي فجأة أخوض بين حشود الناس المتعاظمة، والغاضبة، الساخطة جداً تصرخ قائلة يجب أن يبقى ناصر... ولا بد من الانتقام لشرف الأمة وكرامتها».

وتدفقت حشود مماثلة من الناس الأوفياء لناصر إلى شوارع الإسكندرية وفي مدن الشرق الأوسط، بدءاً من الرباط حتى بغداد. وكتب الملك حسين رسالة إلى ناصر أذعيت في راديو عمان قال فيها: «أحثك أن تستجيب لرغبات الأمة وتبقى في منصبك. وما هذه المعركة إلا بداية. واندفع مفكرون مصريون بارزون، وممثلون للمجلس الوطني، ومسؤولون في نقابات العمال والاتحادات الشعبية للإعلان عن ولائهم للرئيس. ورفض محيي الدين علناً أن يخلف ناصر.

انفجر المذيع التلفزيوني الذي يعطي الخطاب بالبكاء وانتحب قائلاً: «لتقع القنابل علينا وليأت الأسطول السادس إلى شواطئنا ولكننا نريدك أن تبقى!!» وغطت صورة عبد الناصر شاشة التلفاز على الفور.

لم يصدق غربيون كثر هذه الأحداث العفوية معتبرين إياها «لعبة لعبها ناصر قاصداً تعزيز موقعه الواهن المتهاوي بتفويض شعبي مجدداً». وصف ر.م.تيش (Tesh. M. R) السفير الكندي الخطاب بأنه «ضربة بارعة بكل ما فيها من سحر وخصائص عجيبة يتقنها عبد الناصر... قلبت بسرعة طاولات الهزيمة المهينة إلى نصر». وطرح مراسل مجلة لايف (Life) توماس تومبسون (Thomas Thompson) سؤالاً استنكارياً: «هل ناصر يمثل؟» ثم يجيب على سؤاله بنفسه: «ربما يبدو الأمر كذلك، فالاستقالة، والنيران المضادة للطيران، والتعميم، والهلع المفاجئ، والجماهير الهستيرية، كلها أدت إلى نتيجة واحدة لا مفر منها وهي أن ناصر وحده هو الذي يستطيع الحفاظ على وحدة البلاد.» ولم يرفض مثل هذه الشكوك بشأن كون الأحداث مجرد تمثيل سوى روليو فقط. إذ قال موضحاً الأمر بقوله: «لا يمكن تنظيم ملايين الناس في بضع ساعات. يحتقر الناس ناصراً لأنه قادهم إلى كارثة، ولكنهم يحبونه أيضاً كأب فهم لا يريدونه أن يهجرهم، وليس لديهم سواه من يثقون به، وفوق ذلك كله، من هو محيي الدين هذا ليخلف عبد الناصر؟».

سواء كانت الأحداث عفوية مرتجلة أم لم تكن، فإن الدعم المتدفق أثبت أنه لا يقاوم. قبل ناصر استقالة عامر وبدران وجميع هيئة الأركان العامة -وتسليم قيادة الجيش إلى محمد فوزي- ولكن سرعان ما ألغى استقالته هو بدعوى أنه سيبحث منصبه مع الجمعية الوطنية. ولكن موكبه قد أحيط، وهو في طريقه إلى جلسة الجمعية الوطنية، بالمواطنين المحتفلين بعودته عن استقالته. وجاء البيان التالي ليبين أن ناصراً «لا يستطيع تجاهل صوت الشعب» وأنه سيبقى في منصبه حتى «إزالة آثار العدوان الإسرائيلي». (١٠)

(ضغوط إمبريالية)

حتى عندما وعد عبد الناصر باستعادة الأراضي العربية المحتلة، كان مدى الاحتلالات الإسرائيلية يزداد اتساعاً. ولدى فشل السوريين في حشد العون العربي لهم، ولخشيتهم من اندفاع إسرائيل إلى دمشق، لم يكن أمامهم خيار سوى مناشدة الأمم المتحدة.

في الساعة ٥,٣٠ صباحاً، في نيويورك، اتصل جورج طعمة برئيس مجلس الأمن هانس طابور (Hans T abor) وطلب إليه عقد جلسة طارئة، في حين كان الإسرائيليون يشددون هجومهم فيما وراء مرتفعات الجولان. وجاء في الاحتجاج السوري ما يلي: «على الرغم من مراعاتنا لوقف إطلاق النار، فإننا نتعرض الآن لهجوم إسرائيلي على طول خط الهدنة وضد مدننا وقرانا». وذهب طعمة في احتجاج شفهي إلى أبعد من ذلك - إذ اتهم الطائرات الإسرائيلية بأنها تقصف دمشق، وأن المظليين الإسرائيليين يهبطون في القنيطرة.

كان الرد الإسرائيلي متحفظاً ومراوغاً. فما زالت المصادر الرسمية لم تعلن عن أي هجوم - وراديو إسرائيل لم يأت على ذكر ذلك أبداً، بل كل ما كان يذكره هو استمرار القصف السوري لشمال الجليل. أكد والي باربر (Wally Barbour) في حديث له مع إيبان، لوزارة الخارجية أن العملية ستنتهي على الفور، وأن قرار وقف القتال سيصبح ساري المفعول مع السوريين ليس بصورة شرعية فحسب، بل بصورة واقعية أيضاً». ادعى جدعون رفائيل في الأمم المتحدة أن ١٦ مستوطنة تتعرض للقصف، ونفى قبول سوريا لوقف القتال قائلاً: «ما ذلك إلا مجرد تمويه لشن هجوم مبيَّت على إسرائيل».

وهكذا بدا ما وصفه السفير الإسرائيلي فيما بعد «بجدال حاد لا مثيل له» إذ أضاف محمد القوني إلى تهمة سوريا لإسرائيل بتهمة مماثلة ادعى فيها أن الطائرات الإسرائيلية تقصف القاهرة، كذلك. أما رفائيل الذي أثير بمثل هذا

الاتهام فقد نفاه ووصفه بأنه «اختلاق حاقد» مضيفاً إلى أن نشر مثل هذه الاتهامات الزائفة وغير المسؤولة لن يزيد الوضع في الشرق الأوسط إلا توتراً وتفاقماً. «وطالب السفير الروسي فيديرينكو بمعاقبة إسرائيل معاقبة قاسية» لما ترتكبه من أعمال، محذراً أن عدم الالتزام بوقف إطلاق النار سيسفر عن نتائج وخيمة للدولة الإسرائيلية.

في حين كان السوفيات يجادلون، كان السوريون راغبين في التوصل إلى قرار وقف إطلاق نار بسيط- أي قرار يوقف التقدم الإسرائيلي. وفجأة، وقبل أن يصوَّت على مشروع القرار، أصر فيديرنيكو على إلحاق مواد بالقرار تدين إسرائيل وتأمرها بالانسحاب إلى خطوط الهدنة. فرد عليه غولد بيرغ متهماً الروس باللعب السياسي على حساب أرواح البشر. وتساءل فيديرينكو في رده على غولد بيرغ: «لماذا إذن لم ترفع واشنطن إصبعاً واحداً لوقف القوات الإسرائيلية المعتدية، في حين أنها تملك الوسيلة الكافية لإيقافها؟!».

إن موقف فيديرينكو المتشدد هذا كلف السوريين غالياً. ففي الساعة ١٢,٣٠ دعى طابور إلى إنهاء الجدل وقرأ بياناً يعد أدنى قاسم مشترك «يؤكد اهتمام مجلس الأمن بوقف القتال، ويوجه الأمين العام للاجتماع بالأطراف المتحاربة وبعد ذلك دعا نائب الأمين العام الجنرال أليكسي نيستيرينكو (Aleksi Nesterenko)، وهو روسي بدين، طعمه ورفائيل -بل سحبهما- إلى مكتبه، كل منهما في زاوية كمتبارزين على جائزة» كما كتب المندوب الإسرائيلي فيما بعد، «وقد وقف إليكسي في وسط الحلبة كحكم في لعبة كرة القدم» دون أن يتقدم خطوة واحدة. ادعى رفائيل بأنه ما زال ينتظر تعليمات من القدس، مذكراً إليكسي نيستيرينكو أنه «طالما جرت العادة أن تُوجه الحكومات سفراءها وليست الأمانة العامة للأمم المتحدة، فمن الأفضل أن نلتزم بهذا المبدأ» ثم أومأ برأسه (توديعاً) إلى نظيره السوري وانصرف. (١١)

وبفضل عناد السوفيات ومحاولاتهم إعاقة اتخاذ قرار في مجلس الأمن اكتسب الإسرائيليون وقتاً ثميناً للاستمرار في هجومهم. وما كان للمجلس أن ينعقد حتى الساعة ٦,٣٠ تلك الليلة. وفي هذه الأثناء، ولدى تضاؤل المطالب بإنهاء القتال في المنبر الدولي، تصاعدت الأمور في واشنطن بحدة.

إن فتح جبهة ثالثة بين العرب والإسرائيليين كشف تماماً التناقض الجوهري في السياسة الأمريكية تجاه الحرب. ففي حين أنها ترحب بالمكاسب التي حققتها إسرائيل والتي يمكن المقايضة بها في تسوية سلمية في المستقبل، وأنها واثقة لرؤية الاستفزازات السورية تنال جزاءها، كانت الإدارة الأمريكية تواقة كذلك لإيقاف القتال وتجنب الصدام مع السوفيات، إذ بدت المواجهة مع الاتحاد السوفياتي واضحة للعيان، عندما وعد الكرملين بتقديم «مساعدة لمصر وسوريا لتمكينهما من صد العدوان والدفاع عن استقلالهما الوطني» مباشرة بعد تلقي موسكو أنباء الهجوم الإسرائيلي.

قوى البيان السوفياتي من عزيمة راسك، ومسؤولي وزارة الخارجية الذين كانوا دائماً يعارضون العمل الإسرائيلي المسلّح، وأضعف قبضة وولت روستو، وبندي، وسندرز الذين كانوا يرون في الهجوم الإسرائيلي منافع محتملة، انقلبت الموازين أكثر بسبب ما أسماه الكثيرون في البيت الأبيض «تنامي الكبرياء الإسرائيلية». ففي مقابلة أجرتها وكالة يوناتيدبريس العالمية للأنباء مع إشكول في ذلك اليوم، قال إشكول «إن الولايات المتحدة لم تقم بالتزاماتها قبل الحرب، الأمر الذي اضطر إسرائيل إلى التصرف وحدها». وعلى الرغم من أنه أسيء اقتباس ما قاله رئيس الوزراء بصورة فاضحة -فهو في الواقع امتدح التزام أمريكا بإسرائيل- فإن كلامه أثار جونسون وجرح كبرياءه. فكتب على مذكرته في أثناء احتجاج لمجلس الأمن القومي: «لقد تلقيت من إشكول وعداً جازماً بالالتزام بوقف القتال، ولكنه نسف ذلك الوعد. فذلك المغفل العجوز لا ينوي الاهتمام بأية ضغوط إمبريالية» - الضغوط من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. (١٢)

لم يضع راسك وقتاً في دعوة إسرائيل إلى العمل. لقد طلب إلى باربر أن يجد أبا إيبان في الحال، إذ كان مستاءً جداً من تقارير الأمم المتحدة حول الهجمات الإسرائيلية، ولم يكن يصدق أن المدافع السورية تشكل تهديداً خطيراً للجليل. كان يريد إخبار وزير الخارجية الإسرائيلي أن الوضع في مجلس الأمن «يتدهور بسرعة»؛ وأن الولايات المتحدة تتوقع من إسرائيل أن تراعي قرار وقف القتال «مهما كلف الثمن» وألا تطلق النار إلا في حالات الدفاع عن النفس الواضحة تماماً. واختتم كلامه بقوله: «من المهم جداً في نظرنا أن تبرهن إسرائيل التزامها بالأعمال على الأرض.. أي تعني ما تقول».

إن الوضع المتدهور في مجلس الأمن. والتهديد السوفياتي المتزايد، وعبارات الاستياء الأمريكية، وارتفاع الخسائر الإسرائيلية المذعر - كل ذلك ألقى ثقله على لجنة الدفاع الوزارية الإسرائيلية عندما انعقدت في الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم. كان الجو متوتراً جداً. إذ كان عدد من الأعضاء، خصوصاً الذين ينتمون إلى الحزب الديني القومي، مثل حاييم موشي شابيرا، وإسرائيل بارزيلاي من المابام، يعارضون استمرار الهجوم على الجولان، وكانوا غاضبين جداً من دايان لموافقته على ذلك الهجوم.

كان وزير الدفاع، في الواقع، قد وافق على فتح عملية «المطرقة» جنوباً إذ كان على القوات الإسرائيلية احتلال التوافيق، والقلاع السورية المطلة على الطرف الشمالي من بحر الجليل (بحيرة طبرية) شريطة أن تكون المقاومة هناك طفيفة ولدى عودة دايان من الجبهة الشمالية وجد نفسه في موقف دفاعي، مضطراً لتعليل تحوله المفاجئ عن معارضته السابقة للهجوم على سورية. فاستشهد بالتحرك السوري - المصري المفاجئ باتجاه قبول وقف القتال، وبرسالة ناصر إلى دمشق. وكما أن قرارات الهجوم على الضفة الغربية ودخول مدينة القدس القديمة قد اتخذت بناء على مقتضيات تلك اللحظة ودوافعها، كذلك كانت الموافقة على الهجوم على الجولان رد فعل على الظروف المتغيرة واستجابة للوضع الجديد الذي

طرأ. وقال دايان: «هذه الملاحظات أعطتنا احتمالاً للتفكير بأنه ربما يكون لدينا المقدرة على تغيير حدودنا الدولية مع سوريا». وأشار بخبث إلى أن إشكول قد وافق كلياً على الهجوم.

اقترب رئيس الوزراء من دحض هذا الادعاء بقوله - «لا أستطيع القول أن دايان استشارني في الموضوع» - ومع ذلك مهما كانت تحفظاته على وزير الدفاع قوية، فإنها لا تعادل عداءه لسوريا. فظل جوابه غامضاً: «كنا نمشي طول يوم أمس على الجمر.. كنت فعلاً من أنصار العملية، وأسفت لإرجائها، رغم أنها كانت مقررة بالفعل.. فإذا كان هناك هدوء (في الشمال) فلسوف نضطر إلى السكوت كذلك. ولكن كيف يمكن أن نتوقف الآن ونحن في خضم العملية، لا أدري».

بيد أن شابيرا كان أقل غموضاً، فصاح فيه متسائلاً: «لماذا نحن الآن ننتهك قرار وقف القتال أمام العالم أجمع؟ وأطالب بمعرفة المسؤول عن انتهاء قرارانا (قرار لجنة الدفاع الوزارية)».

وأيده برازيلاي بقوله: «لوزير الدفاع الحق بتغيير رأيه، ولكن الحوار الجوهري قد تحوَّل من طرف إلى طرف. إذ كان ينبغي لهذا المنبر أن ينعقد في منتصف الليل ويتخذ القرار المناسب».

أصر شابيرا على ضرورة وقف الهجوم فوراً، فعارضه آلون ثانية. وقال غاليلي موافقاً على اعتراض ألون: «حتى لو وافقت مصر وسوريا على وقف القتال قبل هذا الاجتماع، فإني أظل إلى جانب القيام بالعملية. وإني سأعارض (وقف الهجوم) حتى ولو كان وقف القتال متبادلاً». قال مناحم بيغن إنه طالما يمكن خرق قرار اللجنة خرقاً «جمالياً» فإن دايان وإشكول قد مارسا حقوقهما وصلاحياتهما بصورة شرعية. «ففي أيام ماريا تيريزا كان هناك قانون ينص على أنه إذا ما خرق جندي النظام وقام بعمل شجاع فإنه يعاقب ويكافأ بآن واحد».

كان آخر المتحدثين الدكتور هيرتزوغ، مستشار رئيس الوزراء السياسي، الذي قال: إن المجازفة بالعلاقات مع الاتحاد السوفياتي أفضل من أن نترك السوريين يحتفظون بالجولان. واختتم إشكول الكلام بقوله: «لا يمكن أن يسمح للسوريين الاستعراض بالنصر، فلا يمكن لإسرائيل أن تسقط الدول العربية ولا تسقط سوريا». (١٣)

انتهى الاجتماع بالموافقة على استمرار العملية حتى صباح اليوم التالي، السبت. فقال ديان مناقشاً: «تفتقر إسرائيل إلى العتاد العسكري، والصمت السياسي لمتابعة المزيد من القتال» وقال في اجتماع له مع وزراء ومستشارين من ذوي المراتب الرفيعة تلك الليلة: «السوريون يقاتلون كالأسود. فلا نستطيع الاستمرار في القتال في أثناء ساعات النهار في حين يحاول السوريون القيام بهجوم معاكس». وقال: إنه بحاجة إلى دفع المزيد من القوات، بالإضافة إلى الأسلحة التي تم الاستيلاء عليها، إلى الجولان، وربما لقصف دمشق، إذا ما استمر القصف السوري للجليل. ورغم أن إشكول كان متفائلاً أكثر باقتراحه «أنه إذا كان الناس في الجبهة يشعرون بقدرتهم على إنجاز المهمة الليلة وغداً - فدعهم يفعلون. فعلى أية حال سوف يدينوننا في الأمم المتحدة». كان هدف احتلال كامل الجولان يبدو بعيد المنال على إسرائيل.

لكن الأحداث في الميدان تجاوزت المباحثات داخل الحكومة في حين كان دايان يوضح الأسباب التي تجعل إسرائيل غير قادرة على التقدم أكثر، كان ديفيد إلعازار يخطط لمزيد من التقدم. إذ خول قواته الاستيلاء على مساحة واسعة من أراض الجولان. بالإضافة إلى التوافيق، من البطمية (Butmia) إلى القنيطرة متبعين خط النفط وطريق تخديمه الموازي له، والمعروف بخط التابلاين (TAP line). كما لا بد من الاستيلاء على بانياس في الشمال والطرق الموصلة إلى جبل حرمون.

وخلافاً لدايان، كان إلعازار يشعر بأن لديه من القوات ما يكفي لإنجاز المهمة. إذ بدأ ازدحام حركة المرور في القطاع الجنوبي يخف، وأخذت آلاف التعزيزات تصل إلى الجبهة. فالدبابات وأنصاف المجنزرات التي نجت من قتال ذلك اليوم قد أعيد

تزويدها بالوقود والذخيرة. وكانت المعنويات قد ارتفعت لدى إخلاء الجرحى. وكان بالإمكان دفع ثمانية ألوية كاملة، مع طلوع الفجر، ضد خط الدفاع السوري الثاني، بغض النظر عن تردد الحكومة. وعندما اتصل رابين قبيل منتصف الليل ملغياً أوامر كانت قد صدرت للمظليين باحتلال جنوب الجولان، ولكن إلعازار اعتذر له قائلاً: «بناء على أمرك السابق بدأ المظليون بالتحرك، ولا أستطيع الآن إيقافهم».

وفي هذه الأثناء، تابع السوريون استعدادهم لمواجهة الهجوم. واعتقاداً منهم بأن إسرائيل ستضرب دمشق عبر لبنان -إذ كان جيش الدفاع الإسرائيلي قد شن هجوماً مخادعاً على الحدود اللبنانية- أمر سويداني لواءين مدرعين (اللواء ٤٢، واللواء ٤٤) ولواء مشاة (اللواء ٣٥) بالعودة من أجل حماية العاصمة. كما أمرت ألوية ثلاثة أخرى هي (اللواء ١١، واللواء ١٣٢ المشاة، ولواء الحرس القومي السابع المدرع) بالتمركز على طول خط الدفاع الثاني. وأذيعت في تلك الليلة رسالة من حافظ الأسد، وزير الدفاع حينذاك قال فيها: «أيها الجنود، ثلاث مئة ألف مقاتل من الجيش الشعبي يقفون معكم في المعركة، ومن ورائهم مئة مليون عربي. صفوة قواتنا صامدة في الجبهة. اضربوا مستوطنات الأعداء، أحيلوهم إلى رماد. ارصفوا الطرق العربية بجماجم اليهود. اضربوهم بلا رحمة». كانت دمشق ترى أن الحرب لم تنته.

الحرب: اليوم السادس ١٠ يونيو (حزيران)

هزم الجولان

مناورات مثمرة في الأمم المتحدة

صليل سيوف بين القوى العظمى

رؤى سلام وشيك

كانت المهمة في نظر ديفيد إليعازار بسيطة. قال لضباطه: «علينا أن نندفع، أيها السادة، إلى أبعد ما نستطيع في الأرض السورية، وبأسرع ما نستطيع، إلى أن نصل على الأقل إلى مفرق القنيطرة في الشمال ومفرق البطيحة في الجنوب، قبل أن يبدأ الهاتف بالرنين». كان إلعازار يعلم أن ذلك الاتصال الهاتفي سيقول له إن إسرائيل تعهدت بمراعاة وقف القتال، وأن الهجوم في الشمال -الحرب- قد انتهى.

قاتلت القوات الإسرائيلية بعناد طوال الليل، ضد هذه الساعة التي لا ترحم، متوقعين أن يقوم السوريون بهجوم معاكس. كذلك السوريون قاتلوا بعزيمة وتصميم. استطاعت حامية من المشاة الاحتياط التابعين للواء ١٣٢ السوري الذين ركزوا مدافعهم المضادة للطيران قرب قرية جلابينا (Jalabina) المحصنة، أن يصدوا كتيبة المظليين الإسرائيلية الخامسة والستين. قال عوزي فينكيلشتاين (Finkel- Uzi stein)، قائد سرية إسرائيلية أنهك رجالها وأصيبوا بصدمات عصبية نتيجة صدمات القذائف فانهاروا بين جلاميد الصخر «نهضت مرتين لأهاجم القرية ولكن أحداً لم يتبعني في المرتين «مضت أربع ساعات قبل أن يتمكن فينكيلشتاين وزمرة صغيرة من رجاله اختراق القرية وتدمير مدافعها الثقيلة».

اتجهت دبابات ميندلر جنوباً من القلعة، متقدمة ستة أميال تحت قصف كثيف من المدافع الثقيلة والدبابات، نحو واسط. انتظرت الهاونات السورية الموجودة في موقع بانياس شمالاً. حتى طهّر المهندسون في لواء جولان ممراً في حقل الألغام، ففتحت نيرانها عليهم. قتل (١٦) إسرائيلياً وجرح (٤) في هذه العملية.

على الرغم من أن الهجوم المعاكس المتوقع، لم يحدث، فإن المقاومة السورية كانت شديدة -فتباطأ تقدم المهاجمين- حتى إن إلعازار فقد مع طلوع الفجر الأمل في الاستيلاء على القنيطرة، ولدى شعوره بالإحباط، وقناعته أن إسرائيل قد فوتت فرصة تاريخية، ذهب إلى النوم.

بعد نصف ساعة أيقظه اتصال هاتفي من رابين يطلب إليه تزويده بآخر المعلومات عن الهجوم فأجابه: «إسحاق لقد أنجزت تطهير الخطوط الأمامية، رغم أني أرى أنها لم تطهر تماماً».

عندئذ فاجأه رابين إذ قال له إن الحكومة قد منحت جيش الدفاع الإسرائيلي مزيداً من الوقت «لتسوية خطوطه» وعلى الرغم من أن الحكومة لم تقل شيئاً عن الوصول إلى القنيطرة فإن العملية يمكن أن تستمر. واختتم رئيس الأركان مكالمته بقوله: «يبدو أن لدينا مزيداً من الوقت، فلم نلتزم بعد بوقف القتال».

فأجابه العازار مبتهجاً: «إذا كان الأمر كذلك، سأشد هجومي على الفور». (١)

استمر الهجوم الإسرائيلي، ولكن المقاومة السورية لم تستمر. فعندما وصل مندلر إلى المنصورة، وهي قرية تبعد خمسة أميال عن واسط، فوجئ بمقاومة لا تكاد تذكر. وقال فيما بعد: «لم نستطع الاحتكاك بعدو متقهقر. أطلقنا النار على عدد من الدبابات فتبين لنا بعدئذ أنها مهجورة. كل ما حولنا كان كمية هائلة من المعدات العسكرية بما فيها دبابات وأجهزة لاسلكي، كلها تعمل وفي حالة جيدة» وحيَّا مشهد مماثل قوات لواء جولاني بعد اختراقهم لقرية بانياس المحصنة، وفيما خلا عدد من الجنود السوريين، وجدوا مقيدين في مواقعهم، كانت الخنادق مهجورة تماماً. أنجز الهجوم، في أقل من ١٥ دقيقة.

في الساعة ٨,٣٠ صباحاً، هزت الجولان سلسلة من الانفجارات الهائلة. كان السوريون يفجرون تحصيناتهم، ويحرقون وثائقهم، ويتراجعون بالجملة، لقد فقد القادة السوريون السيطرة على ميدان المعركة بسبب انقطاع الاتصالات المتقدمة، ولعدم رغبتهم في شن هجوم على الجبهة، حتى إنهم ارتبكوا عندما أذاع راديو دمشق أن القنيطرة الواقعة على بعد ٤٥ ميلاً فقط إلى الجنوب الغربي من العاصمة السورية قد سقطت. وقال الراديو: «نقسم أننا سنسحق رأس الأفعى الصهيونية في القنيطرة ونترك ذيلها الميت في تل أبيب». (٢)

أزمة ومصداقية:

يئس السوريون من تلقي أي عون من أية جهة في العالم العربي، أو من الأمم المتحدة أو من الاتحاد السوفياتي، وكان ذلك القشة التي قصمت ظهر البعير، الأمر الذي جعلهم ينهارون في النهاية. إن الإعلان المسبق عن سقوط القنيطرة وفَّر للنظام ذريعة كي يسحب قواته من الجبهة وحشدها حول دمشق. كما أن المجتمع الدولي ربما يُحفَّز على التصرف. (٣)

كان المجتمع الدولي، في الحقيقة قد بدأ يعمل عندما انعقد مجلس الأمن في الساعة ٤,٣٠ قبل الظهر بناء على طلب سوريا. زعم طعمة أن القوات الإسرائيلية قد احتلت القنيطرة، وتقوم من هناك بهجوم على دمشق. اتهم فيديرينكو إسرائيل «بتضليل المجلس علناً باللعب على عنصر الزمن» ووصف رفائيل بالكذاب. وضغط مع السفير السوري على طابور، رئيس مجلس الأمن، أن يطلب بياناً يحدد بالضبط موقف القوات الإسرائيلية. رفض رفائيل إعطاء بيان بهذا المعنى متذرعاً بأن ليس من حق المجلس أن يجبر ممثل أية دولة ذات سيادة على التكلم، ولكن الضغط عليه أخذ يتعاظم بصورة لا تحتمل. وقد هرب مراراً من قاعة مجلس الأمن ليهتف إلى إيبان في القدس يرجوه إصدار تصريح واضح بشأن سياسة إسرائيل، قائلاً: «ليست مصداقية إسرائيل في خطر فحسب، بل إننا نواجه خطر الإدانة من قبل مجلس

الأمن بما في ذلك الولايات المتحدة». وحذر إيبان من النضال الدبلوماسي الذي سيبدأ بعد الحرب مباشرة، وحذر من تآكل الموقف الأخلاقي الإسرائيلي وانهياره بفضل رفض إسرائيل بيان أهدافها في مرتفعات الجولان..

أسدل على مصداقية إسرائيل ستار آخر من الشك صباح ذلك اليوم مبكراً عندما اعترف مراقبو الأمم المتحدة أن النفاثات الإسرائيلية كانت تقصف دمشق. لكن رفائيل نفى ذلك بشدة، ملمحاً إلى أن المراقبين شاهدوا كذلك الدخان يتصاعد من المستوطنات الإسرائيلية. بيد أن تقارير المراقبين التالية كلها أكدت مشاهدة طائرات إسرائيلية في أجواء العاصمة السورية.

فاضطرت وزارة الخارجية الإسرائيلية أن تعلن عن أول اعتراف لها بالمعركة، وإن كان غامضاً، جاء فيه أن «طائرات سلاح الجو الإسرائيلي لم تكن تقصف دمشق، بل كانت توفر غطاء لقوات إسرائيل البرية». لم يكن لهذا الاعتراف أثر في تخفيف حدة التوتر، على أية حال. ومع أن غولدبيرغ وكارادون طالبا بإصدار قرار يأمر الطرفين باحترام وقف القتال، أصرّ فيديرينكو على أن من ينبغي إدانته هو إسرائيل وحدها. إذ قال بصوت عالٍ: الدائرة كاملة وارتكاب الجريمة ثابت». (٤)

كانت ضغينة فيديرينكو مجرد انعكاس لحقد الكرملين الداخلي. قالت وزارة الخارجية البريطانية: «كانت الأسابيع المنصرمة سيئة للاتحاد السوفياتي. فالانطباع الأبرز هو انهيار آمال كبار، وتحطم الثقة، وفواتير كبيرة للإصلاح». فقد كشفت هزيمة مصر المهينة، وجمود الاتحاد السوفياتي تجاهها، الهوة الموجودة بين أعضاء المكتب السياسي السوفياتي المؤيدين للمواجهة مع الولايات المتحدة في الشرق الأوسط والمعارضين لها وبين كوسيغن والتكنوقراطيين ومسؤولي الأمن المقربين من بريجينيف.

إن ذلك النزاع، بالإضافة إلى تباطؤ السوفيات في اتخاذ القرارات -إذ كانت الحكومة تجتمع مرَّة واحدة في الأسبوع يوم الثلاثاء- كل ذلك شل الدبلوماسية السوفياتية في الأيام الأولى من الأزمة. لقد نعا الزعيم السوفياتي الأسبق

خروتشيف الذي كان يراقب الأزمة من بعيد، فشل كبح ناصر أو الفشل في تقدير قوة إسرائيل بصورة صحيحة، قائلاً: «منذ البداية ارتكبت بلدنا أخطاء - خطأ السماح لهذه الحرب أن تنشب، والسماح لناصر أن يستفز إسرائيل، وخطأ المقامرة في كل شيء». لقد استفادت إسرائيل والولايات المتحدة من المقامرة كما استفاد منها الصينيون كذلك، الذين أساءت دعايتهم إلى مصداقية موسكو والطعن بالاعتماد عليها. أحبط العرب تماماً. كتب نائب رئيس بعثة الاتحاد السوفياتي في الأمم المتحدة، أركادي شيفشينكو (Arkady Schevchenko) يقول: «كان الاتحاد السوفياتي مستعداً لتزويد بعض البلدان العربية بالسلاح وتدريب جيوشهم.. وتقديم مساعدات اقتصادية، لكنه لم يكن مستعداً للمجازفة في مواجهة الولايات المتحدة في المنطقة». وأضاف قائلاً: «أظهرت الحرب رغبة الاتحاد السوفياتي في الانصراف عن تلك البلدان في اللحظة الحرجة بعد أن يكون قد شجعهم وأثار عواطفهم، الأمر الذي سرع المكاشفة والحسم». (٥)

ليس العرب وحدهم الذين يئسوا وأحبطوا من موسكو، بل كذلك حلفاؤهم في أوربة الشرقية. فقد غضبوا من إساءة السوفييت التعامل مع الأزمة، لدرجة أنهم استطاعوا مفاتحة السوفيات بهذه الحقيقة في مؤتمر قمة دول حلف وارسو في ١٥ يونيو (حزيران). وقبل هذا التاريخ اتخذت إجراءات قليلة لاستعادة سمعة روسيا الملطخة، بوسائل عسكرية. ففي حين كان سلاح الجو، والمظليون، وسفن الأسطول في منطقة البحر المتوسط كلها في حالة استنفار قصوى منذ بدء الحرب، لم يحدث أي تحول كبير في نزعة الجيش السوفياتي، وكانت المساعدة للعرب محصورة في إعادة تزويدهم بمعدات حربية، وخصوصاً طائرات الميغ إلى مصر والعراق.

وبعد ذلك اخترق جيش الدفاع الإسرائيلي مرتفعات الجولان. وأُعلن عن سقوط القنيطرة، وبعد ذلك بوقت قصير وردت تقارير عن قصف دمشق. سارعت أجهزة الدعاية السوفياتية إلى اتهام إسرائيل بارتكاب جرائم إبادة الجنس البشري، وبالتآمر للهيمنة على العالم. وسرت إشاعات ضمن الأسطول السوفياتي في البحر

المتوسط عن تدخل عسكري سوفياتي وشيك بما في ذلك إنزال في حيفا. ورغبة من غروميكو في تجنب أي صدام، اقترح رداً قوياً غير عنيف، هو: قطع العلاقات مع إسرائيل. كان القرار حسبما وصفه مسؤول سابق «مجرد حركة ضمن لعبة سياسية داخلية أكثر مما هو موقف لصالح العرب... كان رشوة لتهدئة صقورنا». ومع ذلك، لم يكن من السهل تهدئة أولئك الصقور، مع تعرض عاصمة حليف شرق أوسطي كبير للسقوط. (٦)

بدأ تلكس الخط الساخن في البيت الأبيض يتك في الساعة ٧,٣٠ صباحاً. قيل للرئيس جونسون: «إن كوسيغن يريد الرئيس أن يأتي إلى الجهاز بأسرع ما يمكن» كانت القوات الإسرائيلية تندفع نحو دمشق، كما قال الزعيم السوفياتي؛ والنتائج خطيرة:

«لقد جاءت اللحظة الحاسمة التي تجبرنا على تبني موقف مستقل، إذا لم تتوقف الأعمال العسكرية في الساعات القليلة القادمة. نحن مستعدون لذلك. ومع ذلك، ربما تجرنا هذه الأعمال إلى صدام يقودنا إلى كارثة... نقترح أن تطلب من إسرائيل أن توقف عملياتها العسكرية بلا قيد أو شرط.. ونقترح أن تنذر إسرائيل أنه إذا لم تطبق ذلك فإن أعمالاً ضرورية سنتخذها بما في ذلك الأعمال العسكرية».

كما ورد دليل آخر على جدية السوفيات. إذ اتصل بوريس ن. سيدوف (Boris N.Sedov) السكرتير الثاني في سفارة الاتحاد السوفياتي في واشنطن ومسؤول رفيع المستوى في الـ KGB بريمون كارتهوف (Raymond Garthoff)، في وزارة الخارجية وأخبره أن موسكو مستعدة لانتهاك أجواء تركيا وإيران واليونان لإرسال قوات إلى المنطقة. وقال: «إن ٤٠٠ مستشار سوفياتي في سوريا قد خوّلوا بالقتال». كما تلقت وزارة الخارجية البريطانية رسالة من عشرة بلدان من حلف وارسو تتعهد بتقديم كل ما هو ضروري لمساعدة شعوب البلدان العربية لصد العدوان... ولحماية حقوقهم

المشروعة... ولا بد للنضال العربي أن ينتصر... في قاعة الاجتماعات في البيت الأبيض كان الجو متوتراً، كما قال مدير المخابرات المركزية (CIA) ريتشارد هيلمز (Richer Helms) أثناء الحديث الجاري بين جونسون ومستشاريه «بأخفض أصوات سمعتها بحياتي». وقال السفير لولين تومبسون (Llewellyn Thompson) الذي ترجم نص كوسيغن وأعاد تدقيقه للتأكد من وجود كلمة «عسكري»: «إنه لوقت عصيب بالغ الخطورة». وصلت برقية أخرى من الكرملين في الساعة العاشرة تؤكد اتهام إسرائيل ونواياها تجاه دمشق وينصح جونسون بتأكيد تلك الحقيقة مع السفير الأمريكي هناك - وكأن السوفيات لا يعلمون بطرده. أخذ مزاج موسكو يزداد تدهوراً.

مضت ساعة وجونسون يراجع خياراته. عبر تومسون عن دهشته لالتزام كوسيغن الشديد بسوريا، بالمقارنة مع التزامه بمصر وتساءل فيما إذا كان يعتقد حقاً أن الغرب يريد الإطاحة بالبعث، كان هيلمز يعتقد أن الإسرائيليين يستهدفون دمشق فعلاً، فطلب معلومات من الميدان. ومع ذلك كان الجدال مركزاً حول ما إذا كان السوفيات جادين في التدخل أو أنهم يختبرون عزيمة أمريكا وتصميمها فقط. وعبر تومبسون عن الموقف بقوله: «إذا كانت إجاباتنا مؤدبة، فربما نبدو وكأننا تراجعنا أمام التهديد».

وأخيراً، أحجم الرئيس عن الرد على التهديد، بتهديد، بل أجاب بود ولكن بإحكام. أكد إلى كوسيغن بأن الولايات المتحدة فعلت ما بوسعها لكبح الإسرائيليين وحثه على أن يفعل الأمر نفسه مع السوريين. وأضاف قائلاً: «إن مما يخدم السلام» إعلان الكرملين بصراحة وعلانية نفي كذبة ناصر الكبرى.

لم يستدر ماكنمارا إلى تومبسون، إلا بعد مغادرة جونسون الغرفة، ليسأله: «ألا تعتقد أنه من المفيد.. أن نوضح للسوفيات بأننا لا ننوي نفي هذه الكذبة؟ ألا تكون فكرة جيدة لو أدرنا، ببساطة، الأسطول السادس وحاملتي الطائرات وما يرافقهما من سفن، باتجاه شرق البحر المتوسط؟».

قال تومبسون، نعم، ستكون فكرة مفيدة، ووافق هيلمز عليها أيضاً، مذكراً بأن السفن السوفياتية تتعقب الأسطول عن كثب: «فالرسالة سوف تصل إلى موسكو بسرعة».

قبل جونسون نصيحة مستشاريه، وقال إلى مكنمارا: «اعرف بالضبط أين هو الأسطول، وقل له إلى إين يستدير».

ذهب وزير الدفاع إلى الهاتف وأصدر على الفور الأمر. أعطيت تعليمات للأسطول الذي كان يبحر غرب قبرص بين كريت ورودس، أن يستدير إلى الشرق حتى يصل إلى مسافة مئة ميل عن الساحل الإسرائيلي. (٧)

استعد الأمريكيون إلى الضغط على إسرائيل جنباً إلى جنب مع كبح تحركات السوفيات المحتملة. كان إيبان يلعب بورقة الزمن مؤكداً لباربر أنه ليس «لإسرائيل نية في الذهاب إلى دمشق». وأنها راغبة في قبول وقف القتال في المكان والدقيقة التي يتوقف فيهما السوريون عن قصف المستوطنات الشمالية. لقد صدرت الآن تعليمات للسفير الأمريكي الذي كان سابقاً يستمع إلى مثل هذه المناقشات، أن يرفضها. فأجاب إيبان قائلاً: إن سقوط القنيطرة، كما ذكرت التقارير لا يتفق أبداً مع ما تدعيه من حاجة لإخراس المدافع السورية «فعلى إسرائيل أن تبرهن على قبولها وقف القتال على الأرض قبل أن يجتمع مجلس الأمن بعد ظهر هذا اليوم، وإلا ستخاطر بمكاسبها على كل الجبهات الأخرى» وتابع باربر تحذيره بأن إسرائيل ستجد نفسها في مواجهة السوفيات وحدها، بالإضافة إلى إدانتها في الأمم المتحدة، وربما في الكونغرس.

دعا غولد بيرغ، رفائيل إلى قاعة الوفود في الأمم المتحدة وحثه على إصدار بيان حول عزم إسرائيل على وقف القتال، وإلا فإن فيديرينكو سوف يعلن في الحال أن «الحكومة السوفياتية مستعدة لاستخدام كل الوسائل المتاحة لجعل إسرائيل تحترم قرار وقف القتال». وأفضى له غولد بيرغ في أثناء حديثه عن تعليمات الرئيس الواضحة أن «الولايات المتحدة لا تريد إنهاء الحرب نتيجة للإنذار السوفياتي النهائي. فإن ذلك سيكون كارثة ليس لمستقبل إسرائيل فقط، بل لمستقبلنا جميعاً. إنها لمسؤوليتكم أن تتصرفوا الآن».

في حال إغفال ملاحظة غولدبيرغ، رتب بوجين روستو ونيكولاس كاتزينباخ (Nicholas Katzenbach) لقاء طارئاً مع أبي هارمان (Abe Harman) وإبي إيفرون (Eppy Evron)، قيل فيه للإسرائيليين بكلمات صارمة إنهم وحدهم يتحملون مسؤولية استمرار الأعمال العدوانية على سورية. فالرأي العام العالمي أخذ ينقلب ضدهم، في حين أن الكونغرس مشغول في الحديث عن فشل وقف القتال. «فضلاً عن أنه بانشغال السوفيات بصليل السيوف يعد تمكّن واشنطن من التأكيد للسوفيات بأن إسرائيل سوف تحترم قرار وقف إطلاق النار أمراً حاسماً. كان وكلاء الوزراء متمسكين بضرورة اتخاذ مثل هذا الإجراء: «إن مصداقيتنا مع السوفيات في خطر». (٨)

وصلت هذه الرسائل إلى القدس في اللحظة التي استلم فيها إشكول برقية من موسكو. أشارت البرقية إلى الخرق الإجرامي «لقرارات وقف القتال الصادرة عن الأمم المتحدة، وغزوها» الخياني للأراضي السورية وتقدمها إلى دمشق وحذر السوفيات إسرائيل «إنه إذا لم توقف القتال فوراً، فإن الاتحاد السوفياتي والدول الأخرى المحبة للسلام ستفرض عقوبات عليها بكل ما يترتب على ذلك من نتائج».

ولكي يدعم السوفيات تهديدهم اندفع شوفاخين إلى مكتب إيبان وأعلن بصوت مرتجف بأنه «في ضوء العدوان الإسرائيلي المستمر على الدول العربية، وانتهاكها الفاضح لقرارات مجلس الأمن، فإن الاتحاد السوفياتي قد قرر قطع العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل» ارتجل إيبان جواباً اعترف فيه بالفروق المريرة بين إسرائيل والسوفيات، ولكنه يرى أن هذه الفروق تستوجب تقوية العلاقات لا قطعها، وقال: «لو كان هناك انسجام كامل بيننا، لأصبحت المسألة مجرد حفلات كوكتيل».

خفض شوفاخين صوته وأجابه: «ما تقوله سعادتكم منطقي، ولكني لم أرسل هنا لأكون منطقياً. جئت هنا لأبلغك بقطع العلاقات» وبعد ذلك انفجر السفير السوفياتي بالبكاء، مما أدهش إيبان.

إن كبش فداء فشل السوفيات في الشرق الأوسط، هو شوفاخين الذي طرد من عمله في الخارجية ونفي إلى سيبيريا، ومع ذلك، ليس الاتحاد السوفياتي وحده استدعى سفيره من إسرائيل، وكان الرد الإسرائيلي الفوري على ذلك هو التوجه إلى واشنطن طلباً لمزيد من المساعدات العسكرية في حال انخراط السوفيات المباشر في الحرب. امتنع البيت الأبيض عن الرد على هذا الطلب (٩). فعندما وجدت إسرائيل نفسها معزولة بصورة مفاجئة وفي مواجهة التنديد والإدانة في مجلس الأمن، واحتمال الصدام مع القوات السوفياتية، لم يبق أمام قادتها خيار سوى التوقف وإعادة النظر في قراراتهم بشأن الهجوم على سوريا، وهل ما زال يستحق هذه المجازفة.

ثلاثي الهاوية:

قال إليعازار: «إنني أنصح، وأظن، بل أعتقد أن علينا الوصول إلى القنيطرة والبطيحة، ويمكننا ذلك. لن يكون هناك هجوم سوري معاكس. فالقوات السورية على وشك الانهيار».

في الساعة العاشرة صباحاً كان رئيس القيادة الشمالية يخاطب اجتماعاً عقد لهذا الغرض ضمَّ إشكول ودايان ووايزمان وحاييم بارليف، وكانت القناة العربية في إذاعة إسرائيل تكرر على مدى الساعة المنصرمة ادعاء سوريا سقوط القنيطرة - وهو ادعاء كان الإسرائيليون يعرفون أنه كاذب ولكنه ييسر انهيار العدو وسرعته كما يأملون. والآن، في ضوء التقهقر السوري، يبرز السؤال التالي: «هل على إسرائيل أن تستثمر ذلك؟».

قال إشكول مؤكداً: «يجب أن ننهي الأمر بسرعة، إننا نتعرض لضغط كبير من الأمم المتحدة» وكان رئيس الوزراء يعارض مطالب وزراء تجمدت معارضتهم للهجوم في إطار علاقات إسرائيل بالولايات المتحدة وقطع العلاقات مع موسكو.

أراد دايان أن يعرف «متى نستطيع إنجاز المهمة؟».

أكد لهم دادو أن القوات الإسرائيلية تصل أهدافها على طول خط يمتد من مجدل شمس في أقصى الشمال، عبر القنيطرة، إلى البطيحة بحلول الساعة الرابعة بعد الظهر.

قاطعه إشكول: «إن كنت تقول الرابعة، فذلك يعني أنه يمكن أن تكون الخامسة أو السادسة».

فابتسم الجنرال، وقال: «سيدي، إن كنت أقول الرابعة فإني أعني الثانية أو الثالثة».

كان نائب رئيس العمليات، زئيف، يجلس إلى جانب إشكول، مع ألون وموشي كارمل يصغون إلى الحديث، فقال زئيف: «مهمتي أن أضغط على إشكول من أجل ساعة قتال أخرى، ومن ثم ساعة أخرى. فالمهمة لم تكن سهلة، إذ كانت الضغوط عليه من واشنطن ونيويورك هائلة. وكذلك دايان لا يريد التوسعات».

وفي النهاية، وافق وزير الدفاع على إعطاء الجيش مهلة أربع ساعات إضافية دون أية دقيقة زيادة على ذلك. فهو سيلتقي في ذلك الوقت الجنرال بول ويؤكد له قبول إسرائيل وقف القتال. واختتم كلامه قائلاً: «ولا تطلب حتى غطاء جوياً بعد الساعة الثانية». (١٠)

تزامن القرار الإسرائيلي بإطالة زمن القتال مع تصميم سوريا على قتال أقوى بتشجيع من رغبة مجلس الأمن المفاجئة في مواجهة الإسرائيليين، ودعم من تهديدات الروس بالتدخل، فحاولت دمشق إلغاء إعلان سقوط القنيطرة فأذاع الأسد بياناً في الساعة ١١,٤٥ بعد الظهر إلى الشعب السوري قال فيه: «مازال جنودنا الشجعان يقاتلون في القنيطرة. لن يدع جنودنا البواسل العدو يحتل المدينة. لقد دمر عدد هائل من دبابات العدو». وأضاف معلقاً قائلاً: «إن انتصارنا اليوم في القنيطرة يعني انتصارنا غداً في تل أبيب».

جاء هذا الإعلان متأخراً، على أية حال إذ كان الجيش السوري في حالة فرار تامة، متخلياً عن أسلحته الثقيلة، وازدحمت به الطرق. حث المستشارون السوفيات الجنود على الثبات في مواقعهم، وصدرت الأوامر بإطلاق النار على من يشاهد

هارباً. أثبتت هذه الجهود كلها عبثيتها، إذ تم تجاهل السوفيات، في حين أن القادة الذين أصدروا أمر قتل الهاربين كانوا هم أنفسهم قد غادروا ميدان المعركة. وبسبب اعتقاد الجنود السورين بأن الجولان بأكمله قد سقط نتيجة إشاعات عن استخدام إسرائيل أسلحة نووية، لجأ ٤٠٠٠ جندي سوري إلى الأردن، و٣٠٠٠ إلى لبنان.

ادعى ضابط التسليح مروان حمدان الخولي قائلاً: «لقد قُطعنا نهائياً، وكنا نتعرض لقصف كثيف، ولم يكن لدينا اتصالات لا سلكية». كانت فصيلته قد تمركزت قرب جسر بنات يعقوب، دون أن يصلها القصف، بانتظار الأوامر لغزو الجليل. «وأخيراً جاءنا أمر بالتراجع دون أن نعرف السبب. كل ما علمناه كان من الإذاعة، وبدأنا نخمن أننا خسرنا الحرب، نتيجة ما سمعناه». أما الكابتن محمد عمَّار الذي نجا من المعارك الدائرة حول تل فخر، فيصف حالة الفوضى على النحو التالي:

«إن القوات التي كان من المفروض أن تحول دون تقدم العدو، قد انسحبت دون أوامر، ودون تنسيق، لم نعرف شيئاً، ولم يكن لدينا أي خيار سوى الانسحاب. قتل من فصيلتي تسعة، وجرح أربعة، لم تكن لدينا ذخيرة، ولا أية وسيلة للحصول على المزيد منها» وتحدث قائد اللواء الثامن إبراهيم إسماعيل خاحيا بصراحة عن عاره:

«تلقينا أوامر بسد الطرق المؤدية إلى القنيطرة. ولكن بعد ذلك أعلن سقوط القنيطرة الأمر الذي جعل العديد من الجنود يتركون الجبهة ويهربون عائدين إلى سوريا في حين ظلت هذه الطرق مفتوحة. كانوا يتكدسون في المركبات فتحطمت معنوياتنا، فتراجعت دون أن أرى جندياً معادياً».

ومما زاد الفوضى تعقيداً خروج ٩٥٠٠٠ مواطن سوري من الجولان. ويذكر علي الدرويش، مزارع من قرية العيون، ومتطوع في الحرس القومي: «في الخامس من يونيو (حزيران) تلقينا أمراً بالجلاء. كانت بالقرب منا كتيبة مدفعية (سورية) فكان هناك خطر احتمال إصابة القرويين بقذائف العدو التي ستطلق على هذه الكتيبة. فلم نأخذ معنا شيئاً، سوى بطانيات للأطفال. اختبأنا في المغاور خمسة أيام إلى أن

جاءت الأوامر بالانسحاب كلياً فهربنا مشياً على الأقدام إلى الأردن» أما عبد الله مرعي حسن، فلسطيني يعمل مع الإدارة السورية فقد أصر على البقاء في القنيطرة حتى العاشر من يونيو (حزيران): «عندئذ فقط عندما تيقنت أن الجميع تخلوا عن المدينة غادرتها. لم يكن معي سوى ثيابي التي ألبسها». في حين أن الدروز والشركس الذين يخدم أقرباؤهم المقيمون في إسرائيل في جيش الدفاع الإسرائيلي بإخلاص قد ظلوا ليحيوا المحتلين.

تجمع معظم اللاجئين (النازحين) في دمشق التي هي نفسها لم تكن آمنة من هجوم إسرائيلي. حذر سويداني، رئيس هيئة الأركان السورية، زعماء سوريا السياسيين، قائلاً: «اليهود.. يطبقون على دمشق. ولا أحد يستطيع إيقافهم. تتمتع إسرائيل بدعم الأمريكيين والبريطانيين ويمكنها أن تدوس بازدراء على الأمم المتحدة. فعلينا الاستعداد للدفاع عن العاصمة ولآخر قطرة دم فينا».

ومع ذلك كان أول من هرب من المدينة هو رئيس هيئة الأركان الذي وصفه مصدر دبلوماسي أمريكي بأنه «جبان على الأقل، وخائن على الأكثر»، ثم تبعه وزراء حكوميون اندفعوا إلى حلب بما يملكون من ذهب مخزون. وقال مصطفى طلاس الذي قضى معظم اليوم يراوغ الطائرات الإسرائيلية في أثناء تقهقره: «لم ننل أبداً شرف مقاتلة العدو الصهيوني». ورغم أن سيارات الجيب كانت تجوب الشوارع تحث الناس بمكبرات الصوت إلى الصمود والقتال. فقد ترك الدفاع عن دمشق إلى لواء واحد هو اللواء السبعين الموالي للنظام. (١١)

نزل الإسرائيليون، متعقبين السوريين بأقصى سرعة، إلى القنيطرة من اتجاهات ثلاثة - من مسعدة وبقعاتا من الشمال، ومن القلعة شرقاً، ومن تل أبو الندا من الشمال الشرقي. واتجهت وحدات أخرى جنوباً إلى الخشنية، وشمالاً على السفوح المتاخمة للحدود اللبنانية. و عند الرأس الجنوبي لبحر الجليل تركز القصف المدفعي على التوافيق في الساعة الواحدة بعد الظهر تمهيداً لهجوم مظلي لاحتلال الحصن. وبعد ذلك، حمل ٨٠٠ مظلي في مروحيات إلى كفر حارب أولاً، ثم إلى العال، وأخيراً

إلى البطيحة، مغامرين باحتمال وجود قلة قليلة، من الجنود السوريين، هذا إن كان هناك أحد أساساً في ساحة القتال. وهكذا كان التقدم بقفزات سريعة وواسعة جداً بحيث كان القادة لا يعرفون أين هم، بل كل ما كان يهمهم هو الاستمرار بالتقدم قبل أن يدخل قرار وقف القتال حيز التنفيذ، تراجع السوريون بسرعة فاقت سرعة تقدم الإسرائيليين إذ كانت غالبية مواقعهم قد هجرت.

ومع ذلك بقي التقدم بطيئاً نسبياً. كانت فترة الساعتين، الموعد الأخير المحدد، تقترب من النهاية، حتى إن العناصر الإسرائيلية الرائدة لم تصل بعد إلى أهدافها، إذ كان الكثيرون يرون أن وقف القتال أصبح وشيكاً، فلا داعي إذن إلى الاندفاع، ولدى مرور إيغال ألون بنفاح (Nafakh) أوقف سيارته الجيب وسأل ضابطاً متوانياً -رون ساريق (Ron Sariq)، قائد سرية استطلاع - عما يفعل هناك، فأجابه ساريق: «انتظر الأوامر» فصاح فيه ألون: «لا تقف هناك، هيا أسرع واحتل القنيطرة». (١٢)

احتلت القنيطرة في الساعة ١٢,٣٠ بعد الظهر. أذعن ميندلر إلى طلب من بارليف السماح للواء جولاني أن يكون أول الداخلين إلى القنيطرة تكريماً لقيامه بالدفاع عن الحدود الشمالية مدة ١٩ عاماً. فلم يجدوا سوى أحياء ومناطق مجاورة مهجورة تماماً، مخازنهم وأسواقهم مليئة، وما زال طعام غدائهم ساخناً على الطاولات، ويذكر الكولونيل بني إنبار (Benny Inbar) قائد الكتيبة الـ ٥١ من لواء جولاني: «كان بإمكاننا الاستمرار إلى دمشق، كانت الطريق مفتوحة أمامنا تماماً. لقد هربوا (السوريون)».

وفي اجتماع عقد في نادي الضباط السوريين، في القنيطرة، حث إلعازار رابين أن يخوله بالاندفاع إلى عمق سوريا بالمدرعات. إن خطة الطوارئ ١٩٦٤ لجيش الدفاع الإسرائيلي، هاتشيث (Hatchet) (غارزين (Garzen) بأن تقوم فرقتان باحتلال عاصمة العدو في غضون ثمانين ساعة. لكن رابين رفض الفكرة مصراً على عدم احتلال المزيد من الأراضي السورية. الاستثناء الوحيد هو جبل حرمون الذي وصفه موتي هود (Motti Hod) الذي كان حاضراً في الاجتماع أيضاً بأنه «عين

الأمة» يجب احتلال جزء من قمته بأسرع ما يمكن وتحويلها إلى مرصد لإسرائيل يكشف قلب مدينة دمشق. (١٣)

كان دايان غائباً عن هذه المشاورات. كان وزير الدفاع يرتب موعداً مع أودبول (Odd Bull). وفي مناورة فجّة لكسب الوقت، حدد دايان اللقاء في طبريا. وعندما وصل رئيس مراقبي الأمم المتحدة إلى طبريا وجد أن مكان اللقاء قد تحول إلى تل أبيب. التقى الاثنان أخيراً الساعة الثالثة بعد الظهر، أي بعد ساعة من الموعد المقرر.

افتتح بول الحديث بالتأكيد على كسر الدورة التي كان يتقدم فيها الإسرائيليون، ويدافع السوريون عن أنفسهم، فيتخذ الإسرائيليون دفاع السوريين ذريعة لمزيد من التقدم. لم يجد هذا المنطق تعاطفاً من دايان. إذ قال ما زال السوريون يقصفون المستوطنات، فإذا ما توقفوا فإن جيش الدفاع سيتوقف على الفور. ثم قال: «نحن لا نسعى إلى تعويض» ووصف دايان القتال بأنه مطلق «نحن لا نفاوض، وسوف نوافق دون قيد أو شرط» - ولكنه بعد ذلك أخذ يملي شروطه الخاصة: «لن تقبل إسرائيل أي عذر لخرق وقف إطلاق النار، مثلاً، أن تظل هناك وحدات سورية تتلقى أوامر بالقتال. فضلاً عن أن اتفاق وقف إطلاق النار يجب ألاَّ يستعيد اتفاقات الهدنة للعام ١٩٤٩. ولكن يسمح لمراقبي الأمم المتحدة الاقتراب من خط وقف القتال؛ وعلى بول أن يقبل كلمة إسرائيل بأن القتال قد توقف فعلاً». (١٤)

كان وقف القتال سيدخل حيز التنفيذ في الساعة السادسة بعد الظهر. وجّه دايان إلعازار قائلاً: «لا يقولن أحد أن جهازه اللاسلكي لا يعمل». وأمر وايزمان وزئيف أن يرسما خريطة لحدود إسرائيل الجديدة، ووبخهما قائلاً: «اضبطا نفسيكما». ومع ذلك تجاهلت القيادة الشمالية التعليمات الصادرة إليها من القدس، ومدَّدت الوقت النهائي بضع ساعات أخرى لتحسين مواقع إسرائيل الدفاعية. أمرت كل وحدة، وكل جندي أن يحتل قمم التلال ومفارق الطرق الاستراتيجية. فألبس ضابط المخابرات أهوفيا تابنكن (Ahuvia Tabenkin) طباخيه خوذاً، وزوّد موظفيه

بالسلاح وأرسلهم للجلوس على قمة جُرف الرقاد (al-Ruqada) شمال الخشنية. وتابعت المروحيات بنقل الجنود إلى مناطق خلفية تقع شمال شرقي البطيحة.

لم تسر هذه العمليات دون مقاومة، إذ كانت تظهر مقاومات مبعثرة هنا وهناك من حين إلى حين. في لحظة من اللحظات كانت طائرة سورية من طراز ميغ تلاحق طائرة إلعازار المروحية الأمر الذي اضطرها إلى الانخفاض والطيران في وهد منخفض. هبطت المروحية بسلام في كيبوتز النقيب على الشاطئ الجنوبي لبحر الجليل. هرع العديد من أعضاء الكيبوتر لتحية الجنرال. ويقول إسحق هوفي رئيس هيئة العمليات الذي كان هو وبارليف على متن الطائرة ذاتها، معلقاً على الحادثة: «إن عودة الوحدة بين دادو وأعضاء النقيب لا تنسى أبداً. رجال ونساء وأطفال، يضحكون ويبكون، تحلقوا حوله، يعانقونه ويقبلونه. كان ذلك ابتهاجاً بما حدث، وبخلاصهم من الكابوس الذي انتهى الآن». (١٥)

إن نبأ لقاء دايان مع بول، الذي تبعه نفاد وقت القتال، هدأ الوضع المتفجر في الأمم المتحدة. لاحظ باربر قائلاً: لعب الإسرائيليون بعنصر الزمن في مناورات سياسية في مجلس الأمن حتى أوصلوا العالم إلى حافة الهاوية». وأن سياسة حافة الهاوية هذه قد أثمرت. فعلى الرغم من استمرار فيديرنيكو بالتهجم على الإمبريالية الأنكلو -أمريكية- الإسرائيلية، فإنه لم يَصْدُر قرار يدين إسرائيل. ولم يصدر أي رد فعل عربي أو سوفياتي، عندما استقل الكولونيل بنحاس نوي (Pinchas Noi) من كتيبة جولاني الثالثة عشرة، وعامل اللاسلكي، طائرة مروحية في اليوم التالي إلى جبل حرمون وزرعا علم إسرائيل على قمته.

لم يعد تركيز في الأمم المتحدة على الوضع العسكري على الأرض، بل بتسوية ما بعد الحرب. أخذ غولد بيرغ ينتقل من وفد إلى وفد يستطلع أراءهم ومواقفهم بشأن عقد مفاوضات عربية - إسرائيلية. وافترض أن تكون المفاوضات مباشرة، وجهاً

لوجه، مع حق وسيط الأمم المتحدة بالحضور، وأن تسفر عن اتفاقات مبدئية بشأن فصل القوات وحرية الملاحة في الممرات. وكتب متنبئاً: «ستكون مسألة انسحاب بسيط، مقابل انسحاب كجزء من تسوية شاملة، هي المسألة الرئيسية الأكثر دقة، حالما يثبت وقف إطلاق النار».

كذلك كان قادة العالم يتطلعون إلى ما وراء ميدان المعركة، إلى التطور الدبلوماسي الناجم عن الحرب. وبدت المشاكسات والنزاعات التي ستثيرها تلك المرحلة جلية في الرسالة التي بعث بها كوسيغن إلى جونسون على الخط الساخن: «إذا كانت الأعمال العسكرية قد انتهت اليوم، فمن الضروري الشروع في الخطوة التالية وهي إخلاء المناطق التي احتلتها إسرائيل والعودة إلى ما وراء خط الهدنة» ومع ذلك أنهى الزعيم السوفياتي رسالته بملاحظة إيجابية «وأرى أنه لا بد من إبقاء الاتصال معكم حول هذه المسألة» مشيراً بذلك إلى احتمال تعاون القوى العظمى بشأن هذه القضية، كان جونسون، من ناحيته، يفكر، ليس فقط في إعادة توضيع القوات وفي الانسحاب، بل أيضاً في المسألة الجوهرية وهي وضع حد للصراع العربي -الإسرائيلي- وتغيير البيئة في المنطقة. فأجاب على رسالة كوسيغن قائلاً: «يبدو الآن أن الأعمال العسكرية في الشرق الأوسط قد انتهت. وآمل أن نكرس جهودنا فيما هو آت من الأيام لتحقيق سلام دائم في العالم». (١٦)